أمين الســـاطي

المسوة

مجموعة قصصية

الفهـرس

المقدمـة ٥

جزر سيشل ٧

ثورة الموسيقا ٤١

ناديـا ٦٧

المفاجـأة ٩٥

الممسوسة ١١٥

الزلـــزال ١٦٧

رسالة على الماسنجر ١٨٧

المســـحوق ٢١٧

الإهـداء

إلى ولديّ منير وعمر اللذين شجعاني على الاستمرار في متابعة حياتي اليومية بشكل عادي بعد تقاعدي عن العمل، وإلى كلِّ الأصدقاء الذين شجعوني وألهموني إشباع هوايتي بكتابة القصص القصيرة، ثم ساعدوني في مختلف مراحل العمل لتحويل هذه الهواجس والأحلام إلى كتاب مطبوع، أتقدم بخالص شكري ومحبتي لكم.

المقدمة

هناك اعتقاد شائع منذ قديم الزمان، عند الذين يمارسون السّحر والمؤمنين به، بأنّ قوة الدماغ قادرة على أن تتداخل مع واقعنا الحالي، وأنها بمساعدة بعض التعاويذ، تستطيع استحضار كيانات خفيّة من العالم الثاني، تمكنها من التأثير في طبيعة المادة المحيطة بنا، لكنّ الصعوبة تبقى دائماً في التنبّؤ بنتيجة هذه العملية.

لربما تغيرت بعض الأمور أثناء ممارسة طقوس السّحر، وأثرت بدورها في أخرى، ما سيؤدي بالنهاية إلى تغيير النتيجة بأكملها.

يرفض البعض الاعتراف بأنّ هناك خطةً واعيةً خططت ونظمت هذا الكون، وهي وراء كلّ هذه الأحداث التي نمرّ بها، إنهم يتظاهرون أنّ باستطاعتهم كسر ترتيب تسلسل هذه الأحداث المقدّرة سابقاً وتغييرها، مقتنعين بقدرتهم على اختراق حاجز الزمن، لرؤية المستقبل، ولإعادة تشكيل الحاضر، وعادةً ما يستغل السّحرة حاجة الشخص تحت تأثير اليأس والفشل ومحاولته الهروب من الواقع المؤلم الذي يعيش به، فيدفعونه إلى ترك المنطق والبحث عن الحلّ في عالم ما وراء الطبيعة، فيساعدونه ليعيش الوهم ويتخدّر به، ولو لفترة محدودة.

لكن.. في النهاية يكتشف الضحية، أنّ الحياة التي تصوّرها وعاشها تحت تأثير هذه الوساوس والأوهام، كانت عبارة عن مجرد خيالات في السراب، فتتحطم آماله، ويعلن فشله النهائي بالوصول إلى ما كان يتطلّع إليه.

جزر سیشل

مازلت أذكر حتى الآن صباح هذا اليوم الذي ابتدأت فيه هذه القصة، كان ذلك في أوائل شهر أيلول، منذ نحو عشرة أعوام، كنت وقتها أعمل مهندساً في شركة سعودية للتعهدات، تقوم بإنشاء مبنى تجاري ضخم في مدينة مكناس في المملكة المغربية، جرت العادة أن أتردد أنا وصديقي اللبناني خليل، الذي يعمل محاسباً معي في الشركة نفسها إلى مدينة طنجة نهاية كل أسبوع، لتمضية يومي السبت والأحد في التنقل بين البارات، والتسكع على بلاجات البحر.

انطلقنا كعادتنا في صباح يوم السبت على الطريق الإسفلتي الضيّق الذي يمر بين أحضان بساتين البرتقال التي تقع على جانبي الطريق المؤدي إلى طنجة، شعرت بنسمات الصباح الباردة تحمل معها أريج أزهار البرتقال إلى داخل السيارة، إن رائحة أزهار البرتقال أشد وأقوى جاذبية من جميع أنواع الأزهار التي أعرفها، إنها تخترقني، لتخلق بداخلي انتعاشة غريبة، غطت على رغبتي للاستسلام لهجمات النوم في هذا الصباح الباكر، ولتبعث في نفسي ذكريات رائحة صديقتي فيرا القادمة من جزر سيشل، التي سأقابلها بعد عدة ساعات، للعطر تأثير قوي فوري، يشعل الرغبات العاطفية المدفونة في أعماق الرجل، ويغير مزاجه فوراً، ويجعله يعيش في عالم الأوهام، إنها تذكرني برائحة العطر الذي يفوح من جسدها، والذي طالما جذبني إليها ليختلط الحب بالكيمياء.

أخذت أتصورها أمامي، وهي تنتظرني بشعرها الأسود الداكن، وعينيها العسليتين الصغيرتين اللتين تلمعان بشكل دائم، لتظهرا مقدار ذكائها، على الرغم من بشرتها البنية الفاتحة، وقامتها

القصيرة، وبنيتها النحيفة، وصدرها الصغير، فإني أتصورها من أجمل البنات اللواتي عرفتهن في حياتي، إني أجد نفسي منجذباً بشكل لا يقاوم إلى هذا الهجين المختلط من الجمال الأوروبي والإفريقي، إنه مغاير لطبيعة الجمال العادي الذي تعودت عليه في سورية.

عاشت في جزر سيشل التي هي خليط من الثقافات واللغات المتعددة، بينما عشت أنا محافظاً طوال عمري في بيئة متزمتة، ولم أتصور أبداً أن يكون عندي في يوم من الأيام صديقة تعمل موظفة استقبال في نادٍ ليلي.

الواحد منا في الغربة يتطور بسرعة في كل يوم نتيجة لتجاربه في الحياة وتقدمه بالعمر، كما تتغير علاقاته مع الأشخاص المحيطين به، لتصبح له شخصية جديدة لها رغبات وتطلعات تختلف كلياً عن شخصيته القديمة التي عاشها في بلده، إن رائحتها الطبيعية تثيرني أكثر من روائح العطور الفرنسية الغالية التي تضعها النساء، لتزيد من جاذبيتهن الأنثوية، لاشك أن لحاسة الشم دوراً أساسياً في العلاقات الحميمة والانجذاب الجنسي بين الطرفين، وقد تفوق في بعض الأحيان حاستي النظر واللمس.

مضى على علاقتنا أكثر من ثلاثة أشهر، وأخذت فيرا تضغط عليَّ بالفترة الأخيرة لكي أتزوجها، وصلنا طنجة، ونزلنا بفندق أطلس الذي تعودنا عليه، اتصلت بفيرا على هاتفها الجوال، وتواعدنا على اللقاء للغداء في مطعم يقدم الأطباق المغربية على شاطئ البحر، بعد كأسين من النبيذ شعرت بالنشوة والسعادة لوجود فيرا إلى جانبي،

وهـي تـدرك بذكائهـا وتجربتهـا أن الكحـول يجعلنـي أكثـر انفتاحـاً لتقبل تجـارب جديـدة، والإنصـات إلـى اقتراحـات الآخرين.

أثناء جلوسـنا بالمطعم اقترحـت فيـرا علينـا الذهـاب لقضـاء عطلة عيد الأضحـى التـي سـتحل بعد أسـبوعين في جـزر سيشـل، وقبل أن تسـمع جوابنـا، أخرجـت مـن جزدانهـا صـورة لفتـاة جميلـة، لا يزيـد عمرهـا علـى عشـرين عامـاً، وناولتها لخليل، وذكرت لـه أنها صديقتها التـي تعيـش في جزيـرة براسـيل. حاولـت أن تقنعنـا بأنـه يمكننـا أن نعيش نحـن الأربعـة في شـقة صغيرة ورخيصـة، وتقوم هـي وصديقتها بتحضيـر الطعـام لنـا، وسـيقتصر مصروفنـا علـى الذهـاب بالليـل إلـى البـارات، وسـنمضي أكثـر أوقاتنـا علـى شـواطئ الجزيـرة الرائعـة ذات الرمـل الأبيـض النـاعـم التـي تنبـت فيهـا صخـور الغرانيـت السـوداء، مسـتغلين الجـو المعتـدل الـذي يسيطـر علـى الجزيرة في أوقـات الربيـع، وسـيكون مصروفنا محدوداً، ولاسـيما أن الدولار يعادل عشـر روبيات بالعملـة المحليـة، ولـن تكلفنـا هـذه الرحلـة عملياً سـوى تذاكر الطائرة.

شـاهدت وجه خليل وهو يتمعن في صورة الفتاة، إن نضـارة الفتيات الصغيـرات تزيدهـن جمـالاً، وخصوصـاً بعيـون الرجـال المتقدمـين بالعمـر. ويبقـى الرجـل مهمـا زاد بـه العمـر متشـبثاً بصـورة الفتـاة الجميلة الصغيرة التي لطالما انطبعت في رأسه منذ سنوات المراهقة.

إن خبـرة فيـرا بالتعامـل مـع الرجـال وقدرتهـا علـى معرفـة رغباتهم الدفينـة، جعلتهـا تقـدم عرضـاً لخليل لا يمكنه أن يرفضه، وهـي تدرك سـلفاً أنـه بـدوره سـيضغط علـيَّ للسـفر إلـى جزيـرة براسـيل لقضـاء إجـازة العيـد هنـاك، أدركـت خـلال علاقتهـا معـي، مقـدار الكبـت

الجنسي الذي عانيته في صغري، وهي تلاحظ باستمرار مقدار مساحة الأفكار الجنسية التي تسيطر على عقلي، من خلال الكلمات التي أستعملها في أحاديثي مع خليل، لقد أعطتني الحب والعاطفة والجنس، ولم تُحل مشكلتي، وكما يقول فرويد: نحن أوفياء لماضينا.

تصور خليل أنه سيقضي أسبوعاً من العسل مع هذه البنت الصغيرة الجميلة، من دون أن يتحمل مسؤولية نتائجها، وأما بالنسبة لي فكان الموضوع مختلفاً، إنها تريدني أن أذهب إلى هناك لمقابلة أسرتها، وستدفعني بطريقتها الخاصة لكي أطلب يدها من أبيها.

لقد تعودت عليها، وتكونت في داخلي قناعة أنني لا أستطيع أن أعيش من دونها، لكنني مازلت متردداً في الزواج منها، خوفاً من مسؤولية الزواج، ومن خسارتي لحريتي الشخصية، ولتقطع عليَّ خطّ الرجعة، استقالت من وظيفتها بالنادي، وعادت معنا إلى مدينة مكناس لتشاركني غرفتي في الشقة التي أتقاسمها مع خليل، إنها تريد أن تربطني بها، لتسيطر عليَّ طوال الوقت بأنوثتها الطاغية، ولا تترك لي المجال لكي أفكر بتغيير رأيي في السفر إلى جزر سيشل.

إنها فتاة مستقلة بحكم أنها تعيل نفسها، وتعيش بعيدة عن أهلها، لكن على الرغم من استقلاليتها، فهي تحاول ألا تشعرني بذلك، مدركة أنني بطبيعتي كرجل شرقي، أكره التعامل في أعماقي مع امرأة جميلة مستقلة متحررة وواثقة بذاتها.

لقد فاتحتني مرة بأنها على استعداد لكي تغير دينها، وتصبح مسلمة، فيما إذا كنت أعتقد أن ذلك سيصب في مصلحة أولادنا بالمستقبل، ولطالما شعرت بأنها أكثر نضوجاً مني في بعض المواقف.

قبل السفر قمت بشراء خاتم خطبة لفيرا، ماركة بياجيه من الذهب الوردي، تحيط به ماسات صغيرة، دفعت ثمنه أكثر من خمسة آلاف دولار، لكيلا أتورط بحفلة للخطبة فور وصولنا إلى أهلها. إن هذا الخاتم سيغنيني عن كل الهدايا بالمستقبل التي قد تتطلبها المناسبات، وأفهمت فيرا أن هذا الخاتم، هو كل ما سأقدمه لها قبل الزواج، وتظاهرت مثل كل نساء العالم بأن الألماس هو آخر ما تفكر به، من أجل إنجاح علاقتنا.

تمكنت أنا وخليل من الحصول على إجازة خاصة لمدة ثلاثة أيام، قمنا بضمها إلى عطلة العيد الرسمية، لتصبح مدة عطلتنا ثمانية أيام، وهي بالكاد تكفينا لقضاء هذه الإجازة في هذا المكان البعيد عن العالم.

بعد ثماني ساعات من الطيران المتواصل، وصلنا إلى مطار سيشل الدولي القريب من العاصمة فيكتوريا، التي تقع في جزيرة ماهية الرئيسية، بالأرخبيل المكون من مئة وخمس عشرة جزيرة، حصلنا على فيزا بالمطار، وبينما نحن نهمُّ بمغادرة صالة القدوم، طالعتنا بنت سمراء غامقة طويلة، يغلب على ملامحها التقاطيع الأوروبية، أسدلت شعرها الأسود الطويل، لينساب بعفوية على كتفيها، مرتدية جينزاً أبيض، مع قميص باللون الأخضر، ليتماشى مع لون عينيها الخضراوين، ولما شاهدت فيرا، ركضت باتجاهها واحتضنتها، أدركت أنا وخليل أنها صديقتها جوزيه التي من المفروض أن تكون بانتظارنا بالمطار، لم أتوقع أن تكون رائعة إلى هذا الحد، إنها بنظري أجمل بكثير من أن يستحقها خليل.

انطلقنا جميعاً إلى جزيرة براسيل القريبة منا، حيث حجزت لنا جوزيه شقة صغيرة مكونة من غرفتين للنوم، وصالة فيها بلكونة واسعة، تطل على المحيط الهندي، لنمضي فيها إجازتنا، بأجرة لا تتجاوز سبعين دولاراً باليوم.

بعد وصولنا خرجت أنا وفيرا من الشقة مباشرة، بحجة الذهاب لشراء بعض الحاجيات والمشروبات الكحولية، تاركين الفرصة لخليل ليبقى وحده مع صديقته الفاتنة جوزيه، لمعرفتي بأنه شاب خجول، وخبرته مع النساء محدودة، إنه بحاجة إلى بعض الوقت ليتأقلم مع هذا الجو الجديد.

ذهبنا مباشرة إلى أحد المطاعم المتناثرة بكثرة في أنحاء الجزيرة، وبعدها تمشينا على الشواطئ الرملية بين أحضان الطبيعة البكر الساحرة، عدنا بعد خمس ساعات إلى البيت، مقتنعاً بأن هذا الوقت كافٍ لكي يتعرف خليل على صديقته الجديدة، ويتعود عليها.

استيقظنا في صباح اليوم التالي، وأخذنا زجاجة الويسكي وعلب البيرة، ونزلنا إلى شاطئ البحر المواجه لشقتنا، جلسنا تحت ظلال أشجار النخيل المطلة على البحر، التي لا يفصلها عن شواطئه أكثر من مئة متر، وكانت إلى يميننا تمتد أشجار الغابات الاستوائية على طول الساحل.

بعد كأسين من الويسكي شعرت بالنشوة، وأنا أراقب جوزيه وهي مرتدية المايوه البكيني الأخضر الداكن، ولم يخف إلا أقل القليل من قوامها الرشيق، ونزلت بنظري إلى ساقيها الطويلتين، وتوقفت عند منحنيات قدميها الناعمتين، إن لشكل القدم النسائية جاذبية

محفورة في لاوعي الرجل، وهي التي تقوده من دون إدراكه بالنهاية إلى أصابعها، ولقد تفننت بوضع الطلاء على أظفار أصابع قدميها، فتداخلت الألوان الخضراء مع الحمراء، لتشكل رسومات هندسية تبرز جمال وتناسق هذه الأصابع الأنيقة، لاشك أنها تحرص دائماً على جعل قدميها مركزاً للفت الانتباه. وأشحت بنظري إلى البحر لأبعد الشبهة عن نفسي، بأنني أستمتع بمراقبة جسد جوزيه، وأخذت أتكلم مع خليل بالعربية، وشاهدت الامتعاض بادياً على وجه فيرا، إنها تعرف جيداً، بأنني عندما أتكلم بالعربية بوجودها، فغالباً ما يكون كلامي عن الجنس، وعن علاقاتنا النسائية. أقنعتها عدة مرات أنني أعتبرها زوجتي، ولا يمكنني أن أتكلم مع خليل عن علاقتي معها، وبالفعل كنت أتحدث مع خليل عن علاقته بجوزيه، أريده أن يكون صاحياً، لكيلا يتورط بسرعة مع بنت جميلة وذكية لا يعرفها.

بعد الظهر ذكرتني فيرا، بأنه من الواجب أن نذهب غداً لزيارة عائلتها في جزيرة ماهية الملاصقة لجزيرتنا، حاولت أن أماطل في موضوع الزيارة، لأنني لا أعرف ماذا سأقول لأهلها، وعندما أخبرتها بذلك ضحكت وقالت: صرعتني دائماً بترديدك العبارة الواردة بالإنجيل... الحقيقة تجعلك حراً. قل لهم الحقيقة... بأنك زوجي.. أنا أعرف بأنها ذكية بالفطرة، ولكن مع مرور الوقت تزداد قناعتي بذلك.

ذهبنا بالمساء إلى السوق القديمة، واشتريت قطعتين صغيرتين من الذهب لوالدتها وأختها الصغيرة، كما اشتريت هاتف آي فون

لوالدها، حاولت أن تتظاهر بأن سعر هذه الهدايا غالية، وأنه لا حاجة لها، بدأت تتدخَّل مؤخراً في مصروفي، وهي دائماً تقول لي: إن استعمالي الكريديت كارد يجعلني مبذراً، لأنني لا أشعر بقيمة النقود عند صرفها، محاولة أن تحافظ على نقودنا، إنها بطبيعتها تكره التبذير، وربما يعود ذلك إلى بيئتها الفقيرة التي نشأت فيها، وهي دائماً تذكرني بأنه يجب أن نقتصد في مصروفنا من أجل إرسال أولادنا بالمستقبل إلى الجامعات، إنها تخطط لعشرين سنة إلى الأمام، بينما لا أفكر أنا إلا بيومي الذي أعيش فيه، إن عدم إتمامها دراستها، وعدم دخولها الجامعة، كوّن عندها عقدة نفسية، وهي تحاول أن تجنب أولادها هذه التجربة. ذكرت لي أنها لطالما شعرت بالتعاسة، وهي تعمل مضيفة بالنادي الليلي، لما تجد نفسها مضطرة للتغاضي عن التحرشات الجنسية من مديرها المباشر، ومن غلاظة بعض الزبائن، من أجل المحافظة على وظيفتها، ولو أنها كانت تحمل شهادة جامعية، لما اضطرت للعمل بالنادي الليلي.

ذهبنا في الصباح لزيارة عائلتها، وارتدت الخاتم الوردي الألماسي في يدها اليمنى، لتشعر أهلها بموضوع جدية هذه العلاقة، ويرمز حجر الألماس القاسي بالخاتم إلى القوة، وهو كناية للتعبير عن رغبة الطرفين في أن يستمر هذا الزواج إلى الأبد.

لم تدعُ خليل وصديقته للذهاب معنا، ربما لأنها تشعر بأعماق نفسها بالخجل من وضع أسرتها المادي، ومن منزلهم المتواضع الذي يعيشون فيه، أما بالنسبة لي، فهي تعتبرني زوجها وفرداً من عائلتها. أعطيناهم الهدايا، ولاحظت علامات السرور بادية على

وجوههم، وهم يتفحصونها بهدوء، وأمضينا النهار عندهم، ونحن نتحدث بالفرنسية طوال الوقت، إنهم يتحدثونها بطلاقة، إلى جانب لغتهم الكريولية المحلية. كنت طوال الوقت أتحاشى الحديث عن علاقتي بفيرا، وتركت لها أن تتحدث عن خطبتنا وخطتنا للزواج فور عودتنا إلى المغرب، وأنا أهز رأسي طوال الوقت موافقاً على كلامها، على الرغم من أنني لم أكن متأكداً فيما إذا كانت كل هذه المخططات التي تدور برأسها قابلة للتطبيق، ولم يتطرق أحد خلال الأحاديث عن اختلاف ديانة كل واحد منا.

عدنا إلى المنزل، وعندما دخلت المنزل، شاهدت خليل ممدداً مع جوزيه على أرضية البلكونة، وشكلهما غير طبيعي، وعيونهما محمرة، وهم يشربون سائلاً غامق اللون ذا رائحة غريبة، ولما سألته عنه، أجابتني جوزيه بأنه الفطر السحري، مع أنني لم أجرب تعاطي المخدرات في كل حياتي، ولكنني قرأت عن جلسات تعاطي هذا الفطر الذي يسمونه طعام الآلهة. شاهدت مرة بالسينما أن كهنة الهنود يعطونه لأتباعهم كدواء لمعالجة مرض الاكتئاب، وهو يؤثر في وعيهم لفترة ست ساعات، وأخطر ما فيه، أن تأثيره يهيمن على الحواس البصرية والسمعية بالوقت نفسه، فيشعر الواحد أنه يعيش الحدث كفيلم ثلاثي الأبعاد، ما يؤدي إلى الخوف الشديد والنشوة العارمة، ليفقد الإنسان فيها السيطرة على نفسه، والأهم من كل ذلك، أن له تأثيرات روحية، فيحاول الشخص خلال الجلسة إعادة اكتشاف نفسه، ويبدأ في تصور الأرض والكون برؤيا عميقة، تنطلق من داخله، ليستعيد طبيعة غرائزه الحقيقية التي تسيّره في هذا العالم.

إنها نهضة روحية، توصف بالولادة من جديد، تعطيه الشعور بالارتفاع والسمو الروحي، ويشعر بالأبعاد الثلاثية لجميع الأشياء المحيطة به، إنها طريقة معروفة يستعملها الكهنة للسيطرة على أتباعهم.

لاشك أن جوزيه شجعته على تعاطي هذا النوع من المواد المخدرة، لتسيطر عليه أثناء مروره بتجربة الولادة من جديد، إنها تريده أن يتزوجها، لتتمكن من ترك هذه الجزيرة المحدودة الإمكانيات، ولتنطلق إلى عالم جديد، يمكنها فيه أن تستغل جمالها الأخاذ.

أدركت بهذه اللحظة أن هذه الفتاة الصغيرة والجميلة خطرة جداً، لدرجة لم أكن أتصورها. اعتدت أحياناً على تدخين الحشيشة مع خليل في المناسبات، لتساعدنا على الاسترخاء، وتشعرنا بالزهزهة، لكن طوال حياتي لم أستعمل هذه المواد التي تؤدي إلى الهلوسة.

في المساء، عندما كانت فيرا مستلقية إلى جانبي بالفراش، طلبت منها أن تمنع جوزيه من إحضار المخدرات إلى شقتنا، لأنها تستعمل الجنس والمخدرات للسيطرة على خليل، فحاولت بدورها أن تقنعني بأنها ليست مشكلتنا، ولا تخصنا، إنها تتصور بأعماق نفسها أن جواز خليل من صديقتها سيؤثر في تفكيري، ويدفعني إلى الإسراع بالزواج منها.

إن المكر عند النساء جزء من طبيعتهن، وهن يتوارثه بالجينات عن جداتهن، وسألتني بلهجة طبيعية، لماذا لا تجرب الفطر السحري؟ خطر لي فوراً، أنها تريد أن تدفعني لأجرب هذا المخدر، لتستطيع خلال مروري بتجربة الولادة من جديد، أن تسيطر على تفكيري، حيث يكون عقلي الباطن حينها في حالة ذهنية مشوشة وقابلاً

للإيحاء، تتمكن فيها فيرا لاقتراحاتها من التغلغل إلى اللاوعي، ليتم ترسيخها في ذهني بسهولة، لكي تخلص من موضوع تسليفي ومماطلتي بالزواج منها، إنها تعرف أن عقليتي دائماً منهزمة، وأنا غير واقعي في تقديري، لما هو متوقع مني تجاهها، بعد أن أعطتني ما أرغب فيه، إنها تخاف أن جميع تضحياتها من أجلي ما زالت أقل مما أحلم بالوصول إليه، لا شك أنها أخطر من صديقتها جوزيه، لأنها زرعت في رأسي من دون إدراكي فكرة تجربة الفطر السحري.

في صباح اليوم التالي، بادرني خليل بالحديث، بأنه يحسدني لأنني أملك فيرا، وأنه مستغرب لماذا لم أتزوجها حتى الآن، على الرغم من مضي هذه الفترة الطويلة على علاقتنا. وتابع حديثه بأنه يحب جوزيه، وهو يفكر بالزواج منها. لم أستطع أن أتمالك نفسي، وذكرته بأن لغته الفرنسية ضعيفة، وهو بالكاد يستطيع أن يتفاهم معها، بينما هي تتقن الفرنسية، لأنها لغتها الثانية، وأن كل ارتباطه معها يرتكز على علاقتهما الجنسية، وجدت صعوبة وأنا أشرح له أن علاقتي مع فيرا تقوم على التفاهم، وهو يعرف أنني أتقن الفرنسية، لأنني درست الهندسة في فرنسا، وأمضيت ست سنوات هناك، لأول مرة شعرت بأننا ربما أخطأنا بالقدوم إلى جزر سيشل، لأن الأمور تجري أسرع بكثير مما كنّا نتوقع.

ذهبنا إلى الشاطئ، واستأجرنا يختاً صغيراً، ودخلنا إلى عمق حوالي ثلاثة كيلومترات في البحر، حيث المياه الزرقاء الصافية، تبدو كأنها قطعة من الكريستال الأزرق الفاتح، يمكنك من خلالها

مشاهدة قاع البحر لعمق عشرين متراً أو أكثر، وترى الألوان الزاهية للشعب المرجانية من الوردي إلى البنفسجي، وهي تعكس ظلالها من تحت الماء الهادئ.

إنه عالم آخر تحت البحر يسحر الألباب، وتمتد فيه هذه الحدائق المرجانية إلى مسافات شاسعة لا حدود لها، إنهم جميعهم يحبون السباحة والغطس في هذه المياه النظيفة البلورية، لأنهم ترعرعوا، وعاشوا بجانب البحر. أما بالنسبة لي فإن شطارتي بالسباحة محدودة، لقد تعلمت السباحة في المسابح الصغيرة المنتشرة في الفنادق بمدينة دمشق. أما الغطس فليس لي أي علاقة به، وكنت أجلس على القارب، وأنا أراقب بطرف عيني حركات جوزيه، وهي تتدلع على خليل، وتركز نظرات عينيها الخضراوين على عينيه، وتقوم أحياناً ببعض الحركات الفجائية، لتجعل ثدييها يهتزان من تحت قطعة الصدرية الصغيرة التي بالكاد تغطيهما، وهي على طول الوقت، تسند رأسها على كتفه، وتتلاصق به، وتغلق عينيها متظاهرة بأنها تعيش قصة حب رومانسية، إن لها أسلوبها الخاص في هذه التصرفات، تريد أن تأسره بهذه الحركات، وتجعله خاتماً في إصبعها ليتزوجها، وكان البكيني يظهر جميع تقاطيع جسمها.

لاحظت لأول مرة وأنا أحملق بتمعن في جسمها وشماً لخمسة طيور صغيرة خضراء، تطير بشكل سرب على كتفها الأيمن، وحسب معرفتي، فإن الوشم رمز لرغبات صاحبه المكبوتة، إنها تطمح للسفر من هذه الجزيرة بأقرب ما يمكنها، وشعرت بالخجل من نفسي، وأنا أقارنها مع فيرا، التي تتململ عندما أحاول أن أتلمس جسمها،

ونحن جالسان مع الشلة، إن لديها كثيراً من القيم الأخلاقية، على الرغم من مظاهر التحرر التي تعيش فيها.

أمضيت فترة بعد الظهر وأنا جالس وحدي بالقارب، أراقبهم وهم يسبحون، ويغوصون، ويستمتعون بنقاوة الماء، لأني أخاف من السباحة بمنتصف البحر على هذه الأعماق، إني أستمد سعادتي من مشاهدة فيرا، وهي ترفه عن نفسها، وتقضي وقتاً جميلاً بالسباحة في هذه المياه الشفافة، لاشك أن هذا يعني أني أكنُّ لها مقداراً كبيراً من المودة والحب، المشكلة أني شاهدت في صغري كثيراً من الأفلام التي يقوم فيها القرش بمهاجمة السباحين في عرض البحر، ما شكل لدي عقدة بالخوف من السباحة بعيداً عن الشاطئ، على الرغم من ثقتي المطلقة بفيرا المتمرسة بالسباحة، ومعرفتي بأنها لن تتخلى عني مهما كانت الظروف.

مضى أكثر من أربعة أيام على قدومنا إلى جزيرة براسلين، ونحن جالسون نستمتع بأيامنا تحت تأثير الكحول والعلاقات الجنسية والمناظر الطبيعية الخلابة، بدأنا نشعر أن الإجازة قد قاربت على نهايتها، وأن علينا بعد أربعة أيام أن نعود مجدداً إلى عملنا الروتيني في مكناس. ولنتخلص من هذا الإحباط الذي بدا يراودنا، اقترح خليل أن نقوم برحلة بحرية إلى جزيرة كوفي التي تبعد عنا أكثر من ستين كيلومتراً. في البداية تصورت أن هذه فكرة جنونية وقاومتها بشدة، إذ إنه من المستحيل في نظري أن نقطع هذه المسافة الطويلة في يخت صغير، لكن خليل أنبرى لفكرتي، ليؤكد لنا خبرته الطويلة في قيادة السفينة التجارية الشراعية العائدة لعائلته لعدة مرات بين

ميناء صيدا وجزيرة قبرص، التي تبعد عن صيدا أكثر من مئتي كيلومتر، لكنني رفضت هذه الخطة نهائياً.

في الليل جلسنا على البلكونة تحت ضوء القمر الذي أصبح يبعث الهدوء والسكينة في نفسي، وقد بدا شمعةً معلقةً بالسماء، انعكس نورها الفضي على البحر المظلم أمامي، وأنا أستمتع بمسك يد فيرا، وهي تسند رأسها على كتفي، بينما أرتشف قطرات الويسكي بتكاسل، وأحسّ بشعرها وهو يتطاير مع النسيم البارد المنعش الذي يهب علينا من البحر، فيلامس بعض خصلاته وجهي.

جلست جوزيه أمامي، وهي ملتصقة بخليل، وهما يمضغان الفطر السحري، ويتهامسان بكلام الحب، ويخططان للزواج بعد انتهاء الإجازة، كلنا مخدرون بطريقة أو بأخرى، إن التخدير لا يعني بالضرورة استخدام مواد الهلوسة أو الكحول، إذ إنه يمكن للواحد منا، أن ينتقل من العالم الذي يعيش فيه إلى العالم الافتراضي بالحب، أو الجنس، أو أحلام اليقظة، وكانت جميع هذه العوامل متوافرة لدينا في هذه اللحظة.

أخذ خليل يتحدث عن مشروعه لاستئجار يخت صغير للانطلاق إلى جزيرة كوفي، وأخذت فيرا تتحدث عن جمال هذه الجزيرة التي تشتهر بشواطئها البكر، وحياتها البحرية الرائدة، التي تعتبر موطناً للسلاحف الخضراء المهددة بالانقراض، وهي تقوم بوضع بيوضها بحرية على الرمال البيضاء، ما أجبر الحكومة على اعتبارها محمية طبيعية، وأخذت تتكلم بإسهاب عن الطيور العملاقة والغابات الاستوائية، ما سيجعلنا نتوحد مع الطبيعة، ونشعر بأننا أصبحنا

قطعةً منها، فتحت تأثير الويسكي، وهذا الجو الحالم الذي نعيشه، وشعوري بالتخدير، ورغبة فيرا بالإبحار إلى الجزيرة، وجدت نفسي موافقاً على هذه الفكرة .

في الصباح استأجر خليل يختاً صغيراً، وانطلقنا إلى جزيرة كوفي، على الرغم من اعتراضي على أن يقوم هو بنفسه بقيادة هذا اليخت، مع معرفتي بخبرته الطويلة في قيادة القوارب إلى مسافات بعيدة بالبحر، قد تزيد عدة مرات عن مدى بعدنا عن جزيرة كوفي، لكن في تلك اللحظات، لم أكن أثق به، ولا حتى بنفسي، لأننا كلنا مخدرون بتأثير الجنس والكحول، لكن إصرار فيرا وجوزيه على عدم وجود شخص غريب على متن القارب أثناء رحلتنا، لكيلا يحد من حريتهما في التعري، وللاستمتاع بالتعرض لأشعة الشمس الدافئة، أضعف موقفي. فكرت بهذه الدقيقة، أن أسحب فيرا، ونمتنع عن الذهاب مع خليل وجوزيه بهذه الرحلة، لكنه اعتراني الخوف من أن أتركهما يذهبان بمفردهما، ولاسيما أنني كنت أنا السبب في حضوره لقضاء إجازته على هذه الجزيرة، بدلاً من الذهاب لزيارة أهله في لبنان، انتابني حدس قوي بأن هذا الشبق الذي يعيشه خليل، سيعجّل في نهايتنا جميعاً.

تابعنا طريقنا نحو الشمال باتجاه أفق البحر المفتوح، لقد صفت السماء، وسطعت أشعة الشمس، ما شجع الفتاتين على خلع ملابسهما الخفيفة وارتداء مايوهات البكيني، لتستغلا أشعة الشمس الناعمة، لصبغ بشرتيهما الغامقتين أصلاً، بإعطائهما لمعاناً خفيفاً بفعل هذه الزيوت التي تدلكان بها جسميهما، فقد

كنت أراقب بطرف عيني جوزيه وهي تضع الكريمات على جسمها، وهي تزداد تألقاً، كلما توغلنا في البحر. إن هناك علاقة خاصة بين الإنسان والبحر، تشجعه ليترك العنان لخياله لينطلق بلا حدود، متجاوزاً زمانه ومكانه.

لقد مضى على إبحارنا أكثر من ساعة، تناولت خلالها أكثر من ثلاث زجاجات من البيرة الباردة، ما أعطاني شعوراً بالنشوة. الجميع يستمتعون بوقتهم، وبشرب البيرة والاستماع إلى الموسيقا الهادئة المنبعثة من آلة التسجيل التي جلبتها معها جوزيه، لاحظت أن جوزيه قد جلست مباشرةً بالطرف المقابل لي للفت انتباهي، وكانت تختلس النظرات لي عندما تشعر بأن فيرا لا تراقبها، إنها اكتشفت بحاستها السادسة أن خليل بشخصيته الفارغة لا يناسبها، وأنه ليس هناك أشياء مشتركة بينهما، حتى إنها غير واثقة على تصميمه من الزواج بها. لاشك أنها شاهدت نظرات الإعجاب والاشتهاء التي أرمقها بها، ولربما خطر لها، بأن تصبح خطيبتي، وتحل محل صديقتها فيرا، ولاسيما أنها تعرف بأنها أكثر جمالاً منها، وأنني منجذب جنسياً إليها. إن مصالح الفتيات تأتي بالمحل الأول قبل صداقتهن.

بدأ يظهر وراء الأفق البعيد بعض الضباب الأسود، لكن خليل طمأننا أنه بعد قليل سيختفي الضباب، لأننا بدأنا نحس بالريح الخفيفة التي تهب علينا من الجنوب، والتي ستحمل الضباب بعيداً عنا، فتحت تأثير هذه النسمات المنعشة، وتأثير الكحول ونظري المستمر إلى جسم جوزيه المثير بالبكيني، لم

أعد أشعر بالوقت وهو يمر علينا، وتمنيت لو أن هذه الرحلة تستمر لعدة ساعات.

مضى علينا بالزورق أكثر من ساعتين، ومن المفروض أن نكون قطعنا خلالها أكثر من أربعين كيلومتراً، إننا نتوقع أن نصل بعد ساعة إلى شواطئ جزيرة كوفي، لاحظت فيرا من نظراتي إلى جسم جوزيه إعجابي بها، ولكنها بذكائها تمالكت أعصابها، وببرودتها المعتادة تجاوزتها، وتابعت علاقتنا بشكل عادي. كنت أشعر بالخجل من نفسي من هذه الأفكار التي تنتابني نحو جوزيه، لكن السيطرة على غريزتنا في بعض الظروف تصبح أضعف من إرادتنا.

أشعة الشمس مازالت خفيفة، والنهار في أوله، إنَّ علينا أن نصل إلى الجزيرة في حوالي العاشرة، ونبقى هناك لبضع ساعات، لنتركها عند العصر، لكي نتمكن من العودة إلى جزيرتنا قبل حلول الظلام.

الشمس والبحر والبيرة والبنات والموسيقا تشعرني بالسعادة، وبقليل من التخدير اللذيذ، انتابني نوع من الدوار والصداع والغثيان الخفيف نتيجةً لارتجاج اليخت المستمر، حاولت أن أمنع نفسي من التقيؤ، لكيلا أحرج نفسي أمام جوزيه، أخذت هذه البنت تسيطر على تفكيري، وبحركة لا شعورية، بدأت أقارنها مع خطيبتي فيرا، فهمت في هذه اللحظة أن عليَّ أن أتوقف عن هذه الحركات الصبيانية تجاه جوزيه، إن رغبتي الجنسية العنيفة نحوها، ليست شرطاً كافياً لولادة الحب بيننا، لأنني أعرف جيداً أن علاقتنا ستنتهي بعد إشباع غرائزي منها، إنه نوع من الإعجاب الجسدي والهواجس النفسية التي تتملكني تجاهها، وربما يعود

ذلك، إلى عدم نضوجي العاطفي لقلة تجاربي السابقة مع البنات. بالواقع لا يمكنني أن أتخيل حياتي بعيداً عن فيرا، إنها تبذل كل طاقتها من أجلي، وأنا أتقبلها وأحبها كما هي، وأريد أن أراها كل يوم ولا أملُّ منها، أريدها أن تكون أماً لأطفالي. جلست في مكاني أراقب الأفق وقد اعتراني بعض القلق، لأننا لم نلمح أي سفينة أو قارب في هذه المنطقة.

أصبح من المفروض أن تلوح الجزيرة في أي لحظة، سألت خليل عن موقعنا من جزيرة كوفي، فأكد لي أن الأمور كلها على ما يرام، وأننا نسير وفقاً لخط البوصلة البحرية، إنه يسيطر على الأمور، وإننا لم نستهلك حتى الآن إلا حوالي ثلث خزان الوقود، وإن الجزيرة ستظهر بعد قليل، بدأت أشعر بأن الوقت يمر بشكل بطيء، وأن قلقي آخذ بالازدياد، أما البنتان فما زالتا مستلقيتين بتكاسل، وهما تستمتعان بالحمام الشمسي.

بدأت ألوم نفسي لأنني وثقت بخليل، على الرغم من معرفتي به بأنه شخص سطحي، ولا يتعمق في تفاصيل الأمور.

مضى الآن أكثر من أربع ساعات على مغادرتنا جزيرتنا، ولم يظهر بالأفق البعيد أثر لجزيرة كوفي، اقترحت على خليل أن نعود بالقارب إلى جزيرتنا التي انطلقنا منها، وما كدت أنهي جملتي، ومن دون أي مناقشة، حتى بدأ خليل يلف بالقارب لنعود إلى جزيرة براسيل، لقد تأكدت في هذا الوقت بأن خليل يعرف بأعماقه أننا قد تهنا عن وجهتنا، وأن التيارات البحرية القوية قد جرفتنا عن مسار طريقنا إلى جزيرة كوفي، وأنه لم يعد يعرف ماذا يفعل.

الآن أدرك الجميع بأن الأمور لم تعد على ما يرام، وأننا أصبحنا ضائعين في قلب البحر. عاد خليل بغبائه ليحاول أن يطمئننا بأن أكثر من نصف خزان الوقود مازال ممتلئاً، ولا داعي للقلق، فأصبح الجو ثقيلاً على القارب، ولم يعد هناك ما يقال، جاءت فيرا، وجلست بجانبي بطرف اليخت، وأمسكت بيدي ساندة برأسها على كتفي، لتعطيني الشعور بالأمان، لا شك أنها شاهدت آثار الهلع المرتسم على وجهي، أما جوزيه فتابعت حمامها الشمسي متظاهرةً بالشجاعة، وبعدم المبالاة من تضخيمنا للأمور.

بينما أنا أحدق في الأفق البعيد، شاهدت لأول مرة بعض الغيوم الداكنة المتجمعة على يمين اليخت، شد انتباهي منظرها الغريب، أخذت أدقق فيها، فلاحَ لي تحتها نقطة سوداء، نبهت خليل إليها، فما كان منه إلا أن استدار بالقارب نحوها من دون تفكير، إنه يدرك بأننا نبحر على غير هدى في هذا المحيط الواسع، وإن عليه أن يتمسك بأي خيط يراه أمامه، لا شك أنها جزيرة صغيرة من الجزر البركانية المنتشرة بكثرة في أرخبيل سيشل، وكلما اقتربنا من الجزيرة اشتدت الرياح، وازداد ارتفاع الأمواج، كأنها رسالة تحذرنا فيها من خطورة الوصول إليها.

بينما نحن نقترب من الجزيرة، تزايدت قوة الأمواج مرتفعةً أكثر فأكثر، وأخذت المياه تتحول بالتدريج إلى اللون الأخضر، أحسسنا بالتيار البحري وهو يحاول أن يسحبنا إلى شواطئ الجزيرة، حركة سطح اليخت المضطربة التي تهتز باستمرار، ضاعفت من شعوري بالتعب والغثيان، تملكني الدوار، وفقدت قدرتي على التوازن،

ولم أعد أستطيع أن أمسك نفسي عن التقيؤ، فساعدتني فيرا، وأمسكتني من قميصي، ومددت رأسي إلى الخارج، متجاوزاً حاجز اليخت الجانبي، لأتقيأ في مياه البحر، فجأةً وأنا أنظر إلى مياه البحر، لمحت سمكة سوداء طولها حوالي خمسة أمتار، لها جسم طويل ملفوف انسيابي، تمرُّ أمامي بسرعة كبيرة موازيةً لجسم القارب، وعلى عمق متر من سطح الماء، منظرها المخيف وشكلها الغريب وأنفها المدبب الذي يشبه الرمح، جعلني أتخيل أنها سمكة المنشار التي قرأت عنها مرة في مجلة ناشيونال جيوغرافيك، لكن سرعتها كانت غير معقولة، فتصورت أنها ربما طوربيد أطلقته إحدى الغواصات من تحت الماء باتجاهنا، ولكنه أخطأنا. إن شعوري بالدوخة وعدم التوازن نتيجة للمعلومات المتضاربة التي تصل إلى مخي من عينيَّ وأذنيَّ، ربما جعلتني أتوهم هذا المنظر، وظننت أنه نوع من الهلوسة، نظرت إلى وجه فيرا، فلاحظت علامات الرعب باديةً عليها، قلت لها إنها سمكة المنشار، ولكن لخبرتها الطويلة بالمياه والأسماك، عرفت بأنها ليست سمكة المنشار، وقالت لي مستحيل، إن سمكة المنشار ليلية، وهي عادة تلجأ إلى النوم خلال النهار، ولا تهاجم فرائسها في هذا الوقت من النهار.

تجاوزتنا هذه السمكة لمسافة حوالي مئة متر، ثم قامت بحركة التفاف، بحيث أصبحت على شمال اليخت، وضاعفت من سرعتها، وعادت باتجاهنا من جديد، صرخت فيرا محاولة أن تلفت نظر خليل وجوزيه إلى هذا الحيوان الغريب الذي سيهاجمنا، وعانقتني، وتشبثنا بطرف الحاجز، لكنني حتى هذه اللحظة لم أكن متأكداً من

حقيقة ما أرى أمامي. ارتجّ المركب، ومال على جانبه لما اصطدمت السمكة بجانب هيكل القارب المصنوع من الفايبر جلاس، وسمعت صوت طقطقة الهيكل، وهو يئن عند اختراقه، ومن شدة الصدمة طارت جوزيه بالهواء من على سطح اليخت، لأنها لم تنتبه إلى صرخة فيرا، وبدا لي أن جوزيه من قوة الارتطام بالماء أصبحت عاجزة عن السباحة، ونظرت إلى خليل، وكان مازال بمكانه خلف المقود، أخذت المياه تتدفق إلى داخل اليخت، ونظرت إلى مقصورة القارب، فاكتشفت أن طبقة الدهان السوداء التي كانت تغطي جسم السمكة، قد انكشطت عند رأسها نتيجةً لاحتكاكها بجسم القارب، وظهر تحتها جسم السمكة المصنوع من الألمنيوم، أصبحت السمكة عالقة بالمركب، وقد أطبقت عليها صفيحة الفايبر جلاس المتينة والقوية بشكل استثنائي، التي تشكل هيكل القارب، فثبتتها في مكانها، ومنعتها من الحركة، وشاهدت خليل وهو يقفز إلى الماء سابحاً باتجاه جوزيه محاولاً إنقاذها. بغتةً ظهرت من بعيد سمكة ثانية، يعلو ظهرها زعنفة شراعية قصيرة، أخذت تزيد من سرعتها باتجاهنا، واتجهت نحو جوزيه مباشرةً فضربتها، فتلون الماء بلحظتها باللون الأحمر، ثم ابتعدت لمسافة قصيرة، ودارت دورة كاملة، ورجعت باتجاه خليل، أدرك خليل متأخراً خطورة الموقف، فسبح باتجاهنا، لكن السمكة كانت أسرع منه، واخترقته بمنشارها، فانفجرت دماؤه، وسمعت صرخة قصيرة ثم اختفى. بعدها فوراً اتجه هذا الشيطان إلى هيكل قاربنا، وأخذ يصدم هيكل القارب بتأنّ بضربات خفيفة من جديد، محاولاً زيادة فتحة

الخرق التي أحدثها الطوربيد الأول، ليمكنه من الهروب من هيكل الفايبر جلاس المتكمش به بإصرار، وكأنه يعرف بالتحديد ماذا يفعل. القارب يغرق مع الجسم المعدني المتشابك معه إلى داخل الماء، لم أكن مستعداً لهذه الكارثة، لكن كلما ازداد وعي الإنسان بما يجب أن يفعله في الأوقات الحرجة، تزايدت احتمالات نجاته.

جذبتني فيرا من يدي، ودفعتني بقوة إلى البحر، لكيلا تعطيني مجالاً للتردد، وقفزت خلفي إلى الماء، إن علينا أن نصمد، وأن نسبح باتجاه الشاطئ الذي يبعد عنا حوالي ثلاثمئة متر، لم أكن في وضع جسمي طبيعي، وليس عندي الخبرة بالسباحة للتعامل مع هذه الحالة، ولكن هناك أشياء بسيطة يعطيك إياها القدر لتتعلق بها، ولتساعدك على الصمود، فعلى الرغم من سرعتي البطيئة بالسباحة، إلا أن فيرا فضلت أن تبقى إلى جانبي، لتؤمن لي نوعاً من الحماية، ولتشعرني بالثقة. أخذت تطلب مني ألا أشد عضلاتي من الخوف، لكيلا أتصارع مع نفسي، ومع البحر بالوقت نفسه، وهي تقنعني بأن الطوربيد لم يشاهدنا، ونحن نقفز من اليخت، وأنه مشغول بإنقاذ أخيه، وأن عليَّ أن أسبح مسترخياً ومستفيداً من تيار البحر الذي يجذبنا نحو الشاطئ، لعل الشيء الوحيد الذي كان يخيفها في هذه اللحظة، أن رائحة الدم ستجذب أسماك القرش الكثيرة الموجودة في هذه المنطقة نحونا، وما كادت قدماي تلامسان قعر الشاطئ الرملي، حتى ركضت بشكل هستيري إلى داخل الجزيرة، تاركاً فيرا ورائي، راغباً في أن أستمر بالركض من دون توقف.

بعد قليل أدركنا أننا أصبحنا وحدنا على هذه الجزيرة النائية، كان أمامنا بالداخل تلة صغيرة، لا يزيد ارتفاعها على خمسمئة متر، تفصل هذه البقعة التي نزلنا بها عن باقي جسم الجزيرة، لذا انقلب مزاجنا من الشعور بالسعادة، لنجاتنا من الموت، إلى الخوف من المستقبل المجهول الذي ينتظرنا. نظرت إلى وجه فيرا وكان جامداً لا أثر للحياة فيه، إنها بخبرتها الطويلة التي عاشتها على أرخبيل جزر سيشل، تدرك معنى وجودنا وحدنا على هذه الجزيرة، لقد استنزفت سباحة الثلاثمئة متر جميع قواي، ولم أعد قادراً على الحركة، وشعرت بالتعب والعطش، لم يكن هناك أي مظهر للحياة سوى بعض شجيرات المانجروف الخضراء المبعثرة على الشاطئ، والتي تعيش على مياه البحار، قامت فيرا واقتطعت بعض أوراق شجرة المانجروف مع فروعها الصغيرة الطرية، وأعطتني إياها لكي تخفف من شعوري بالعطش والجوع، ولكن عندما تذوقتها وجدتها مالحة ومرة، وأنني غير قادر على ابتلاعها، إنها تريدني أن آكل هذه الأوراق الخضراء، لكي أستعيد قوتي، إذ إن الحل الوحيد أمامنا للنجاة، هو أن نتسلق غداً في الصباح هذه التلة الصغيرة التي أمامنا، لنصل إلى داخل الجزيرة.

استولى عليّ اليأس، وشعرت بأن أموري قد انتهت، وأني أصبحت ضعيفاً، ولن أتمكن غداً من تسلق هذه التلة، فقدت في هذه اللحظة شهيتي للحياة، ولم يعد وجود فيرا إلى جانبي يعنيني بأي شيء. اعتبرت أن غرقان اليخت هي إشارة من السماء باقتراب أجلي، وأصابني خوف شديد من الموت، وتصورت أني على حافة

فقدان الوعي، كنت أسمع كلمات فيرا وهي تتحدث معي باستمرار من دون أن أفهمها.

تعتريني رغبة عارمة في أن أغلق عينيَّ، وأن أسافر بهدوء بعيداً عن هذا العالم الذي يبدو أن الشقاء فيه لن ينتهي، أثناء نومي تراءت لي خيالات تتحرك، وتتداخل فيها الأضواء، سمعت بعض الأصوات التي تشبه اللغة الكريولية، وتوهمت أن فيرا تضع بعض نقاط الماء على شفتي، إني لا أشعر بالزمان ولا المكان، ولا أعي ماذا يدور حولي، إني حتى أحس بجسمي وكأنه ليس مني، رأيت نفسي ممدداً على الرمل، وأنا أنظر إليه من ارتفاع عالٍ، ثم تركته، وتابعت سيري في نفق مضيء لا نهاية له، إنه نوع من الحلم الجميل الذي أشعر فيه بالطهارة النفسية والولادة من جديد، ولا أرغب في أن أستيقظ منه، متمنياً أن يطول ويستمر من دون انقطاع، لكن صوت بكاء فيرا ظل يقطع عليَّ انسياب هذا الحلم اللذيذ، إن رغبتها الشديدة في أن أعود إلى الحياة يصيبني بالإحباط، وهذا ما تغلب بالنهاية على مشاعري، ودفعني إلى العودة والتمسك بالحياة من أجلها، إن حبها هو الدافع الوحيد الذي دفعني للرجوع إليها.

تأكدت من حقيقة ما يجري، وأنا أجد نفسي أهتز بداخل قارب محلي صغير، يسميه الصيادون بانكا، وهو مصنوع من الخشب الخفيف، مثبتة على أطرافه قضبان القصب، لتعطيه نوعاً من التوازن، ولتمنعه من الاصطدام بالشعب المرجانية، وهو يتحرك طافياً بالمياه الضحلة، خليط من الأحلام والتخيلات والمشاهدات الواقعية التي لا أجد رابطاً بينها، وبالنهاية توقف القارب، ظننت

أننا درنا خلال رحلتنا حول الجزيرة التي نقيم فيها، وانتقلنا إلى طرفها الآخر، حملني رجلان محليان لا أذكرهما في رؤية مشوشة إلى كوخ مبني من القصب، إن الضوء الضعيف جعل الأشخاص والمناظر، أشبه بحلم ضبابي، يثير أقصى درجات الحس الوجداني بأعماقي، نتيجة عودتي من رحلة الموت.

فتحت عينيَّ باليوم الثاني لأجد فيرا تبكي، وهي جالسة إلى جانبي، وسمعتها وهي تتكلم، ولكني لم أميز سوى نغمة رنين صوتها التي طالما جذبتني إليها.

الوقت يمر بطيئاً، لقد شاهدت خلال رحلتي قوة كبيرة تسيطر على هذا العالم، ما أعطاني الشعور بالرضا عن ذاتي لاتصالي بقوة أكبر مني في هذا الكون، وأنه لم يعد هناك داعٍ للخوف والقلق، وهناك نسخة ثانية عن نفسي موجودة إلى جانبيً طوال الوقت، عرفت من صوت فيرا أنها بحدي، فازدادت ثقتي بنفسي، وتحسن مزاجي، إن دماغي أصبح نظيفاً خالياً من ذكريات الماضي، إنني أقوم بتشغيله من جديد، لأكتشف علاقات جديدة في هذا الكون، لم أكن أدركها من قبل.

إنني ممدد على حصيرة من القصب على أرضية الكوخ، ومسترخٍ وغير قادر على الحركة، يسيطر عليَّ الصداع، وأشعر بين الحين والآخر ببعض الآلام في بطني وتحت ضلوعي، وأتعرق بشكل متواصل، وأحسُّ بفيرا وهي تحاول أن تسقيني الماء باستمرار، وتضع ضمادات مبللة بالماء على رأسي، وتقوم باستبدالها طوال الوقت.

بين فترة وأخرى، كان يأتي رجل غريب، ويعطيني ماءً ساخناً

فيه أوراق الريحان، أعيش مزيجاً من الهلوسة البصرية التي لا ترتبط بمرور الوقت، لم تتحسن أحوالي الصحية، لكن اضطراباتي الإدراكية بدأت تخف، فهمت من هذا الشخص الغريب الذي يزورني بالكوخ، ويعطيني شراب الريحان، بأنه من الهند، ولقد حضر بعد غرق سفينته التي كان يعمل عليها منذ خمس سنوات إلى هذه الجزيرة، ولم يغادرها منذ ذلك الوقت، ظل الرجل الهندي يشجعني على أن أقاوم مرضي، إن عليَّ أن أكافح من أجل حياتي لمدة يومين آخرين، لأنه في يوم الأربعاء من كل أسبوع، عادةً تهبط جماعة الأستيز من السماء على الجزيرة، وهم وحدهم قادرون على معالجتي من كل الأمراض التي أعانيها، وفهمت من فيرا أنها تعني بلغتهم المحلية أنهم الجماعة التي تربط بين سكان الأرض وسكان السماء، وسيهبطون من السماء بمركبة التنين، إنهم وحدهم الذين يعرفون كل شيء عن هذا العالم.

في اليوم الثالث، أحسست بأنني مازلت ضعيفاً، ولا أقوى على الحركة، تتنازعني عواطف متضاربة من السعادة والإحباط والرغبة في أن أبقى بجانب فيرا، تتراءى أمامي بعض النقاط الضوئية البيضاء، وهي تسبح في الفراغ بحركة بطيئة من دون هدف.

بغتة دخل إلى الكوخ الموجودين فيه اثنان من المخلوقات الغريبة، وهما يرتديان بدلتين فضيتين لامعتين من نسيج ناعم، ذكَّراني بملابس طياري المقاتلات الحربية، كان شكل الواحد منهما يشبه شكل البشر إلى حدّ كبير، ولكنه نحيف جداً، وطوله لا يزيد على متر واحد، له بشرة برتقالية تميل إلى الصفار، ورأس بيضوي

كبير أصلع، يستند على رقبة طويلة جداً، تبرز منها العضلات والعروق، لتتمكن من حمل وزن هذا الرأس الثقيل، ويتميز الوجه بعينين كبيرتين سوداوين، لا تغطيهما الجفون، لتبقيا مفتوحتين بشكل دائم، وأنف بشكل هرم صغير، يلتصق على وجهه، فوق فمه الصغير وشفتيه الدقيقتين. شعرت بأنهما ليسا غريبين عني، ولا شك أنني كنت أتواصل معهما عن طريق التخاطر.

لم أجد نفسي إلا وأنا ممدد على سرير فولاذي في غرفة صغيرة، وقد تم توصيلي إلى عدد من الأسلاك والأنابيب، ولاحظت أنبوب السيروم الذي يصل بين كيس السيروم المعلق إلى يساري، وبين القنينة الوريدية الداخلة في يدي، وحولي عدد كبير من الشاشات الإلكترونية، التي تشبه شاشات التلفزيون مغطية جميع جدران الغرفة، وهي تومض بألوان وخطوط متحركة، بعضها على شكل أمواج هندسية تتحرك باستمرار، لمراقبة علاماتي الحيوية، وشاهدت ضوءاً أبيض يميل إلى الأزرق فوقي مباشرة، يتدلى من السقف، يتغلغل في أعماقي بنعومة، ويدخل السرور إلى نفسي، ما جعلني مبتهجاً، وبدأت أستعيد وعيي، وتمنيت لو أن فيرا كانت إلى جانبي في تلك اللحظة، لتشاركني سعادتي.

في اليوم الرابع غادرت الطبق الطائر، لقد استعدت كامل عافيتي وقوتي، وأنا بدوري عاجز عن شكرهم، لقد عدت إلى الحياة بفضل هذه المخلوقات التي لا أعرفها، والتي أنقذتني من حافة الموت.

بعد يومين وأنا جالس بالكوخ مع فيرا والرجل الهندي الذي أصبح صديقنا، حيث يلازمنا باستمرار، بدأت أسترجع تفاصيل

جسم الصحن الطائر، وأنا أغادره، إنه يشبه قرصاً كبيراً فضي اللون، قطره حوالي ثلاثين متراً، يشبه في شكله طبق الطعام، تحيط بجسمه على الجوانب فتحات مضيئة، تشبه النوافذ، يجثم على سطح مستوٍ من الرمال البيضاء، ولا شك أنها منطقة مخصصة لهبوط الصحون الطائرة.

أنا حتى الآن لم أستطع أن أستوعب، طبيعة مجموعة هذه الأحداث التي تجري من حولي، عندما اجتمعت باليوم التالي مع صديقنا الهندي، شرح لنا أن المخلوقات الفضائية القادمة من كوكب الزهرة، تهبط في كل يوم أربعاء على هذه الجزيرة، جالبةً بعض الحاجات الضرورية لسكان الجزيرة، مع كميات كبيرة من الوقود، وأن هذه الجزيرة محمية بحقول كهرومغناطيسية قوية، تجعلها غير مرئية، ليس فقط لأجهزة الرادار، ولكن أيضاً لعيون البحارة الموجودين في عرض البحر، إن أي مادة تخترقها تحترق، كما أن هناك مدافع لليزر منصوبة على قمة التلة، وهي قادرة على إصابة الأهداف المتحركة على مسافات بعيدة. وأضاف: إنه شاهد مرة منظراً كأنه مأخوذ من فيلم للخيال العلمي، عندما أطلق المدفع شعاعاً باتجاه طائرة صغيرة، كانت تقترب من الجزيرة، فعلى الرغم من أنه لم يرَ أشعة الليزر، لكنه شاهد الطائرة وهي تحترق مثل علبة الكبريت، ثم تسقط في البحر، وأن هذا الصوت الخفيف المستمر الذي نسمعه طوال الوقت، هو أزيز محركات الديزل للمولدات الكهربائية الموجودة على الجزيرة، إذ إن الحقول المغناطيسية ومدافع الليزر، تتطلب طاقات كهربائية عالية جداً، وتقوم المولدات بتأمين الكهرباء اللازمة لها، فسألت صديقنا:

إذا كانت الأمور تجري بهذه البساطة، فكيف لم تتمكن مدافع الليزر من إغراق يختنا الصغير؟ فأجابني: إنه في ذلك الوقت الذي كنّا نقترب فيه من الجزيرة، كان هناك قارب آخر صغير فيه بعض رجال الأعمال المهمين، يقتربون من شاطئ الجزيرة أيضاً، وربما ظنوا أن هذا القارب يعود إلى هذه المجموعة، فالتبس الأمر على أجهزة المراقبة الإلكترونية، ولما اكتشفت متأخرة، أنكم مجرد سياح تائهين في البحر، أرسلت في أثركم طوربيدين بحريين، يشبهان في شكلهما سمك المنشار للقضاء عليكما، لكنكما لحسن الحظ، تمكنتما من النجاة.

يبدو أن هناك اتصالات مستمرة بين بعض مراكز القوى في الكرة الأرضية وبعض المخلوقات الفضائية القادمة من كوكب الزهرة، لتمكينها من السيطرة على الكرة الأرضية، الخيانة موجودة منذ العصور الأولى للتاريخ، حيث يقوم بها بعض الأشخاص للتآمر مع الغريب ضد أهلهم وأبناء وطنهم، إن هؤلاء الأشخاص يؤمنون بأنه عندما يستقر الأمر لسكان كوكب الزهرة بالسيطرة على الكرة الأرضية، سيصبحون أعوانهم، ويساعدونهم في حكم شعوب الأرض.

إن ظهور العملة الإلكترونية منذ فترة قريبة، حيث يتم تبادل المال على شبكة الإنترنت من دون وساطة البنوك، جعل المؤسسات المالية تدرك أنها لن تستطيع أن تتحكم بحركة المال في المستقبل، نتيجة لهذا التقدم الهائل بالتكنولوجيا الذي يشهده العالم في كل يوم، ما سيتسبب في إفلاسها، ويجعلها خارج اللعبة السياسية التي ظلت تهيمن عليها لفترة طويلة، إن سيطرة المؤسسات المالية على حياة سكان الأرض يوشك على الانتهاء.

إن جميع سكان الجزيرة المحليين الذين يقيمون حالياً عليها، هم من المتقدمين بالعمر، لأن الأطفال والشباب قد تم نقلهم إلى كوكب الزهرة، حيث تعمل الحكومة هناك على إعادة تأهيلهم وتحضيرهم، ليكونوا جاهزين عند إعادتهم إلى الأرض، ليكونوا يدها اليمنى في حكم الكرة الأرضية، وأنهم لن يسمحوا لنا أبداً بمغادرة هذه الجزيرة، لكيلا نكشف هذا السر الذي يعملون على إخفائه عن عيون الناس.

فكرت أنني يمكنني أن أتأقلم مع فكرة البقاء في هذه الجزيرة، والحياة عليها بين سكانها المحليين، وخطر لي أنه حتى يمكنني أن أستفيد من خبرتي كمهندس مدني في المساعدة في بناء مهابط ذات أرضية مسطحة صلبة للصحون الطائرة، لكن فيرا عارضت فكرة بقائنا بشدة، وكأنها لا تعرف خطورة محاولتنا الفرار منها.

مضى علينا على هذه الجزيرة خمسة أيام، مرت عليَّ كأنها خمس دقائق، إذ إن سرعة الزمن غير ثابتة للأشخاص، فهي تتوقف على أحوالهم النفسية التي يمرون بها.

أخذت أفكر بالسبب الذي يضغط على فيرا لتدفعنا إلى مغادرة الجزيرة، على الرغم من معرفتها الأكيدة بخطورة إقدامنا على هذه المحاولة، فلاحَ لي بأنها قد تكون حاملاً، وأنها تخشى من أن يقوم سكان كوكب الزهرة بمصادرة طفلها عندما تلد، ويأخذوه إلى كوكبهم، لكنني نزعت هذه الفكرة من رأسي، وبدأت أرسم خطة عملية لنتمكن خلالها من مغادرة الجزيرة.

اقترحت فيرا أن نعمل طوفاً من عيدان القصب الموجود بكثرة في الجزيرة، وأن نربط جذوع القصب مع بعضها بحبال نصنعها

يدوياً من ليف أشجار النخيل، ونلقي الطوف في البحر، ونعتليه لتجرفنا التيارات البحرية القوية بعيداً عن الجزيرة، تخيلت أنها شاهدت هذه الخطة في أحد الأفلام السينمائية، لأنني أعرف جيداً أن هذا الطوف لن يستطيع أن يثبت إلا لبضع مئات من الأمتار في مياه هذا البحر الهائج، ثم يبدأ بالتفكك نتيجة لقوة الأمواج والتيارات البحرية.

انطلقت في منتصف الليل مع صديقنا الهندي، والقمر غير المكتمل يلقي بضوئه الشحيح، مبدداً الظلام الواسع المخيم على الجزيرة، أوى السكان المحليون إلى أكواخهم بسلام، اتجهنا نحو خزانات الوقود الموجودة في قلب الجزيرة، وعندما وصلنا إليها، بدأت أتفحص الأنابيب الموصولة إلى الخزانات، حتى توصلت إلى صمام تفريغ الوقود، فتحته، وأخذ الوقود يتدفق على الأرضية الترابية المكسوة بالأعشاب، تركت الوقود يتدفق لأكثر من نصف ساعة، حتى غطى مساحة واسعة من الأرض المغطاة بالأغصان الجافة والأعشاب، ثم ألقى صديقي الهندي عوداً من الثقاب على التربة المبتلة بالوقود، فاشتعلت النيران، وبدأت تنتشر بسرعة كبيرة آكلة الأعشاب والشجيرات وكل ما تصادفه في طريقها، لنشغل سكان الجزيرة بإطفاء الحريق، وليصبح إخماده هو المهمة الأولى التي تسيطر على تفكيرهم، ركضنا عائدين إلى الكوخ، وأخذنا فيرا متسللين إلى شاطئ البحر، حيث توجد زوارق البانكا العائدة للصيادين وهي مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، صادرنا أحد الزوارق، وانطلقنا نجدف بسرعة جنونية إلى داخل البحر، آملين أن

تجذبنا التيارات القوية بعجلة بعيداً عن شواطئ الجزيرة، متمنين أن نلتقي بالمصادفة بباخرة تجارية في عرض البحر، لتحملنا معها في رحلتها.

وبينما نحن نبتعد عن الشاطئ، شاهدت سمكة المنشار تتجه نحونا بسرعة كبيرة، فاصطدمت بنا، وانقلب القارب على جانبه، وجدت نفسي بالماء، وأحسست أنني أبتلع الماء، ولم أعد قادراً على التنفس، وأن دقات قلبي أصبحت بطيئة، وأني على وشك أن أموت، هنا فتحت عيني، لأجد نفسي ممدداً على أرضية البلكونة، وأنا أتصبب عرقاً، وإلى جانبي فيرا وهي تجهش بالبكاء، وأمامي خليل وجوزيه، وقد انطبعت على وجهيهما علامات الخوف والدهشة.

لقد مضى على تناولي الفطر السحري أكثر من أربع ساعات، ذهبت خلالها في رحلة طويلة إلى إحدى الجزر النائية لمقابلة المخلوقات الفضائية القادمة من كوكب الزهرة، ذكرت لي فيرا، أنها كانت قلقةً جداً، وهي تشاهدني طوال الوقت، وأنا أتعرق، وأرتعش، وأهلوس حول القادمين من كوكب الزهرة، حتى إنها حاولت أن تأخذني إلى المستشفى، إلا أن جوزيه طمأنتها وهدأتها، وأفهمتها بأن هذا الأمر طبيعي للذين يتعاطون الفطر السحري لأول مرة، إضافة إلى أن المستشفى ستخبر الشرطة حول حادثة تعاطي المخدرات، ما قد يؤدي إلى وقوعنا في مشاكل نحن في غنى عنها.

شعرت خلال رحلتي، بأن المناظر التي عشتها كانت حقيقية جداً، وأنني كنت جزءاً منها، إن تفاصيلها الدقيقة مازالت عالقة

في مخيلتي، وماثلةً أمام عينيّ، في هذه اللحظة خطر لي، لأتأكد من حقيقة الرؤيا التي عشتها خلال رحلتي، بأن أسأل فيرا فيما إن كانت حاملاً، نظرت إلى وجهها، فلاحظت عينيها تبرقان بالسعادة، وهي تحاول أن تخفي ابتسامة خفيفة وخبيثة، ارتسمت على شفتيها، إنها تخفي الأمر عني، معتقدة أنها عندما تتقدم في مراحل الحمل، سيكون من الصعب علينا القيام بعملية الإجهاض، لأجد نفسي بالنهاية مضطراً للزواج منها، إنها حتى الآن، لم تعرف أن حياتي كلها لا قيمة لها من دونها.

ثـورة
الموسيقا

في يوم الإثنين القادم، يكون قد مضت سنتان على حصولي الشهادة في الفيزياء من الجامعة السورية، وعلى الرغم من أنني كنت من الأوائل في دفعتي، فأنا مازلت حتى الآن تقريباً عاطلاً من العمل.

قمت خلال السنتين الماضيتين بالتدريس بشكل متقطع في إحدى الثانويات الخاصة، لأنني بطبيعتي أكره التدريس بشكل عام، فهذا الجيل من الشباب تتلمذ على مسرحية مدرسة المشاغبين، ومن كثرة ما تكررت مشاهدتها على شاشة التلفزيون، فقد قضت هذه المسرحية على البقية الباقية من احترامهم لأساتذتهم، هناك مؤامرة كبيرة تدور من حولنا في هذا العالم، وقليل منا يدركون ذلك.

أمي تدفعني باستمرار للتقدم لخطبة ابنة خالتي رانية، التي تصغرني بخمس سنوات، على أساس أنها بنت صغيرة حلوة ومستورة، ويمكنها أن تعيش معنا بالمنزل على القليل والكثير، على الرغم من رغبتي الجنسية القوية نحوها، وتصوري بأنها بنت جميلة، لكني مازلت متخوفاً من تحملي للمسؤوليات المادية التي ستترتب على هذا الزواج، فأغلب أصدقائي الشباب لا يفكرون بالزواج في هذه الأيام، لأن الحياة صعبة، لدرجة أنَّ الواحد منا أصبح غير قادر على إعالة نفسه، لهذا لجأ الشباب إلى مصاحبة البنات، على نية الزواج في المستقبل عندما تتحسن الظروف، حيث بدأت أعتقد مؤخراً بأنها لن تتحسن أبداً، فكرة تأجيل زواجي بابنة خالتي رانية حتى أحصل على وظيفة ثابتة،

جعلت زوج خالتي أكثر حماسةً مني للبحث لي عن وظيفة ملائمة، إنَّ العثور على عريس في هذه الأيام مشكلة كبيرة للأهل، بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية.

لا أدري كيف تمكن زوج خالتي بالنهاية من تأمين وساطة لكي أتوظف في محطة التلفزيون بوظيفة مساعد أول لمهندس الصوت، على أساس أنني أملك المعلومات النظرية اللازمة لهذه الوظيفة، نتيجةً لدراستي علم الصوت في مادة الفيزياء.

في اليوم الأول من عملي اعترتني الرهبة، وأنا أشاهد مهندس الصوت وهو يقوم خلال تقديم البرنامج التلفزيوني على التحكم في عملية تسجيل الصوت وتوزيع أجهزة الميكروفونات، وبالسيطرة على شدة الصوت وضبط مستوياته، ثم انتابني الخوف من عدد الأزرار الكثيرة الموجودة على الجهاز الموزِّع للأصوات التي يقوم مهندس الصوت بضغطها باستمرار لتصفية الصوت وتنقيته، كما يقوم باستخدام الأجهزة الإلكترونية الموجودة أمامه على الطاولة، لحذف أجزاء من المقاطع الصوتية، وإدخال ملفات مسجّلة من قبل إلى البرنامج الذي يقدمه على التلفزيون.

بعد أقل من شهر بدأت أعتاد استخدام هذه التقنيات الجديدة، ساعدني على ذلك، دراستي للرياضيات ومعرفتي النظرية في علم الصوت، وخبرتي في استخدام برامج الكومبيوتر، حيث اكتشفت بأن مهندس الصوت ليس إلا خريج معهد فني؛ بل إنه مجرد فني عادي، مع الحدّ الأدنى من الدراية بأساسيات الكهرباء والإلكترونيات، ولكنه ماهر باستثمار الأجهزة الصوتية المختلفة.

في الوقت الذي بدأت أقارن بين راتبي وراتبه، شعرت تجاهه بالكراهية، أخذت أراقبه وأركز على استخدامه لهذه الأجهزة أثناء عمله بالاستوديو، وأربطها بالنظريات التي تعلمتها عن مادة الصوت، وعندما أعود إلى البيت كنت أمضي الساعات الطويلة على الكومبيوتر للربط بين العناصر البصرية والأصوات المرافقة لها، شعر المسكين متأخراً، بأنني أتعمّق في أبحاثي عن التسجيلات الصوتية، وقد رآني عدة مرات بالاستوديو، وأنا أحاول إدخال تقنيات جديدة، عن طريق توليف بعض الأجهزة مع بعضها، لتعزيز الجانب الفني لعملها، لكي أستفيد منها في صنع مقاطع من الأصوات الإلكترونية المعينة التي كنت قد قرأت عنها بالإنترنت.

أدرك أنني أحاول إزاحته لأحصل على وظيفته، فشكاني عدة مرات إلى مدير القسم، بأنني أحاول استخدام أجهزة التسجيل الموجودة في الاستوديو رقم اثنين، لأغراضي الشخصية، فازدادت قناعتي، بأنه من الواجب عليَّ أن أتخلص منه بأسرع ما يمكن.

عندما كنت بالصف الثالث بالجامعة درست في مادة الفيزياء أنَّ العالم الألماني هينشر دوف منذ أكثر من مئة عام، اكتشف المخدّرات الرقمية، وهي عبارة عن مقاطع من الأصوات يتمُّ سماعها عبر سماعات في كل من الأذنين بالوقت نفسه، بحيث يتم بثّ ترددات في الأذن اليمنى، تختلف عن الترددات في الأذن اليسرى، ما يؤدي بالدماغ إلى أن يحاول جاهداً أن يوحد التردد في الأذنين اليمنى واليسرى للحصول على مستوى واحد للصوتين، الأمر الذي يترك

الدماغ غير مستقر، يفقد توازنه، وتضطرب الإشارات الكهربائية التي يرسلها إلى أعضاء الجسم، فتقود المستمع إلى حالة من الهلوسة.

مؤخراً طورت مراكز الأبحاث العلمية في أميركا هذه النظرية، وخلقت نوعاً جديداً من الموسيقا سمتها المخدرات الإلكترونية التي يمكن سماعها مباشرة من آلة التسجيل، من دون الحاجة إلى وجود سماعتين، لكنها ما زالت حتى الآن في مراحلها الأولى، ونتائجها ليست مضمونة بدرجة كافية، مثل الطريقة القديمة التي تعتمد على استعمال السماعتين خلال الإنصات إلى الموسيقا.

لم يعد استهلاك المخدرات بالغرب، لبعض الفئات مقصوراً على شمّها أو تدخينها، بل أصبح يمكن تعاطيها من خلال الإنصات إلى أصوات موسيقية ذات نمط إلكتروني خاص، شريطة أن تكون خلال الاستماع إليها في حالة استرخاء كامل، قد تدفعك بعض الأنواع من هذه النغمات إلى النوم مباشرةً، لفترة تزيد على عشر دقائق من بعد الاستماع إليها، قليل من الناس يعرفون هذه التكنولوجيا، التي ما زالت غير منتشرة في بلدنا حتى اليوم.

أخذت أتعمق في دراسة هذا الموضوع، وحاولت أن أستفيد من التجهيزات الصوتية المعقدة في الاستوديو، وعلى إجراء بعض التجارب على قرصين من النغمات الإلكترونية التي تستعمل في التنويم، وكنت قد حصلت عليها مجاناً من اليوتيوب على الإنترنت.

سافرت إلى بيروت ومعي كل ما تمكنت من ادخاره من راتبي خلال ستة الأشهر الماضية، وكان بحدود ألف وثلاثمئة دولار،

اشتريت فيه هاتف آيفون حديثاً، بغية استخدام تطبيق التسجيل الصوتي المتطور فيه، وميكروفوناً خارجياً مصنوعاً خصيصاً لهذا الجهاز، لزيادة قوة الصوت الصادر عنه.

بدأت بإجراء التجارب على بعض الموسيقا الإلكترونية المسجلة على الأقراص، وتسجيلها على ذاكرة هاتفي الجديد، وجدت متعة فنية في تركيب الأصوات ومزجها من دون الإخلال بالتوافق الهارموني بينها.

عرفت في هذه اللحظات أنني أملك مواهب وإمكانيات كثيرة، كنت لا أعرفها عن نفسي، ففي إحدى الليالي وبينما كنت جالساً أنا وأمي وحدنا نشاهد التلفزيون، ضغطت على أيقونة المخدرات الرقمية في هاتفي الجوال، وأخذت أراقب وجه أمي وهي تشعر بالتثاقل والاسترخاء، وترتسم السعادة على محياها. أصبحت مسالمة للغاية على غير عادتها، وسرحت في ملكوت الكون بفترة قصيرة جداً، أصبحت مخدرة ومنفصلة عن الواقع، غرقت بالضحك، واستمرت تضحك لفترة قصيرة، أصابتها رعشة في عينيها، وأغمضتهما لعدم قدرتها على رؤية الإضاءة المتقلبة الصادرة عن شاشة التلفزيون، انتابت وجهها خلجات، أسفرت عن ابتسامة ساخرة، معبرةً عن الألم الدفين المغروز في أعماقها منذ وفاة والدي.

خفتُ عليها من هذه التعابير التي ارتسمت على وجهها، إنها تقاوم بعنف رغبتها في النعاس، ما زاد في توترها وجعلها غير قادرة على الحديث، لكنها استمرت في مقاومتها للنوم، بعد قليل استيقظت من حلقة تأثير التخدير وفتحت عينيها، وخرجت من هلوستها

وعادت إلى طبيعتها، حيث تبيَّن لي أنه ليس من السهل أن يتم تخدير الشخص خلال استماعه إلى قطعة من المخدرات الرقمية، لأن طبيعة ردود أفعاله بعد الاستماع إلى الموسيقا الإلكترونية، قد تختلف عن الأشخاص الآخرين، وهذا ما سيعقِّد من مهمتي في استخدامها للتخدير. فقد انتابني القلق من أنَّ الأمور قد تخرج عن سيطرتي، لأنه ليس لدي الخبرة العلمية في تكوين وربط سلسلة الأصوات الإلكترونية مع بعضها بعضاً، لتسيطر على الدماغ بشكل يدفعه مباشرةً إلى النوم.

مع مرور الوقت اكتشف مهندس الصوت الذي أعمل مساعداً له بالاستوديو، بأنني أصبحت أكثر منه براعةً ومعرفةً باستخدام الأجهزة الإلكترونية، من خلال قيامنا بتسجيل البرامج التلفزيونية، فبدأت مشكلاتنا بالتراكم، وشكاني مرة ثانية إلى مسؤول القسم، مدعياً بأنني أقوم بتسجيل بعض المقاطع الموسيقية لحسابي الخاص على الأجهزة الإلكترونية في الاستوديو، في الوقت نفسه بدأت أمي تضغط عليَّ للتقدم لخطبة ابنة أختها، معللة بأن هناك خطيباً لقطة، قد طلب يدها، وأنَّ أباها لم يعطه الجواب، بانتظار معرفة موقفي من الزواج بابنته، تحت هذه الضغوط النفسية التي تحاصرني من كل جانب، كان لابدَّ لي من أن أتحرك.

بينما الاستعدادات جارية لتسجيل البرنامج التلفزيوني، وقبل عشر دقائق تماماً من بدء التسجيل، تلفتُّ حولي بالاستوديو، فوجدت مهندس الصوت جالساً ومعه فني الإضاءة وحدهما في الغرفة يدردشان بهدوء، توقعت بأنَّ المكان سيكون ساكناً خلال

الدقائق الخمس القادمة، ولن يعكر سكوته صوت الداخلين والخارجين منه، فأدرت آلة التسجيل الموجودة في هاتفي الآيفون، ووضعتها على الطاولة بجانب النافذة. أخذت إذناً من المهندس بأنني مضطر للذهاب إلى الحمام لفترة خمس دقائق، تركت الغرفة وقلبي يقفز من الخوف، غير موقن من نتيجة تصرفي، شعرت بعد مغادرة الغرفة، فعلاً بحاجتي للذهاب إلى الحمام. بدأت أراقب الدقائق على ساعتي، وهي تنساب بطيئة، وكأنها لا تتحرك، وأخيراً مضى خمس عشرة دقيقة على مغادرتي الغرفة، استجمعت شجاعتي وعدت إلى الاستوديو، عندما اقتربت من بابه كانت هناك حركة غير طبيعية، لما دخلت الاستوديو، فهمت بأنَّ البرنامج الذي يجري إعداده، قد تأخر بالظهور على شاشة التلفزيون، نتيجةً لتعاطي فريق العمل المخدرات، وأنهم كانوا في حالة هلوسة، أول ما فعلته عند دخولي الغرفة، أنني أخذت الآيفون من على الطاولة، أغلقته ودسسته في جيبي، من دون أن ينتبه أحد من الموجودين لهذه الحركة، وتظاهرت مع الآخرين بغضبي من مهندس الصوت، ولمته على هذه التصرفات الصبيانية.

عدت إلى البيت وأنا أشعر بسعادة كبيرة لتحقيقي هدفي الأول، مباشرة طلبت من والدتي أن تؤمن لنا الليلة موعداً مع خالتي، لأننا سنذهب لخطبة ابنتها، إن الحظ لأول مرة بدأ يلعب إلى جانبي.

في صباح اليوم التالي، استيقظت باكراً على غير عادتي، شعرت بنشاط عارم يغمرني، ارتديت ملابسي على عجل، وذهبت

إلى الاستوديو، وأنا أتوقع أن المدير العام قد أصدر البارحة أمراً إدارياً بتكليفي بوظيفة مهندس للصوت بدلاً من الحشاش الذي تمَّ تسريحه، ما كدت أدخل مبنى التلفزيون، حتى شاهدت النظرات الغريبة لأصدقائي الموظفين تحيط بي من كل جانب، أقنعت نفسي بالبداية بأنهم قد سمعوا، بأنه قد تمّ ترقيتي إلى وظيفتي الجديدة.

بعد ربع ساعة طلبني رئيس القسم إلى غرفته، فاجأني بقوله: إن المدير العام قد أصدر البارحة قراراً بتسريح جميع أعضاء فريق الصوت في الاستوديو رقم اثنين، لعدم الكفاءة الفنية، حاولت أن أشرح له بأنني خلال هذه الحادثة، لم أكن في داخل الاستوديو، فهزَّ رأسه بالموافقة، وأردف متابعاً: كان من المفروض أن تكون على رأس عملك داخل الاستوديو قبل البثّ بدقائق، ثم ختم الموضوع قائلاً: إن القصة أكبر منه.... ومع الأسف، فإنه لا يستطيع مساعدتي، خرجت من غرفته وقد ازدتُّ إصراراً على أن آخذ حقي بيدي من هذا المجتمع الظالم، الذي لا يعرف الرحمة.

خرجت من مبنى التلفزيون، وأنا أشعر بأنني قد انتهيت، إن رجليَّ لا تقويان على حملي، أوقفت أول تاكسي صادفتها أمامي، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى البيت، بدأت أتصور حديثي مع أمي عندما سأخبرها بأنه قد تمَّ تسريحي من عملي الجديد في التلفزيون، فجأة غيرت رأيي، وطلبت من سائق التاكسي أن يوصلني إلى حديقة السبكي، لأنني أدركت بأنني بحاجة إلى بعض الوقت لإعادة ترتيب أفكاري.

جلست على المقعد بالحديقة، وأمامي بحيرة صغيرة يسبح على سطحها زوج من البط الأسود، وعلى بعد أمتار منها فراخها السوداء الصغيرة، تلعب وتغوص تحت الماء غير مكترثة بالأطفال الذين تجمهروا لمشاهدتها، أخذت هاتفي الآيفون واتصلت بصديق الطفولة أبي محمود، الذي أعرفه منذ أيام المدرسة الابتدائية، والذي يعمل حالياً سائقاً لسيارة تاكسي على خط دمشق بيروت، سألته مباشرة عن مكان وجوده، فأجابني بأنه في بيته، لكن عليه أن يسافر إلى بيروت بعد ساعتين، فطلبت منه ألا يتحرك من مكانه، لأنني سأكون عنده بعد ربع ساعة.

خرجت مسرعاً من الحديقة وركبت أول سيارة تاكسي صادفتها أمامي، اتجهت مسرعاً إلى بيته في منطقة ركن الدين. بعد أقل من نصف ساعة، كنت جالساً معه في غرفة الضيوف أتناول فنجان القهوة التركية، وخلال دردشتنا أخرجت هاتفي الآيفون بعفوية، شغلت أنغام المخدرات الرقمية، ووضعته بجانبي على الكنبة، ما هي إلا عدة دقائق حتى بدأ يجد صعوبة في مقاومة إغلاق عينيه، وظهر التعب واضحاً على وجهه، ازداد احمرار عينيه وتوسعت حدقتاهما، واعتراه الارتباك، عرفت بأنه انتقل إلى عالم آخر، وانفصل عن الواقع المؤلم الذي يعيشه.

بدأ يتكلم بصعوبة وكأنه يعاني مشكلة بالنطق عن صداقتنا القديمة، لاحظت أن يديه ترتعشان بشكل خفيف، ساد بعدها صمت قصير، شعر بالدوخة ثم دخل مرحلة فقدان الوعي، وهي حالة من التخيُّل التي تشبه النوم.

بعد فترة قصيرة هززته بيدي، وأيقظته من أحلامه، في أول الأمر اعتذر مني، لأنه سها على الرغم من إرادته نتيجة لعمله المرهق في قيادة التاكسي في كل يوم إلى بيروت والعودة بالمساء من اليوم نفسه إلى دمشق.

بعد أن انتهى من حديثه، شرحت له أنني اكتشفت طريقة جديدة للتنويم المغناطيسي، لا يعرفها أحد غيري في البلد، لأعطيه نوعاً من الطمأنينة النفسية والشعور بالأمان، شرحت له كيف تعمل قطعة الأصوات الإلكترونية الموضوعة بداخل موبايلي على تخدير كل من يستمع إليها من دون أن يلاحظ ذلك.

أقنعته بأنه لابدَّ من أن نستفيد لمصلحتنا من هذا الاكتشاف، قبل أن يكتشفه شخص ثانٍ ويصير معروفاً لجميع الناس، على الفور وافق على فكرتي، وانطلق يحلم بالمبالغ الخيالية التي يمكن أن نجنيها من استغلال هذا الاختراع.

تركته وعدت إلى بيتي، وأنا أفكر بالطريقة التي يجب اتباعها بسرعة للحصول على النقود، من دون التورط بمشكلات مع رجال الأمن. لما دخلت البيت، أخبرت والدتي بأنني استقلت من وظيفتي بالتلفزيون، وقررت العمل بالتجارة العامة، مع صديقي أبي محمود، الذي تعرفه بدورها منذ فترة طويلة، ذكرتها بأن معاش الوظيفة لم يعد كافياً في هذه الأيام الصعبة لفتح البيت، إنني أتوقع أن أجني كثيراً من النقود عن طريق نقل المواد الغذائية مع شريكي أبي محمود من لبنان إلى سورية، باختصار إن مشكلة زواجي من بنت خالتي رانية قد أصبحت محلولة.

لم أنم طوال تلك الليلة وأنا أفكر كيف ستتغير حياتي خلال الأشهر القادمة بعد زواجي من بنت خالتي رانية التي تثيرني بنعومتها منذ أيام مراهقتي، المال هو وسيلة للمقايضة في الحياة الزوجية، فالزوجة تعطي الجنس في كثير من الأحيان، مقابل تحقيق مكاسبها الشخصية، يجب ألا أركِّز على هذه الفكرة حتى لا أذيب العلاقة العاطفية والشخصية مع زوجتي رانية، وأفسد مفهوم علاقتي الحميمة والعاطفية معها بمنطق المصلحة المادية، على الرغم من إيماني بتشابك المصالح في زخم الحياة الزوجية، رانية تعرف بنفسها مقدار تأثير النقود في حياتها، ولو أنها حصلت على عريس لقطة كما يدعي والدها، لتزوجته فوراً من دون انتظاري، يجب أن أفرض فكرة سيطرة القيم الأخلاقية على العلاقات العائلية، لكي أتمكن من السيطرة على رانية.

استيقظت متأخراً في صباح هذا اليوم، ونزلت أتمشى في شارع الحمراء الذي يعتبر من أهم الشوارع التجارية وأجملها في مدينة دمشق، حيث تمتد الأبنية ذات الواجهات الحجرية البيضاء على طوله، وتنتشر محال بيع الألبسة الجاهزة على جانبيه، وهناك عدة محال صغيرة متخصصة في بيع المشغولات الذهبية، أخذت أركز نظري على كاميرات المراقبة الموجودة على مداخل محال بيع هذه المصوغات، حتى وجدت دكاناً لا يظهر وجود كاميرا عند مدخله، خفت من أن يكون هناك كاميرا مراقبة مخفية في الداخل، ثم تابعت سيري حتى وصلت إلى نهاية الشارع، أوقفت تاكسي وذهبت إلى بيت صديقي أبي محمود، لقد وضعت في

ذهني تصوراً للدكان الذي يجب علينا أن نقوم بزيارته في صباح اليوم التالي.

في حوالي الساعة العاشرة صباحاً، باشرت المحال في شارع الحمراء بفتح أبوابها، مازالت حركة السوق بطيئة، وعدد الأشخاص الذين يتمشون في الشارع محدوداً، ذهبت مباشرة مع صديقي أبي محمود باتجاه الدكان الصغير الذي اخترته البارحة، لقد استعرت من صديقي نظارته الطبية ووضعتها على وجهي على الرغم من أنني لا أستعمل نظارة طبية، واستدنت منه ألفاً وخمسمئة دولار ووضعتها في جيبي، حملت في يدي كيساً فخماً من البلاستيك عليه ماركة أديداس، حشوته بالورق لكي يبدو منتفخاً، دخلت الدكان، بينما كان أبو محمود واقفاً بالخارج أمام واجهة المحل الزجاجية متظاهراً بالنظر إلى القطع الذهبية المصفوفة فيها، وجدت رجلاً في متوسط العمر يجلس خلف طاولة زجاجية ممتلئة بالمصوغات الذهبية التقليدية، وعليها ميزان إلكتروني يعطيك الوزن والسعر بالوقت نفسه، بادرته بالسلام، وأنا أتكلم معه باللهجة الديرية التي تعلمتها من صديقي خليل ابن مدينة دير الزور خلال دراستنا معاً في الجامعة، ثم أخرجت الألف والخمسمئة دولار ووضعتها على الطاولة الزجاجية أمامه. وقلت له: إنني أريد أن أشتري بهذا المبلغ أساور لخطيبتي، وإنَّ صديقي أبا خليل وهو من زبائنه الدائمين قد نصحني بالشراء من محله، فابتسم وهزَّ رأسه بالإيجاب، وتظاهر بأن أبا خليل من أعزّ أصدقائه، كان هدفي من هذه الحركات إدخال الثقة إلى

نفسه، لكيلا يكون متشنجاً أثناء سماعه للنغمة الرقمية محاولاً إقناعه بالاسترخاء.

أدرت النغم الإلكتروني في هاتفي الآيفون، ثم أشرت إلى أسوارة ذهبية، وطلبت منه إخراجها من الدرج لمعاينتها بعد أن نظرت إليها، طلبت منه أن يريني أسوارة ثانية معروضة على الواجهة الزجاجية للمحل، فقام وأخرج المفتاح من جيبه، وفتح النافذة الزجاجية، تأكدت في حينها بأنه أصبح بإمكاني الوصول إلى أغلب القطع الذهبية المشغولة بسهولة وبسرعة، بدأت أسايره بالحديث عن أسعار الذهب واحتمال ارتفاع أسعاره، لاحظت مدى اتساع حدقتي عينيه واحمرارهما المفاجئ وهو يستمع لكلماتي، وزاد نشاطه بشكل ملحوظ. باشر يثرثر عن أحوال البلد السياسية وأوضاع الشرق الأوسط، وانزلق في تفسيرات خيالية، أعطته إحساساً بالنشوة، لتجسد الأماني التي يحلم بها لمستقبل منطقتنا، ثم هبط نشاطه بشكل ملحوظ، وأصبحت يداه ترتعشان، وهو غير قادر على تحريك الأساور الموجودة على سطح الطاولة من دون أن يعي ذلك.

دخل في حالة التخيُّل التي تشبه النوم، والتي قد ينجرف خلالها لعدة دقائق في النوم الحقيقي، أغمض عينيه وهو نصف نائم مسترخياً أمامي على الكرسي، قمت فوراً بتجميع كل ما وجدته في الدرج، ووضعته داخل الكيس، ثم بسرعة مددت يدي وأخذت قسماً كبيراً من قطع الصاغة المصفوفة بالواجهة، وكانت أغلبيتها من الأساور المبرومة، لملمتها وألقيت بها داخل الكيس، مدركاً أنه يمرُّ بدورة سريعة من الهلوسة واختلال الحواس، وأنه يمكن أن يعود إلى

حالته الطبيعية في أي لحظة، استعجلت خروجي من الدكان، كان كل ما يخيفني أثناء سرقتي للقطع الذهبية دخول أحد من الباب علينا أثناء قيامي بهذه المهمة، أسرعت بخطواتي بعد أن خرجت من الباب، وما كدت أبتعد قليلاً، حتى استعدت هدوئي وأبطأت من سيري، ومشيت بشكل طبيعي، وكان أبو محمود يمضي خلفي بتأنٍّ.

لما وصلنا إلى نهاية الشارع، استوقفنا تاكسي، وانطلقنا إلى بيته في ركن الدين، قعدنا على الأرض في غرفة الجلوس، وأخرجنا المصوغات من الكيس وتفقدناها، لم نجد أيَّ قطعة ذهبية واحدة مرصعة ولو بقليل من الألماس، ما أصابنا بالخيبة، توقعت أن وزنها يزيد على كيلوغرام، وهذا يعني أنَّ سعرها سيكون بحدود الأربعين ألف دولار.

لفَّ صديقي أبو محمود سيكارة من الحشيش وأشعلها وأخذ ينفث دخانها بالغرفة، خلال هذا الوقت غرقت في أحلامي عن المستقبل الذي ينتظرني، شعرت أنَّ العمر كله لحظة، وتصورت كيف سأصرف العشرين ألف دولار وهي مقدار حصتي من هذه العملية.

في اليوم التالي سرت شائعة في الأسواق، بأن الشرطة تبحث عن شاب في مقتبل العمر من دير الزور، يضع نظارات طبية، ويقوم بسرقة المحال التجارية، عن طريق تنويم الشخص الموجود في الدكان تنويماً مغناطيسياً.

في كل العالم سائقو التاكسي على اتصال مع جميع أجناس البشر، نتيجةً لطبيعة عملهم، فهم على علاقة مع الطبقة السفلى من المجتمع، إنهم يعرفون اللصوص والمحتالين والعاهرات، فأصبح

أبو محمود، أملي الوحيد لبيع هذه المشغولات الذهبية، بالفعل طلبت منه إجراء اتصالاته للتخلص منها بأفضل سعر ممكن.

بعد أسبوع أخبرني بأنه تمكن من الحصول على زبون لبضاعتنا، تبيَّن أنَّ وزنها في حدود الكيلو ومئتي غرام، وأنه دُفع فيها مبلغ خمسين ألف دولار، وهو يصرُّ على أن تكون حصته خمسين بالمئة من قيمة البضاعة، بخلاصة القول: إنَّ حصتي من المبلغ لن تتجاوز اثني عشر ألفاً وخمسمئة دولار. اعتراني الجنون وأنا أسمع ذلك، إنَّ هذا الزبون يخطط لسرقتنا، فهو يريد أن يقاسمنا غلتنا بعد كل الجهد والمخاطرات التي تكبدناها، إنه يريد نصف ثمنها مقابل تصريفها، في أول الأمر رفضت بعناد هذا المبلغ، قررت أن نحتفظ بهذه المجوهرات حتى نجد الشخص الملائم لتصريفها، استمرت المفاوضات بين أبي محمود والزبون، حتى وافق الزبون بالنهاية على إعطائنا مبلغ خمسة آلاف دولار مزورة على البيعة لإتمام الصفقة، وبعد أن سكنت ثورة غضبي وافقت على مضض لعدم وجود خيارات أخرى أمامنا، إنَّ حياتنا كلها عبارة عن مجموعة من الخيارات التي نتخذها في لحظات.

كان أول عمل قد قمت به بعد حصولي على حصتي من قيمة الصفقة، أنني قمت بشراء خاتم خطبة كلاسيكي بسيط من الذهب الأصفر، يصلح للاستخدام اليومي، وسلسال من الذهب الأصفر الرفيع يزينه حجر من الفيروز الأزرق الغامق، لتضعه رانية على عنقها الطويل الأبيض الجميل، إنَّ عنقها وأصابعها الطويلة كانت أهم السمات التي جذبتني إليها، لقد رأتني عدة مرات وأنا أتطلع

بشغف إلى أصابع قدميها الناعمتين، لأنني أتخيَّل بأن أنوثتها كلها تتجلى في أصابع قدميها، ارتبكت رانية من نظراتي في أول الأمر، لكنها عندما شعرت بشدة انجذابي إليها، شرعت تسايرني وتعتني بقدميها، وتضع الطلاء الفاقع على أظفارهما، لتخلق لي مركز جذب جنسي جديد يشدني إليها، إنها في العشرين من عمرها، وعلى الرغم من تظاهرها بالبراءة والخجل، فأنا على يقين من نظراتها وحركاتها، بأنها أكثر مني معرفة بأساليب العلاقات الجنسية.

تحت ضغط رغباتي العنيفة المكبوتة، وتحسن وضعي المادي، اقتنعت بفكرة الإسراع بالزواج من خطيبتي رانية. لقد افتتحت أنا وصديقي أبو محمود بقالية صغيرة في مخيم اللاجئين الفلسطينيين في جرمانا، بهدف تغطية أعمالنا الجانبية التي نقوم بها، ولكي أقنع خطيبتي رانية وأهلها بأنني أصبحت أمارس مهنة التجارة العامة مع شريكي أبي محمود زاعمين بأن عملنا الرئيسي يقوم على استيراد مادة المتة من بيروت وتوزيعها على زبائننا في دمشق.

استبدلت غرفة نومي القديمة بغرفة نوم جديدة، وأقمنا حفلة عقد قران بسيطة في بيت أهل العروس، حضرتها العائلة وصديقي المقرَّب أبو محمود، بعدها انطلقت أنا ورانية بسيارة تاكسي خاصة إلى فندق المريديان في اللاذقية لقضاء شهر العسل.

القيام بعلاقة عاطفية لم يكن أمراً غريباً لي، عندما كنت طالباً بالجامعة تورطت في علاقات مع بعض المومسات، كانت مغامرات محدودة لا تتجاوز عدد أصابع اليد، كان هدفي الأول منها اكتشاف الجنس الذي كنت أشاهده على اليوتيوب والمجلات الإباحية، علاقة

حميمة سريعة في وقت قصير مع امرأة لا تعرفها، مقابل مبلغ من المال تدفعه لها، كنت خلال ممارستي الجنس معها، أتخيل بأنني أمارس الجنس مع بنت ثانية أعرفها، لكي أضفي جواً من الإثارة والرومانسية على هذه العلاقة الباردة، وأنا أشعر بمتعة مستترة خلف هويتي التي لا تعرفها شريكتي، غير متحمِّل لأي مسؤولية تنتج عن هذه العلاقة، عندما أصل إلى النشوة الجنسية، لا أشعر بالخزي من نفسي، لأنني دفعت لها كامل مستحقاتها، إنها علاقة مباشرة وصريحة لفترة محدودة، بعد وصولي إلى نشوتي تنتهي القصة، وأختفي من حياتها، أما الآن فتجربتي مع زوجتي لها طعم خاص.

عندما استلقينا معاً على الفراش، شاهدت الرعب والتوتر يظهران عليها، بينما كانت تنتابني الحماسة المفرطة، لإحساسي بأنها أصبحت ملكي، من الطبيعي أنها تعرف عن الجنس من خلال أفلام الفيديو، ومن أحاديث صديقاتها البنات عن العلاقات الحميمة، وهذه الأحاديث بطبيعتها مبالغ فيها، وبعيدة كل البعد عن الواقع، مددت يدي محاولاً أن أكتشف منحنيات جسمها، ما زاد في توترها، حاولت أن تدفع يدي برفق، لتقنعني بأنها مرهقة من السفر، ولكي نؤجل علاقتنا إلى اليوم التالي، ما دفعني للإسراع في إتمام كل شيء بسرعة، ولأزيل الحمل من على كتفي، إنني لا أريدها أن تعتقد أنني أخفقت في محاولتي، وأن تشكَّ في رجولتي، وأنني غير قادر على أخذها في ليلة الدخلة، بالوقت نفسه خفت من أن تتحول هذه التجربة التي من المفروض أن تكون ممتعة، إلى أخرى سلبية، لتترك آثارها على علاقتنا الزوجية، أقنعت نفسي أنه

ليس المطلوب مني إظهار قواي الخارقة خلال المرة الأولى، إنه من الواجب إظهار حبّي وتعاطفي معها.

في اليوم التالي أثناء تناولنا الفطور بالفندق، جلست رانية أمامي تغمرها السعادة، بدت وهي تتحدث على طبيعتها في أمور كثيرة كامرأة ثانية لا أعرفها، لم أكن أتوقع يوماً، أنَّ لديها الجرأة لتغوص في مواضيع العلاقات الحميمة، رغبت في أن أشعرها بمقدار حبي وامتناني لها، فنزلنا إلى السوق، واشتريت لها أسوارتين ناعمتين من الذهب الأصفر اللماع، وعدنا إلى الفندق، تحولت رانية من بعدها، خلال الأيام التي أمضيناها وحدنا في غرفة الفندق، إلى مدمنة على الجنس، تساير جميع متطلباتي، نتيجة لحصولها على الاستقرار العاطفي، ولشعورها بالأمان المادي، فهي تعتقد أن زوجها الذي يعبدها، أصبح تاجراً كبيراً لمادة المتة، وها هو ينفق النقود بكثرة من أجل إرضائها.

انتهى أسبوع العسل، وعدنا إلى دمشق، لقد صرفت في هذين الشهرين الأخيرين أكثر من أحد عشر ألف دولار، ولم يبقَ معي سوى ألف وخمسمئة، وحصتي من الدولارات المزيفة.

إن زوجتي الصغيرة رانية لا ترحم، وهي تعتقد أنه مقابل تضحياتها الجسدية، فواجبي الاستمرار بتلبية جميع متطلباتها. اجتمعت مع شريكي أبي محمود، وأخذنا نخطط لمشروع كبير، يمكنه أن يسدَّ حاجاتنا المتزايدة، إنه من الغباء تكرار خطتنا الأولى، فلقد أصبحت مكشوفة لأصحاب محال الصاغة في مدينة دمشق، ربما لو كررنا اللعبة نفسها، فسنجد أننا أصبحنا في السجن، طلبت من

أبي محمود أن يشتري لي من بيروت باروكة شعر مستعار طبيعي للرجال، لونها أشقر فاتح من النوع الجيد المزود بمطاط داخلي، يساعدني لتثبيتها على رأسي ليحميها من السقوط أثناء حركتي، كما طلبت منه أن يشتري لي عدسات لاصقة تجميلية بلون أزرق غامق، أنا أعرف أن هذه الأكسسوارات تتماشى مع لوني الأبيض وملامحي الأوروبية، وأنها ستعطيني شكلاً مميزاً، يجعلني أختلف بمظهري عن الرجال الآخرين في منطقتنا.

النقود تتسرب من يدي مثل الماء، وتأمين المصروف اليومي في هذه الأيام، أصبح مشكلة حقيقية لأصحاب الدخل المحدود، ويستغل التجار اللصوص ندرة البضائع الموجودة في الأسواق لرفع الأسعار، إنني أجد نفسي مرغماً على الموافقة لرانية، على شراء الكثير من الأغراض التي لا أراها ضرورية، مادامت هي دائماً على استعداد لممارسة الجنس معي في أي وقت، فهي تثيرني بسهولة بمنظرها وحركاتها، رغباتي القوية نحوها تدفعني لأن أركّز بتخيلاتي في أغلب الأحيان على علاقتنا الجنسية، أما بالنسبة لرانية فقد كان إعطائي الجنس هو مجرد ردة فعل على تصرفاتي نحوها، لذلك لم يكن أمامي بدٌّ من أن أبذل جهدي لإرضائها ومسايرتها، إن ذكريات الأيام الصعبة التي عشتها مع أمي بعد وفاة والدي يجب ألا تتكرر، بدأت أبحث أنا وشريكي أبو محمود عن مكان جديد لنقوم بزيارته، وبالنهاية توصل شريكي إلى دكان صغير لصائغ في بيروت، وتصورنا أنه قد يكون المكان المنشود.

نزلت مع شريكي أبي محمود إلى بيروت في الصباح، وصلنا إلى

ساحة ساسين المشهورة بجمالها وهدوئها، وتعتبر المتاجر المحيطة بها من المتاجر الراقية لأشهر الماركات العالمية، ويقع محلنا على شارع فرعي ضيِّق اسمه شارع خليل حيدر، على مسافة سير حوالي عشر دقائق من الساحة.

عاينا المكان من الخارج، وشاهدنا وجود كاميرا خارجية وثانية في داخل المحل، حركة السير مازالت خفيفة في هذا الوقت، كنت أضع على رأسي الباروكة الشقراء، وأضع على عيني العدسات التجميلية الزرقاء، بعد أن أمضينا فترة ما قبل الظهر بالسير في الشوارع المجاورة للساحة لمراقبتها واكتشافها، شعرنا بالتعب، وقررنا الذهاب إلى مطعم سيب ويه المعروف للوجبات السريعة، المطل مباشرة على ساحة ساسين، وتناولنا ساندويشتين، وعدنا إلى فندقنا المتواضع، لنستريح ولنتحضّر نفسياً لمواجهة اليوم القادم.

في صباح اليوم الثاني وكانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً، دخلت إلى دكان الصائغ، وجدت شخصاً في الخمسينيات جالساً وحده في صدرها خلف طاولة فخمة من خشب الزان، سلمت عليه وأخبرته بأن صديقي أبا غسان وهو من زبائنه وأصدقائه، قد أرسلني إليه، على أساس أنه سيراعيني ويعطيني سعراً خاصاً، فتظاهر بأنه يعرف أبا غسان وهو من أعزِّ أصحابه، على الفور أخرجت من جيبي ثلاثة آلاف وخمسمئة دولار، وضعتها على الطاولة، لأعطيه الشعور بالأمان وأدفعه للاسترخاء، ولأمنحه الانطباع بأني أفكر جدياً بالشراء، وأخبرته بأنني أريد أن أشتري خاتم سولتير من الألماس لخطيبتي بهذا المبلغ.

استغرب الجواهرجي من حديثي! وتابع حديثه: بأن أقل خاتم سولتير عنده في المحل سعره عشرة آلاف دولار، وأخذ يحدثني عن سمعة محله....، وأنه يعطي لزبائنه ضماناً ليحفظ حقوقهم بعد البيع..... وأن السوق ملآن بالألماس المقلد، وأشار إلى جهاز موجود على طرف الطاولة، شارحاً لي بأن هذه الآلة الدقيقة هي التي تكشف الألماس المزيّف... ولا تتوافر في أغلب أماكن بيع الألماس، وبينما هو مسترسل في حديثه، أخرجت تلفوني الآيفون، وضعته على الطاولة، وضغطت على أيقونة الأنغام الرقمية، وتابعت حديثي معه عن أوضاع العمال السوريين في لبنان ومستقبل المنطقة، محاولاً أن أطيل الحديث لأدفعه إلى الاسترخاء، وبينما كنا مستغرقين في حديثنا، دخل شخص إلى الدكان، ومن طريقة كلامه، عرفت بأنه موظف عنده، طلب منه أن يحضر لنا فنجانين من القهوة التركية، تابعنا دردشتنا، وطال الحديث لأكثر من عشر دقائق، لاحظت أن عينيّ الصائغ بدأتا بالاحمرار، أما الموظف فلقد لاحظت أنه بدأ يقاوم النوم، بدأ الوقت يفلت من يدي، تصورت أنه آن الأوان لأشتري الخاتم، ذكرت له أن معي في جيبي خمسة آلاف دولار، وأنا على استعداد لأن أدفع كل ما معي، وهي بحدود ثمانية آلاف وخمسمئة دولار، إذا وجدت الخاتم المناسب وراعاني بالسعر.

أخرج من الدرج علبة من المخمل الأسود، فيها عشرة خواتم، اختار منها خاتماً، وقال لي: إنَّ هذا الخاتم ممتاز، والألماسة التي تزينه وزنها قيراط واحد، وهي من النوع الأصفر، وفيها نقطة

سوداء واحدة. وسعر الخاتم عشرة آلاف دولار، لكن إكراماً لأبي غسان فإنه سيبيعه لي بتسعة آلاف دولار، أخذت الخاتم ووضعته على كف يدي اليسرى، وحدّقت به طويلاً، على الرغم من أنني لا أفهم بحجارة الألماس، فلقد انجذبت إلى لونه الأصفر الفاتح الشفاف، شعرت بالإثارة والنشوة وأنا أطبق بقوة عليه بكف يدي، تعلقت به، وتصورت بأن الخاتم بدوره يبادلني الشعور نفسه، وأنه أصبح جزءاً من يدي. أفهمته بأنَّ كل ما أملكه هو ثمانية آلاف وخمسمئة دولار، فوافق بعد مناقشات طويلة على هذا المبلغ. أغلق غطاء علبة المخمل الأسود، ثم أعادها إلى درج الطاولة، نظرت إلى عينيه وكانتا حمراوين، وجفناه ترتعشان، فأخرجت خمسة الآلاف دولار، ووضعتها فوق أخواتها الموجودات على الطاولة.

أخذ المبلغ وبدأ يعدّه بتأنٍّ، تصورت أنه لا يعي ماذا يفعل، وإذ يفاجئني بقوله: إنَّ خمسة الآلاف دولار هذه مزورة، في هذه اللحظة انقطع الهدوء المخيّم على المحل، قال بعصبية للعامل: أعطني ماكينة فحص الدولارات، مرّر عليها كل الدولارات، ثم قال لي: هذه الآلاف الخمسة من الدولارات مزيفة، طلب من عامله أن يذهب فوراً إلى مخفر الشرطة القريب من ساحة ساسين، ليخبر الرقيب بأنَّ هناك زبوناً بالمحل ومعه خمسة آلاف دولار مزورة، أكد لي أنَّ هذه هي تعليمات وزارة الداخلية، وعليه أن يخبر الشرطة فوراً في حال اكتشافه لنقود مزورة ليخلي طرفه من المسؤولية.

طلب مني أن أجلس وأنتظر، لأن الرقيب سيحضر بعد قليل وسيصطحبني إلى المخفر للتحقيق في أقوالي وعن كيفية حصولي على هذه الدولارات المزيفة، حاولت أن أقنعه، بأني حصلت على هذا المبلغ من المتعهد الذي أعمل معه في مدينة صيدا، فشجعني على ألا أخاف، وأنَّ عليَّ أن أعطي هذه المعلومات كاملة إلى الشرطة، وأشار إلى أن التحقيق قد يستمر لشهرين أو ثلاثة، ولن يطلقوا سراحي قبل أن يعرفوا بالتحديد مصدر هذه الدولارات.

طلبت منه من شدة خوفي، أن يبقي معه كامل المبلغ، لكي يعطيني فرصة لأذهب لمقابلة المتعهد في صيدا، الذي أعطاني هذه الدولارات، وأحضره إلى دكانه، لأنني شخص غريب، ولا أعرف أحداً هنا، وليس هناك من يساعدني، في البداية تظاهر بأنَّ الموضوع أكبر منه، ولا يستطيع أن يتركني أذهب قبل تسليمي للشرطة، بدأت أتوسل إليه بأنَّ برقبتي أمي، وأنني عريس منذ شهرين، بدأت أتصور ماذا سيكون كلام الناس عني، وماذا سيكون موقف أمي أمام عائلتنا والجيران، في هذه اللحظة تمنيت لو أنني أصاب بجلطة قلبية، لأموت في مكاني، ولأتخلَّص من هذا الموقف المخجل الذي وضعت نفسي فيه.

بالنهاية قال لي: إنه شعر بأنني شاب طيِّب ومظلوم، وإنَّ أحدهم قد غرر بي، فوافق على أن يتركني على أن أذهب وأحضر معي المتعهد من صيدا، خرجت من الدكان بسرعة، وحاولت أن أمنع نفسي من الركض، وأنا أغادر الدكان، حتى لا ألفت أنظار الناس.

لم أجد شريكي أبا محمود بانتظاري خارج الدكان، يبدو أنه عندما لاحظ أنني مكثت فترة طويلة بالداخل، انتابته الشكوك، وقرر العودة فوراً إلى دمشق، أخذت سيارة تاكسي، وتوجهت إلى مركز انطلاق التاكسيات المغادرة إلى مدينة دمشق، دخلت دورة المياه، ثمَّ نزعت الباروكة والعدسات اللاصقة الزرقاء، واتجهت إلى المصنع، وهي نقطة العبور الفاصلة بين حدود لبنان وسورية، من شدة خوفي تصورت أن الشرطة ربما عمَّمت صورتي التي التقطتها عدسة الكاميرا في الدكان على مركز المصنع، لم أصدق نفسي وأنا أشاهد سيارة التاكسي، تبتعد داخل الحدود السورية بعيداً من لبنان.

وخلال جلوسي وحدي في السيارة، وبعد ربط تسلسل أحداث القصة، اكتشفت بأنَّ التظاهر باستدعاء الشرطة هي خدعة من الصائغ للاستيلاء على ثمانية الآلاف والخمسمئة دولار، وهي عبارة عن تمثيلية خدعني بها، لأترك المبلغ بالدكان، وأهرب مذعوراً، ولكيلا أفكر بالعودة إليه مرة ثانية طوال حياتي.

مددت يدي إلى جيبي، وأخرجت النقود الباقية معي، وكانت أقل من مئة دولار، إضافة إلى خاتم السولتير ذي الألماسة الصفراء، استعدت ثقتي بنفسي، وأدركت أنني أصبحت أقوى من كل يوم مضى. شرد ذهني وأنا أنظر من نافذة السيارة وهي تخترق الهضاب الخضراء الممتدة على جانبي الطريق، خطر لي في هذه اللحظة، أنني ربما تسرَّعت في هذه العملية الأخيرة، قبل أن تنضج طريقتي للسيطرة على تجميع ومزج الأصوات الرقمية.

إنَّ الأصوات التي ركّبتها لم تدخل بالطريقة الملائمة إلى عقل المستمع، لتعطيه النشوة التي تدفعه إلى الهلوسة والنوم بعد الاستماع إليها مباشرة، يجب عليَّ أن أقوم بسرعة بمزيد من الدراسات والتجارب لتحسين مزج هذه الأصوات الرقمية، لكي تؤدي مهمتها بالطريقة المطلوبة خلال هذه الفترة، يجب عليَّ أن أتخلص من شراكتي مع صديقي أبي محمود، من دون أن أخبره بقصة الخاتم، لقد استغلني طوال الفترة الماضية، ولم أحصل منه بالمقابل على أيِّ فائدة، أما الآن ولو بشكل مؤقت، فلم يعد هناك أمامي إلا أن أستيقظ غداً باكراً، وأذهب إلى المدرسة الخاصة التي كنت أعطي فيها دروس الفيزياء بالسنة الماضية، وأرجو المدير لكي يعيدني للتدريس فيها.

نادیا

في تلك الأيام، لم يكن هناك طالب واحد في صفي قد سمع بموضوع الهالة الضوئية التي تحيط بجسم كل واحد منا، إنها ناتجة عن التفاعلات الكيميائية التي تجري باستمرار في داخل أجسامنا، لتولد تياراً كهربائياً يستخدمه دماغنا للسيطرة على أعضاء جسمنا، ويقوم دماغنا باستمرار بإرسال موجات كهرومغناطيسية تشبه في صفاتها الموجات التي ترسلها محطات البث التلفزيوني، بحيث يتم استقبالها أحياناً من دماغ الشخص الآخر ليحولها إلى صور مرئيّة تشبه الفيلم السينمائي، وفي الفترة الأخيرة، تمكن العلم من قياس شدة ولون الهالة الضوئية التي تحيط بكل واحد منا.

عندما شاهدت ناديا للمرة الأولى في بيت عمتي، كنت في البكالوريا، وكان عمري لا يزيد على سبعة عشر عاماً، أحسست في تلك اللحظة بأن هالتها الضوئية قد تداخلت، وسيطرت على هالتي، فانجذبت رغماً عني نحوها، ثم لاحظت من تصرفاتها بأنها لم تشعر بوجودي، إن هالتها الضوئية لم تتفاعل مع هالتي، ولم تتوافق الترددات بعضها مع بعض، ما لم يسمح لخلق مجال ملائم لإرسال واستقبال الأمواج بيننا، لكي تنشأ علاقة حب طبيعية تجمعنا معاً. وأصبحت الآن أعيش وحدي تحت تأثير جاذبيتها الكهربائية، ما جعلني أسيراً لها، إنه أسوأ أنواع العبودية، إنه الحب من أول نظرة، ومن طرف واحد.

وأخذت بالفترة الأخيرة أجد الأعذار للإكثار من زيارة عمتي، لأستمتع بمشاهدة ناديا، وهي جالسة تذاكر دروسها مع ابنة عمتي، حيث إنهما كانتا طالبتين بالصف الثالث بكلية الصيدلة في جامعة دمشق، كنت أجلس بالقرب منها محاولاً التركيز على التفكير فيها،

لكي أتمكن من التحكم بالأمواج الصادرة عن دماغي لخلق نوع من التأثيرات فيها، كما كنت قد قرأت في إحدى المجلات، بأنَّ الكهنة البوذيين قادرون على ضبط إيقاع الترددات الصادرة عن دماغهم مع الأجسام المحيطة بهم، كالصحون والمعالق، ما يعطيهم القدرة على السيطرة عليها وتحريكها ورفعها بالهواء.

إن هذه الأفكار الغريبة التي كنت أقرؤها بالمجلات، أخذت تسيطر على تفكيري، ولكنها بالوقت نفسه تعطيني الشعور بالقوة لأنني الشخص الوحيد الذي يعرفها من بين جميع الأصدقاء، إنني بحاجة إلى التركيز والتدريب، لكي أتمكن بالنهاية من السيطرة على تفكير ناديا.

لابدّ لي من الحديث مع ناديا، لكي أنشئ نوعاً من العلاقة الفكرية، لتساعدني على إرسال الأمواج إليها بسهولة، بينما كانت تدردش مع ابنة عمتي، سألتها أن تساعدني في حل مسألة صعبة بالكيمياء، لا أستطيع أن أفهمها، وبما أنها قد أمضت ثلاث سنوات في كلية الصيدلة، وهي تتفاعل مع مادة الكيمياء، فلم تجد أي صعوبة في شرح المسألة بطريقتها الخاصة البسيطة، ما جعلني أجد لذةً في شرحها، ولربما وجدت نفسها هي الأخرى مستمتعةً بشرح تفاصيل هذه المسألة لشاب صغير، ما أعطاها الشعور الذاتي بالتفوق عليه.

إن طريقتها رائعة في شرح المسألة، إنها تشاورني في كل خطوة أثناء الحل، لتساعدني على استنتاج الخطوة التالية بنفسي، كلماتها.. صوتها.. بحتها.. كانت تثير جميع الأحلام النائمة في نفسي، إنها المرة الأولى التي أتكلم فيها مع بنت غريبة عن محيطي، بينت لها أن

نقطة ضعفي بمادة الكيمياء هو في حل مسائلها، فضحكت، ووعدتني أنها خلال خمس أو ست جلسات، ستجعلني الأول في صفي بحل مسائل الكيمياء، خلال هذا الشرح، لم أعد أشعر أن حل المسألة هو نوع من المعاناة، لقد تمكنت ناديا من جعلي أستمتع بمادة الكيمياء، أقنعت نفسي أنه من الواجب أن أركز جهدي على مادة الكيمياء، لألفت انتباهها، ولأجعلها تقتنع بأنني أستفيد من ملاحظاتها، إن علاماتي في مادة الكيمياء دائماً تحت الوسط، ولم أكن أحب هذه المادة، ولكن منذ اليوم، وبعد أن جلست معها، واستمتعت بصوتها الدافئ، وهو يخترقني، ولدغتها الجميلة وهي تنطق حرف الراء بشكل يشبه في إيقاعه حرف الغاء، مغايراً في إيقاعه الموسيقي اللهجة التي تعودت عليها. سمعت أن الفرنسيين يستعملون هذه اللدغة في لهجتهم، ليضيفوا عليها نوعاً من الرقة والجمال، تمنيت لو أنني كنت ألدغ مثلها، إن كل همي الآن أن أجد أشياء مشتركة بيننا، تجعلني قريباً منها، كل ما أريده في هذه اللحظة أن أصبح جزءاً منها.

في الواقع كان بإمكاني أن أركز منذ فترة طويلة على حل مشكلة مادة الكيمياء، فأخي سمير الذي يكبرني بست سنوات، هو في السنة النهائية بكلية الطب في جامعة دمشق، وهو دائماً من الأوائل في صفه، ولقد درس مادة الكيمياء لسنوات في كلية الطب، ولكنني لم أكن أبداً أحب أن أستعين به لحل مشكلاتي، فعلى الرغم من تظاهرنا أمام الناس بأن يحبَّ بعضنا بعضاً مثل بقية الإخوة، إلا أنني لا أثق به كثيراً، وأعتقد أنه يبادلني الشعور نفسه، وهو يلجأ إلى السخرية مني، ومن علاماتي المدرسية، ويتحداني بأن أحصل على

مجموع علامات يؤهلني لدخول كلية الطب، إنه شخص مغرور بذاته، فهو يعتقد أنه أكثر ذكاءً من كل أفراد أسرتنا، وأن تفوقه بالدراسة وجسمه الرياضي الطويل النحيف أعطياه ثقة كبيرة بنفسه، وانعكس هذا الشعور على تصرفاته ومعاملته مع الأشخاص المحيطين به طوال فترة حياته، وهذه التصرفات أعطتني نوعاً من الشعور بالنقص والكراهية له بالوقت نفسه، وقد حاولت أن أخفي عنه هذه الدروس الخصوصية التي أتلقاها من ناديا، حتى لا يجعلني مادة للسخرية أمام الأهل والأصدقاء.

ازدادت وتيرة زياراتي إلى بيت عمتي بحجة الدراسة من أجل أن أرى ناديا، إن وجودها بقربي جعلني أكتشف حبي للحياة ولمادة الكيمياء، وأخذت أبذل كثيراً من الجهد والوقت في الدراسة، لأكون عند حسن ظنها، ولكي أترك انطباعاً جيداً لديها.

إلى الآن لم أجد المناسبة ولا الجرأة، لكي أعبّر لها عن مشاعري، وإن كل ما أخافه ألا تأخذني بشكل جدي، إنها تكبرني بأربعة أعوام، وقد قاربت على التخرج في الجامعة، وأنا ما أزال في سنتي الأخيرة بالثانوية، إن عمتي ترحب بهذه الزيارات، ما شجعني على الاستمرار بها، لأنها تعتقد أنها تزيد من تقوية الروابط العائلية، في الواقع إنها تخطط ليتزوج أخي الدكتور سمير من ابنتها، وكانت قد فاتحت والدي صراحةً بهذا الموضوع، ولكن أبي يعرف بأنه لا يستطيع السيطرة على رغبات ابنه، إذ إن الدكتور سمير يخطط للسفر بالسنة القادمة إلى أميركا للتخصص بالجراحة العامة، وكل أمله ينحصر حالياً في الحصول على بورد بالجراحة العامة من أميركا، إنه شخصية مستقلة

وشرسة، لا يمكن السيطرة عليها، يعرف أبي المسكين مسبقاً أن ابنه عندما سينتهي من دراسته في أميركا، فإنه لن يعود أبداً إلى هنا، إنه شخص أناني، لا يفكر إلا بمصالحه الخاصة، وهذا ما كنت دائماً أردده في نفسي، لأزداد كراهيةً له، وما أجج هذه الكراهية أيضاً، أنه الابن البكر لوالدتي، ما جعلها تكنُّ له معزة خاصة، ومازال يحوز كثيراً من الامتيازات التي لا أتمتع بها.

إن تكرار جلوسي على الطاولة مع ناديا، وهي تساعدني في حل مسائل مادة الكيمياء، جعل بيننا نوعاً من الألفة والصداقة، وأخذت أتجرأ بمرور الوقت على الحديث معها بشكل طبيعي من دون تكلف. استجمعت شجاعتي مرة لأقول لها إن بحّة صوتها مميزة، وتختلف عن جميع أصوات البنات، وبعد أن ألقيت هذه العبارة، شعرت بالخوف من ردة فعلها، وخفت أن تجيبني بقسوة على ملاحظاتي، ولكنها ابتسمت وهي تقول لي: أنت لست أول واحد يقول لي هذا، وشعرت بأنها استمتعت كثيراً بملاحظتي، إن النساء يرغبن دائماً بسماع الكلمات التي تدور حول جمالهن، بغض النظر عمن يردد هذه العبارات، ومن أجل هذا المديح، فهنّ على استعداد للتضحية بأشياء كثيرة.

عندما عدت إلى البيت انتابني شعور غريب، وأنا أذكر ملاطفتي لناديا، أدركت لأول مرة في حياتي أنني لم أعد طفلاً كما تتصوره والدتي، لقد أصبحت رجلاً يعبر عن مشاعره بجرأة ووضوح، ورحت أنتظر بفارغ الصبر موعد الدرس القادم لأشاهدها، وبدأت أجهز الكلمات التي سأقولها لامتداح جمالها. خطر لي أن أتكلم عن

جمال عينيها وشعرها، ولكنني صرفت هذه الأفكار عن رأسي، لأنني مازلت لا أملك الجرأة للدخول إلى هذا النوع من الحديث، وبينما نحن جالسون، وهي تمسك القلم بيدها، وتكتب المعادلة الكيميائية، فلتت من لساني جملة، بأن أصابع يدها طويلة وجميلة، وهي تكتب بأناقة مميزة على الدفتر، لا أعرف كيف خطرت لي هذه الجملة، وشعرت بأنها غير متوازنة، وحتى إنها غير مترابطة، وخفت من ردة فعلها، وتصورت أنها قد تكون جلسة الدرس الأخير معها، ولكن عينيها برقتا بحماسة لا توصف، وضحكت من قلبها، إنها مثل بقية نساء العالم، تريد أن تسمع الأشخاص يمتدحون جمالها، وخصوصاً إذا جاء بعفوية من شاب صغير في مقتبل العمر، يعبر بصراحة وصدق عن مشاعره نحوها. وتابعت ضاحكة: ألم يعجبك شيء آخر؟ شعرت بالارتباك من ملاحظتها، وخطر لي أن أتابع حديثي عن جمال عينيها وشفتيها الصغيرتين المكتنزتين، لكن شعوري بالخجل نتيجة لكثرة العقد النفسية التي ترتبط بمخيلتي عن البنات، خذلني من الانجراف في هذا الحديث، لا شك أنها شاهدت احمرار وجهي، وظهور الارتباك على حركاتي، فتابعت شرحها لمسألة الكيمياء بشكل طبيعي، أدركت بهذه اللحظة أن ناديا عندها جرأة كبيرة للحديث مع الشباب، ولا شك أنها خلال دراستها الجامعية، قد تعودت على الحديث معهم أثناء المحاضرات وفي المختبرات، وكسرت عقدة الخوف التي مازلت أعيشها حتى الآن.

لم أعد أستطيع التركيز في دراستي، على الرغم من جلوسي لساعات طويلة خلف الكتاب، إن صورة وجهها أصبحت تلازمني،

وتستحوذ على تفكيري، وحاولت أن أقنع نفسي بأن ناديا تبادلني الشعور نفسه، لقد شاهدت بعيني كيف تضحك لملاحظاتي عن جمالها، ربما من الجنون أن أفكر بالزواج منها، ولو أنني فاتحت أمي بهذا الموضوع، فسأصبح مضحكة العائلة، إن الحل الوحيد أمامي أن أعتمد على نفسي، وأن أنجح في الثانوية العامة بآخر السنة، وبعدها سأحصل على وظيفة، ثم أفكر بالتسجيل في كلية الحقوق، حيث إن الدوام غير إلزامي، لمتابعة دراستي الجامعية، وبذلك الوقت تكون ناديا قد أنهت دراستها الجامعية، وستتوظف لتساعدني على فتح البيت.

إن فكرة زواجي من ناديا أصبحت هوساً لا أستطيع السيطرة عليه، وإن كل ما أحتاجه الآن هو موافقتها على هذا الزواج، وقررت أنني عندما سألقاها في المرة القادمة، سأطرح عليها فكرة زواجنا. إني أدرك بأعماق نفسي، أن شكلها عادي جداً، وأنها نحيفة وقصيرة، وهذا ما جعلني أتعلق بها، كنت دائماً أتخيل أن النحافة وقصر القامة تضيفان نعومة كبيرة على البنت، وتجعلانها جذابة في نظر الرجال، إن في بحة صوتها وفي شخصيتها الدافئة سحراً، قد لا يلاحظه أكثر الشباب.

حان وقت درس الكيمياء، وجلست شارداً أفكر كيف سأفتح معها موضوع زواجنا، ترددت كثيراً، فأدركت بهذه اللحظة أنني شخص جبان، وليس عندي الجرأة لأطرح ما يجول بخاطري نحوها، ولاحظت هي شرودي وعدم تركيزي على شرحها، فقالت ضاحكة: ما بتشبع أحلام يقظة. بهذه الكلمات قطعت حبل الخوف الذي يكبلني،

إنها تتصورني أنني مازلت ولداً صغيراً، يعيش على أوهامه، ولكنها لا تدرك مقدار رغبتي الجنسية فيها، وأني أريد أن أتزوجها، لتكون مستقبلي وحياتي، وهي الآن تتمسخر، وتتهمني بأني أعيش في أحلام اليقظة، إنها تتحداني لأعبر لها عن مشاعري، وربما هي تعاني الكبت الجنسي نفسه الذي أعيش فيه، فهي لم تتزوج حتى الآن، وهي تعرف أن شكلها عادي جداً، ولن تلفت انتباه عدد كبير من الرجال، وبعد أن انتهينا من درس الكيمياء، سألتني فيما إذا لاحظت شيئاً في شكلها، فأجبتها أنني من لحظة دخولي الغرفة، اكتشفت أنها غيرت لون طلاء أظفارها من الزهر إلى اللون الأحمر القاتم، فابتسمت كعادتها وقالت: لو أنك تركز في دروسك مثل ما تركز في حركاتي، لأصبحت الأول في صفك، إنها تستمتع باهتمامي بها، ولعلها تحبّني، ولكن بطريقة مختلفة عن طريقتي، وعندما عدت إلى البيت، اتخذت قراري النهائي، بأن عليَّ أن أتقدم لخطبتها بالدرس القادم، بغض النظر عن النتائج المترتبة عن ذلك.

في موعدنا بالدرس، وبينما هي تكتب لتشرح لي عن المعادلة الكيميائية، مددت يدي بجرأة، لم أكن أنا نفسي أتوقعها، وأمسكت بيدها، حاولت أن تسحب يدها بدلال، ولكني لم أسمح لها، وبدأت أضغط قليلاً على أصابعها الدقيقة الناعمة، ولكنها سحبت يدها بإصرار من يدي، وقالت لي وهي تبتسم: No Touch – No Touch، فهمت في هذه اللحظة من معناها، أنها لا تريد أن ألمسها، وعندما رجعت إلى البيت، فتحت القاموس، لأستوعب معناها بشكل واضح، فوجدت أنها تعني بالأساطير الدينية لا مساس، أحسست بأنها

استخدمت اللغة الإنكليزية، لتقنعني بجديتها في موضوع التقرب منها جنسياً بملامستها أنها ذكية، وتعرف أنني شاب مراهق، وأن عليها أن تضع حداً بيننا، وإلا فإنني سأتمادى معها، على الرغم من معرفتي بأنني أروق لها، لكنها مازالت لا توافقني على تطوير العلاقة بيننا، حتى ولو عرضت عليها أن أتزوجها، إنها ما برحت تنظر إليَّ كمراهق لطيف، وليست على استعداد لأن تتزوجه، وتتكفل برعايته، وتربط مستقبلها معه.

الحل الوحيد أمامي أن أجتهد في دروسي، لأحصل على معدل جيد، يسمح لي بدخول كلية العلوم، وبعد أربع سنوات أقضيها في الجامعة، سأتخرج، وأصبح مدرساً في إحدى الثانويات، وحينئذٍ يمكنني أن أتزوجها، لم يعد باستطاعتي التفكير بمستقبلي، من دون أن تكون ناديا ركناً فيه.

عادت الأمور إلى طبيعتها في دروس الكيمياء، حتى إنها بدأت تساعدني أيضاً في مادة الفيزياء، ومن فترة لفترة كانت تكسر الروتين، وتمازحني، وتسألني عن رأيي في تسريحة شعرها، ومرة لاحظت أنها ترتدي حذاءً جديداً، فسألتها عن مقاس قدمها، فأجابتني ثمان وثلاثون، وانفجرت من الضحك، لقد استغربت هذا السؤال الذي لم تكن تتوقعه، فشرحت لها أن إعجابي بالبنت يبدأ من قدميها الصغيرتين، فابتسمت وقالت لي: إنني بنت قصيرة، وهل كنت تتوقع أن يكون مقاس قدمي خمساً وأربعين، فلم أجد بداً من الضحك، إنها تعاملني بشكل طبيعي، وكأنني طفل صغير، إنها حتى الآن لم تدرك مشاعري الجنسية نحوها، إذ إنني في كثير من الأحيان أنظر إلى

صدرها، وأفكر بحجم ثدييها الصغيرين، وأراقب تحركاتهما تحت كنزتها البيضاء.

إن هناك أفكاراً جنسية كثيرة تعتريني نحوها، وأحياناً أشعر بالخجل من نفسي، ومن هذه الأفكار المخيفة التي أتصورها نحوها، ولاسيما حينما أشاهدها وهي تعاملني بمودة واحترام، وأتساءل أحياناً فيما إذا كانت تعتريها هذه المشاعر الجنسية نفسها التي أحملها لها.

ربما إنها مازالت تتصورني ولداً صغيراً، تتسلى بالحديث معه، وكنت أتمنى لو أن عمتي وابنتها، تركتانا وحدنا في هذا البيت.

إن الأفكار الجنسية قد تخرج عن سيطرة الإنسان، ليجد نفسه منقاداً رغماً عنه، لإشباع غريزته الجنسية بأي شكل من الأشكال، بغض النظر عن النتائج التي تترتب عن طريقة إشباعها، ليجد نفسه بالنهاية في موقف لا يمكنه الهروب منه، فيأخذ خطوة باتجاه البنت، وقد تكون ردة فعلها مفاجئة، لم يكن يتوقعها، فيضطر لاتخاذ خطوة أخرى لتغطية خطأ الخطوة الأولى، فتزداد مقاومة البنت، وقد تهدده فيجد نفسه مضطراً إلى تصعيد الخطوات نحوها، ما قد يؤدي بالمحصلة إلى قتلها، وكنت قد شاهدت مرة هذه القصة في أحد الأفلام البوليسية، لو كان هناك مجال لنكون وحدنا في مكان معزول لفكرت باغتصابها، لأجعلها توافق على الزواج مني، لأنه قد يكون الحل الوحيد أمامها، لما أكون جالساً معها أشعر بأنني مستعدٌّ أن أضحي بحياتي كلها من أجلها، أو من أجل أي شخص آخر تحبه، إنها لا تعرف عمق العواطف التي أكنها لها، إنها لا تعرف أنني أعبدها.

استمرت الدروس الخصوصية تسير على وتيرتها، وبقيت أحاول أن أتودد إلى ناديا باستمرار محاولاً أن أقنعها بأنني يمكن أن أكون فارس أحلامها، ولكنها ظلت تمازحني، وتبقيني بالوقت نفسه بعيداً منها. إن اليأس لم ينتبني للحظة واحدة، إنني مقتنع بأعماقي، بأن هذه الفتاة ستكون زوجتي بالمستقبل.

إن تمسكي بهذا الوهم أصبح يعطيني معنى جديداً لحياتي، وإني أرفض أن أتصوره بأنه وسواس خيالي، يعتمد على خداعي لنفسي، على الرغم من معرفتي بأن رفض ناديا أن أمسك يدها، دليل قوي على أنها لا تفكر بأن تتواصل معي عاطفياً، وأنها لا تكنُّ لي أي رغبة جنسية.

إن علاقتي بأسرتي ليست على ما يرام، وإن علاماتي المدرسية على الرغم من تحسنها بالفترة الأخيرة، فإنها مازالت بحدود الوسط، فإن تركت هذا الوهم الذي أعيشه، وأستمتع به، فلن يبقى لي شيء واحد في هذا العالم، لأعيش من أجله.

بينما كنت جالساً مع والدتي وأخي ندردش على طاولة الطعام، ذكرت والدتي بأنني أصبحت أبذل كثيراً من الوقت بالدراسة في هذه الأيام، وأنها تتوقع مني أن أحصل على مجموع عالٍ في الشهادة الثانوية، فشجعني كلامها، ووجدت نفسي متورطاً بالحديث عن ناديا صديقة ابنة عمتي التي تساعدني في فهم مادة الكيمياء، وبصورة لا شعورية تطرأت إلى ذكائها ونعومتها، وكان أخي جالساً يراقبني، ويستمع إلى حديثي بهدوئه المعتاد.

استمررت بالذهاب إلى بيت عمتي كالعادة، وإن كان حماسي أخذ

يقل بالتدريج، لقد تعبت من محاولاتي للفت انتباه ناديا، كما أنني أصبحت جيداً في حل مسائل الكيمياء، حتى إنني حصلت بالمذاكرة الأخيرة بالصف على علامة عالية، ما جعل أستاذي يستغرب من هذا التقدم الذي أحرزته في هذه الفترة القصيرة، إن همي الآن ينحصر بالدخول إلى كلية العلوم بالجامعة، والتخرج بعد أربع سنوات، لكي أتمكن من الزواج من ناديا.

منذ يومين ذهبت إلى بيت عمتي لمراجعة مادة الفيزياء مع ناديا، ولكنها لم تكن موجودة على غير عادتها، وعندما سألت ابنة عمتي عن سبب عدم حضورها، أجابتني بنشافة بأنها لم تعد صديقتها، وأنها بنت شرشوحة وقليلة تربية، وأنها لا تريدها أن تأتي إلى منزلها، لم أستوعب هذه الكلمات في بادئ الأمر، وكما هو معروف عن أي بنت، فإنها تغار من صديقاتها ولا تحبهن، وعلى الرغم من أنها تتظاهر بعكس ذلك، توقعت أنها مشكلة صغيرة بينها وبين ناديا، ولن تلبث الأمور إلا أن تعود إلى مجاريها، غادرت منزل عمتي، وأنا أتوقع أن أعود بعد أيام لأجتمع مع ناديا من جديد، وتمنيت لو كانت معي صورة ناديا، لأضعها في محفظتي الصغيرة، ولأتمكن من النظر إلى وجهها عندما أشاء.

بعد فترة، وبينما أنا جالس أدردش مع أمي، أخبرتني بأن أخاك الدكتور سمير قد قابل ناديا مع ابنة عمتك في كافتيريا الجامعة، ولقد أعجبته، وهو يفكر الآن أن نقوم بخطبتها من أهلها، لم أعد أستطيع أن أستوعب هذه الأحداث التي تجري بسرعة من حولي، وجاوبتها بأنه من المستحيل أن يفكر بذلك، فهو عازم على السفر إلى

أميركا من أجل دراسة البورد، وكيف له أن يتزوجها، ومن سيتحمل مصاريف سفره وسفرها؟ إنها كعادتها من شدة حبها لابنها سمير وإيمانها بإمكانياته، فهي على استعداد لأن تبرر له جميع تصرفاته، إنها امرأة مسكينة ومريضة، لا أحد يستشيرها في هذا البيت إلا أنا.

إنني لا أريد أن أصدق هذه الترهات، لأنني أعرف أخي، وأعرف أنه سيسافر إلى أميركا، وربما قد أعجبته عندما تعرف إليها للمرة الأولى، ولكنه سيتسلى معها في الوقت الحاضر، ثم سيمل منها، ويتركها من أجل السفر لإكمال دراسته، ولاحظت أمي الانزعاج الذي بدا على وجهي من هذا الحديث، فتابعت حديثها بطيبتها المعهودة، ما رأيك أن نخطب لك ابنة عمتك؟ صحيح أنها أكبر منك بأربع سنوات، ولكنها بعد سنة ستصبح صيدلانية، وسيكون راتبها كبيراً، إن هناك عشرين ألف شخص يتمنون الزواج بها، وبعد أن تحصل على الشهادة الثانوية، وتتوظف وتتزوجها، سيساعدك راتبها على فتح البيت، إن شاء الله توافق عمتك بتزويجها لك، نظرت إليها باستغراب من هذا الكلام، لأنني عندما أنظر إلى ابنة عمتي، فإنني مازلت أتخيلها أمامي صبياً سميناً وقصيراً، إنها خالية من الأنوثة، ولا أشعر نحوها بأي رغبة جنسية، ولعل ذلك ما دفع أخي الدكتور سمير على رفض الزواج منها.

إن والدتي تقلل من شأني، وتتصورني رجلاً فاشلاً، كل مستقبله مرهون بالزواج من امرأة لها راتب عالٍ، إن هناك حساً من الجنون يجري في هذه العائلة، وخطر لي أن أمسك أخي وأنصحه بأن يترك ناديا، وألا يعمل على تدميرها، لأنني أعرفه جيداً، وأنا واثق من أنه

سيتركها بعد فترة، وسيسافر وحده إلى أميركا، لكنني لا أملك الجرأة اللازمة لمفاتحته بهذا الموضوع.

بعد عدة أيام، سمعت من أمي أن أبي وأخاه الكبير سيذهبان إلى بيت أهل ناديا لخطبتها من أبيها، لم أعد أريد أن أتابع هذا الموضوع، لأنه لم يعد يهمني، ما يجري في هذه العائلة التي شعرت لأول مرة بأنني لا أنتمي إليها، أصبحت متأكداً من أن مستقبلي ينتهي بحصولي على الشهادة الثانوية بعلامات عالية، وأن موضوع خطبة أخي قد أصبح خلفي، وأنا لست على استعداد لمتابعة أخباره.

تسارعت الأحداث، وبعد أسبوعين ذهبت مع عائلتي إلى بيت ناديا، من أجل أن يقوم أخي بتلبيسها خاتم الخطبة، ودخلت المنزل وأنا أفكر بهذه الظروف العجيبة التي تتلاعب بي، وتعمل على تغيير مجرى الأحداث بالشكل الذي يناسبها. وجدت نفسي أمام ناديا من جديد، كانت طبيعية جداً وسعيدة، وتذكرت أن علاقتي بها، لم تكن سوى حبّ من طرف واحد، وأنها كانت طوال الوقت تتسلى مع شاب صغير معجب بها، أما الآن ولقد أصبحتُ على أبواب الزواج، فلم تعد بحاجة إلى هذا المراهق.

أحسست بهذه اللحظة أن مشاعري نحوها قد ماتت، إن الحب مثل الأشخاص يمرض ويموت بصمت، من دون أن يكون هناك حاجة لدفنه، إنني مازلت صغيراً على العلاقات العاطفية، ومن الأفضل أن أركز الآن على دروسي، ولكنني بأعماق نفسي تمنيت لها الخير، لأنها تستحق ذلك، وأن تتحقق أحلامها في هذه الزيجة، وأن تعيش سعيدة في الأيام المقبلة عليها.

مضت الأيام متثاقلة وببطء شديد، فتذكرت أني قرأت مرة جملة لإنشتاين معناها أن الزمن هو نسبي للأشخاص، فعندما يجلس الرجل مع فتاة جميلة لمدة ساعة، فهو يشعر بأنها مرت كدقيقة واحدة، وعندما يجلس على صفيحة ساخنة لمدة دقيقة واحدة، فإنه يشعر بها كأنها ساعة، أصبحت أيامي كلها تدور حول الدراسة، محاولاً إشغال نفسي، لأبتعد عن التفكير بناديا، ولم تعد لدي رغبة للخروج مع أصدقائي لمشاهدة الأفلام السينمائية مفضلاً العزلة عن الاختلاط بالعالم.

بعد هذه التجربة القصيرة، أدركت أنني كبرت أكثر من عشر سنوات، ولكن سعال أمي أخذ يشتد عليها بالفترة الأخيرة، ما تسبب في ظهور كميات صغيرة من الدم في لعابها، ولقد فهمنا أنها كانت تلاحظ وجود الدم في بلغمها أثناء السعال منذ فترة، ولكنها كانت تخفي عنا ذلك، ولم تهتم به، وتصورت أنه التهاب بسيط ناتج عن البرد، إنها تحاول أن تخفي هذا الموضوع عن أخي، حتى لا يجبرها على ترك التدخين، إنها تدخن علبتين من السجائر يومياً، وهي تعتقد جازمة بأنها لا يمكنها أن تعيش من دون تدخين، بعد أن شاهد أخي وضعها منعها من التدخين، وأعطاها مضاداً حيوياً لمدة أسبوعين، لكن وضعها لم يتحسن.

قرر أخي أن يأخذها إلى المستشفى الجامعي الذي يتدرب فيه، حيث إن المعالجة في المشافي الحكومية في سورية شبه مجانية، كما أنه على علاقة يومية مع أساتذته الذين يداومون في هذا المستشفى، ويشرفون على علاج المرضى فيه، اقترح الطبيب بعد

معاينتها، أخذ صورة بالأشعة لصدرها، وظهر بالصورة وجود حيز من الهواء في رئتيها، فطلب الطبيب إجراء تصوير مقطعي للرئتين، ليتأكد من شكوكه، وبالفعل لقد تبين بعد إجراء التصوير المقطعي باستخدام الكومبيوتر، وجود ورم سرطاني في رئتيها، وأن السرطان أخذ بالانتشار فيهما، ونصح طبيبها بأن تخضع فوراً للعلاج الكيميائي، وبعدها سيضع خطته العلاجية بناءً على ردود أفعال جسمها، ووضع حالتها بعد الانتهاء من جلسات العلاج الكيميائي، بأن عليها الآن أن تبدأ بدورات علاجية، تأخذ فيها الجرعة على شكل حقنة بالوريد يومياً لمدة أسبوع، ثم يعقبها أسبوع من دون جرعات، ليرتاح جسمها، ويجدد خلاياه، وتسمى فترة العلاج التي تمتد لأربعة أسابيع بالدورة العلاجية، وكانت أمي تأخذ الحقنة بالوريد، وتبقى بعدها بالمستشفى لعدة ساعات، وأحياناً كان أخي سمير يجلس معها، وفي أغلب الأحيان، كانت تحضر ناديا، وتبقى معها محاولة رفع معنوياتها المنهارة، ثم تعودان معاً بالتاكسي إلى بيتنا، وبعد انتهاء الجرعة ينتابها الإجهاد، ولا تستطيع أن تتحرك بسهولة، وتعاني نتيجة القيء والغثيان والبرد والقشعريرة.

أخذ شعرها يتساقط، ولعل منظر خصل شعرها وهي تتساقط أصبح يزعجها، ويصيبها بحالة من الحزن على منظرها، فأصابها اليأس، وشعرت بعدم جدوى العلاج، إن هذا الشقاء لن ينتهي، وليس هناك داعٍ لإطالة هذا العذاب، كنت أراقب ناديا وهي تجلس إلى جانبها، وتدردش معها بحنان، لتشعرها بأنها مازالت على قيد الحياة، ولتساعدها على أن تتكيف مع شكلها الجديد، لقد حاولت

ناديا أن تكون بمنزلة ابنتها التي لم تلدها، لا شك أن أخي قد ولد محظوظاً منذ صغره، فإضافة إلى أنه أصبح طبيباً، ها هو يحصل الآن على زوجة رائعة، وتمنيت لو أنني كنت مكانه.

لم أكن أعرف الوضع الصحي لوالدتي، إذ إن أخي الدكتور سمير لا يطلعنا بصراحة عن تطور مرضها، وبعد أسبوعين من الانتهاء من العلاج الكيميائي، قرر الأطباء أن تبدأ العلاج بالأشعة، هناك أشياء كثيرة يخفيها عني الأطباء، ولم تكن لدي الرغبة الحقيقية في معرفة الوضع الصحي لأمي، لأني مازلت متعلقاً بالأمل والمعجزات، وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأن صحتها آخذة بالتحسن، وأن الأمور ستعود قريباً إلى طبيعتها.

زعم أخي أن العلاج بالأشعة هو علاج تكميلي بعد العلاج الكيميائي. وأخذت أمي تخضع لجلسة واحدة يومياً على مدى خمسة أيام في الأسبوع، واستمرت هذه الجلسات من العذاب لأكثر من شهر، حتى بلغ مجموعها خمساً وعشرين جلسة، وقرر الأطباء بعدها أن تتوقف عن العلاج لتعطي لأنسجتها فترة للراحة، وليراقبوا تطور مرضها، وبدا للجميع أن الأمور لم تتحسن، ولعل أمي قد أدركت ذلك قبل غيرها، وشعرت أن عليها أن تواجه قدرها وحدها بشجاعة، لم تكن خائفة، لأنها لم تذق السعادة في حياتها، وأن مفارقة هذا العالم قد يريحها من هذا الشقاء الذي لا ينتهي، كما أنها تؤمن بالقضاء والقدر، وأن هناك عالماً آخر ينتظرها، لتعيش فيه بسعادة مع أمها، فمهما كبر الإنسان، فإنه بأعماق نفسه يظل يعتقد أنه لن يجد السعادة الحقيقية إلا بلقاء أمه.

لم تكن والدتي بحاجة إلى من يدعمها نفسياً، بل إنها على العكس من ذلك، فكانت تدعمني أنا وأخي وتهيئنا لمفارقتها، تأكدت بأن أيامها قد أصبحت معدودة، وبينما أنا جالس إلى جانبها، وهي تتكلم بصعوبة، سألتني بأن أعيد التفكير بالزواج من ابنة عمتي، لأنه بعد حصولي على الشهادة الثانوية وحصولي على وظيفة، فإنني بحاجة إليها، لتكون إلى جانبي، ولتساعدني بمصاريف البيت، حتى في هذه اللحظات، كان تأمين مستقبلي هو الهاجس الذي يسيطر على تفكيرها، ولعلها في هذا الوقت لم تكن مطمئنة لتصرفات والدي بعد رحيلها عن هذا العالم.

أخذ المرض يشتد على والدتي، وأصبحت تعيش على حقنات المورفين لتخفيف آلامها، وكانت ناديا طوال الوقت إلى جانبها، ولا تتركها، كما كانت هي المسؤولة عن إعطائها الحقن والأدوية المسكنة لتخفيف أوجاعها، إن هناك نوعاً من الترابط الغريب والمودة الخاصة التي نشأت بينهما، لأنهما تحبان الشخص نفسه، فهمت أن أيام أمي قد أصبحت معدودة، وشعرت بالإحباط والوحدة، وأقنعت نفسي، بأن كل هذه المشكلات التي تتعرض لها أمي ناتجة عن إصابتها بالحسد والعين.

في مرحلة اليأس يزداد إيمان الإنسان بربه، ويشعر بحاجته إليه، انتظرت انتهاء صلاة الجمعة، وبدأت أراقب خطيب الجامع، وبينما يهم بالمغادرة، لحقت به وقلت له: شيخنا إن أمي مريضة، وقد أصابتها عين، والدموع ترقرق في عيني، لاشك أنه أدرك فرط تأثري بموضوع والدتي، فرجع معي إلى الجامع، وجلسنا بزاويته، وأخذ يحدثني، إن

لكل إنسان أجلاً، فإذا حل أجله، فلن ينفعه أي شيء لإطالة عمره، ومن أصيب بالعين أو السحر فليس عليه أن يتداوى بالسحر، فإن الشر لا يزيل الشر، واقترح بأن أعالجها بقراءة أعظم سورة بالقرآن الكريم وهي الفاتحة، وأن عليَّ أن أعرف وأنا أقرأ هذه السورة، بأن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنه سبحانه وتعالى مصرف الأمور، فالرقية فيها خير ونفع عظيم، ولكنها قد لا تشفي المريض، إذا كان الله قد قدر موته، وشعرت براحة عميقة وأنا أغادر المسجد، ذهبت فوراً، وجلست إلى جانب أمي، وأنا أردد سورة الفاتحة، ولا أدري كم مرة قرأت هذه السورة، على الرغم من إدراكي بأن أمي تعاني السرطان، وليس من الإصابة بالعين.

في هذه الليلة تدهورت صحة أمي فجأة، وبينما نحن نجلس إلى جوارها، أخذت تنتابها نوبات من السعال الحاد، وأخذ الدم يخرج من فمها، فطلب أخي مني أن أغادر الغرفة، فرفضت ذلك، وانفجرت بالبكاء، إنني لا أريد أن أترك أمي لتغادرني، فما كان من أبي وناديا إلا أن سحباني خارج الغرفة، إنهم يريدونها أن تفارقنا بسلام، من دون أن تشعر بأنني متعلق بها، ولا أريد أن أتركها، ما يزيد من تعلقها بهذا العالم، ويسبب لها آلاماً كثيرة، وهي تبتعد عنا.

لقد ارتاحت من شقاء هذا العالم الذي لا ينتهي، ربما كانت دموعي هي آخر شيء شاهدته، وهي تعلن الرحيل عنا، لم أعد أجد لذة كعادتي بالعودة إلى البيت بعد انتهاء دوام المدرسة، إذ إنني أصبحت أجده فارغاً وبارداً، وازدادت زيارات عمتي لبيتنا في الفترة الأخيرة، من أجل أن تساعدنا على توضيبه، ولتقوم بتسلية أخيها بعد فقدانه لزوجته.

استأجر والدي خادمة لتحضر ثلاثة أيام بالأسبوع، لتساعدنا في تسيير أمور المنزل، وظلت ناديا تحضر إلى البيت عندما يكون لديها الوقت، لتساعدنا في تصريف أعمال البيت.

الفتور بدأ يقتل جميع علاقاتنا العاطفية، لم تعد أمي موجودة بالمنزل لتجمع شملنا، وبدأ أبي يخلق المشكلات بالبيت لي ولأخي سمير، ورددت ذلك في بادئ الأمر إلى حزنه العميق لفراق والدتي، ولكنني اكتشفت لاحقاً بأنه يحاول أن يقيم حاجزاً نفسياً بيننا، لأنني بعد فترة وجيزة سمعت عمتي وهي تتحدث، عن ضرورة زواجه من امرأة لتساعده على الاستمرار بحياته، وهي تقول: الحي أولى من الميت.

إن فكرة الزواج من امرأة تصغره بعشرين سنة أو أكثر، ربما كانت موجودة بعقله الباطن، حتى قبل أن تتوفى والدتي، كانت علاقته بوالدتي في السنوات الأخيرة يشوبها الملل والفتور، فبعد انقضاء ثلاثين سنة على زواجهما، لم يعد هناك أشياء وتجارب جديدة، ليعيشاها معاً، ولم تتحول علاقتهما إلى صداقة، وأصبحت أنا وأخي العامل الوحيد الذي يربطهما.

من الطبيعي عندما يبلغ الرجل منتصف الستينيات، ويشعر أن حياته على وشك الانتهاء، أن يفكر بأن يعود إلى الوراء، ويبدأ حياته من جديد مع امرأة صغيرة، إنه بذلك يجدد مشاعره وأحاسيسه، لكي تتماشى مع متطلبات الزوجة الجديدة، محاولاً أن يستمر بالتمثيل لإرضائها، حتى لا تشعر بفارق السنوات بينهما، والأخطر من ذلك أن عمتي نجحت في إقناعه، بأن عليه أن يتزوج من بنت صغيرة، وينجب

منها ولداً، مادام أنه قادر على القيام بواجباته الجنسية، وأن هناك ألف بنت صغيرة جاهزة للزواج، بما أنه يملك المنزل الذي نعيش فيه، إضافة إلى راتبه التقاعدي الذي يتقاضاه من الدولة، وهناك وارد صغير آخر من الأرض الزراعية التي ورثها أبي وأخوه وعمتي عن جدي، أما عمي فقد كان يعارض فكرة زواجه، وجاهد بأن يقنعه بأن زواجه من امرأة ثانية في هذه الظروف، سيدمّر عائلتنا، وينهي علاقته معنا.

بالنهاية اختارت عمتي لأبي زوجة مطلقة متوسطة الجمال، تصغره بحوالي خمس وعشرين سنة، ولا أدري من أين أتت بهذه المرأة، وكأنها تنتقم من أخي بهذه الزيجة، لأنه لم يتزوج ابنتها، وهمها أن توسوس بعقل أبي لتتم هذه الزيجة بسرعة، لكيلا تعطي الفرصة لأخي سمير وعمي لكي يعملا على إفشالها، لم أصدق نفسي، وأنا أشاهد أبي وهو مهتم بعروسه الجديدة، وكأنه طفل صغير، حصل لأول مرة في حياته على لعبة جديدة، الغريب في هذا الأمر، أنه نسي بسرعة أمي وفضلها، وأنكر هذه العشرة الطويلة التي استمرت لأكثر من ثلاثين سنة.

تم الزواج، وذهب أبي وعروسه إلى بيروت لقضاء شهر العسل، وعندما عادا إلى المنزل، ازداد شعوري بالغربة في هذا البيت، واقتنعت مع الأيام، أنه لم يعد بإمكاني الاستمرار بالحياة فيه، وأنا أشاهد امرأة ثانية، تأخذ مكان أمي، وأصبح التركيز على دراستي هو الحل الوحيد أمامي لمغادرة هذا المنزل بأقرب فرصة ممكنة، ولم يكن حال أبي أفضل بكثير من حالي.

بعد عودته من شهر العسل أصبح عصبي المزاج، وشاب علاقته مع زوجته بعض التوتر، وذكر لي أخي سمير أن الوالد طلب منه من دون أي شعور بالخجل أو مراعاة لمشاعره، بأن يحضر له علبة من هرمون الذكورة التستوسترون لإعطائه إياها بشكل حقن بالعضل لتحسين أدائه الجنسي، إنه يعشق هذه الزوجة الصغيرة، ولقد يدفعه شغفه بها إلى التضحية بنا من أجل إرضائها، وقال لي مازحاً بأنه فكر بأن يحضر له هرمون الإستروجين الأنثوي بدلاً من ذلك، ليزيد من اضطراباته النفسية، وليفضحه أمام زوجته الجديدة.

أقنعت نفسي بأن والدي لا يستحق الاحترام، وتذكرت بأنني أكرهه منذ صغري، لأنه كان يعامل والدتي معاملة سيئة، وهو لم يكن يتورع عن إهانتها أمامنا وأمام أهله، وكأنه يستمد شعوره برجولته من إذلالها، تصورت أن العناية الإلهية، قد انتقمت منه بإذلاله أمام زوجته الجديدة، وخطر لي بأن زوجته ستحاول أن تقنعه بأن يكتب حصة من البيت باسمها بحجة تأمين مستقبلها، لأنني لاحظت كيف أخذت تسيطر عليه، وتتملكه على طريقتها الخاصة.

إن تواتر الروتين اليومي بين الذهاب إلى المدرسة والعودة إلى البيت، وانعدام الفرص للتغيير، قد دفعاني إلى الشعور بالملل، وإن عدم انسجامي مع أخي زاد من تفاقم هذه المشكلة، فتملكتني الأفكار السوداء حول مستقبلي، فجعلت مني شخصاً سلبياً، ولم يكن هناك بالأفق ما يبشر بالخير، ليجعلني إيجابياً، ولو حتى ليوم واحد، لو أن ناديا كانت من نصيبي لتغيرت كل الأمور، وأصبح لي هدف في هذه الحياة، أسعى إلى تحقيقه، ولن أشعر بالضياع.

غالباً عندما أعود من المدرسة، أدخل إلى غرفتي، وأغلق الباب على نفسي، وأنفصل عن واقعي، وأبدأ بممارسة أحلام اليقظة، حيث أسيطر فيها على مجريات الأمور، أخترع أحداث القصة، وأخرجها بالشكل الذي يلائمني، لتصبح فيها ناديا زوجتي وأماً لأولادي، ثم يعتريني التعب من ممارسة هذه الأوهام، فأدفع هذه الأفكار عن رأسي، لأنها تعطيني الانطباع بأنني أرتكب خطأً بحق أخي، ما يجعلني أشعر بالذنب، ثم أعود إلى واقعي، وأتسلى بمراجعة واجباتي المدرسية، وأحياناً أجد نفسي مرغماً وأنا أفكر بنوع العلاقة الجنسية التي يقيمها أخي حالياً مع ناديا، فأطرد هذه الأفكار عن رأسي، لأنني أشعر أن فيها نوعاً من الخيانة الأخلاقية لشخصية ناديا.

أما أخي سمير، فيبدو لي أنه يستمتع بحياته اليومية، فها هو في السنة النهائية في كلية الطب، ويقضي معظم نهاره في التدريب في مستشفى الجامعة، وسيتخرج بعد عدة أشهر، ليحمل بكالوريوس بالطب العام، كنت أحاول أن أتجنب الحديث معه بخصوص ناديا، ولكنه ذكر لي مصادفة أن أهلها يضغطون عليه من أجل كتب الكتاب، وهو لا يريد أن يستعجل هذا الموضوع، حتى يقوم بتقديم الفحص في مادة الطب في القنصلية الأميركية، حتى إذا نجح في هذا الامتحان، فسيحصل على فيزا لمتابعة دراسته في أميركا، مسكينة ناديا إنها لم تكتشف حتى الآن أنه لا يمكن الوثوق به، وربما عندما تكتشف ذلك، يكون قد فات الأوان، إنها بنت ذكية، ولابدّ أنها لاحظت أنه ليس على استعداد لأن يبذل جهده من أجل إرضائها، لقد أفسدته أمي، وجعلته يعتقد أنه يستحق معاملة خاصة لمجرد أنه الأول في صفه.

ما زلت أذكر حتى هذه اللحظة، عندما تجرأت، ولمست يدها، وكيف تصرفت، ورفضت مبادرتي، وسحبت يدها، فتصورت حينها أنها صعبة الإرضاء، وتوقعت أن يكون لها معايير خاصة بالرجل الذي تريد أن ترتبط به، ثم استغربت كيف أنها قبلت بأن تكون خطيبة أخي الدكتور سمير، لعلها وقعت ضحية وسامته وشهادة الطب التي يحملها، وأشياء أخرى لا أعرفها في شخصية أخي.

الأمور في بيتنا لم تعد على ما يرام، شاهدت بعيني الاهتمام الخاص التي كانت توليه زوجة أبي إلى أخي سمير أثناء جلوسنا حول طاولة الطعام، لقطتها عدة مرات وهي تسرق النظرات السريعة إليه، وعندما يتكلم فإنها ترسم ابتسامة خفيفة على شفتيها، وتهز رأسها أثناء حديثه، وكأنها موافقة على كل كلمة يقولها، معتقدة بأنني ولد صغير، لا يمكنني فهم هذه الحركات.

تعوّد أبي أن يذهب في كل ليلة مبكراً إلى فراشه، وغالباً ما كنت أجلس أنا وأخي وزوجة أبي في غرفة الجلوس، نراقب شاشة التلفزيون، ونتابع المسلسلات التركية، في هذه الأثناء أجلس أراقبها، وهي تطيل النظر إليه بوقاحة غير عابئة بوجودي، وتداعب خصلات شعرها الأسود الطويل، وتدفعه إلى الوراء طوال الوقت، ولما كان يتكلم معها، فهي تحاول أن تميل برأسها نحوه، لتشعره بقربها منه، وتجيبه بصوت خافت، لتعطي الانطباع عن العلاقة الخاصة التي تجمعهما معاً، حركات بسيطة تستعملها لمحاولة إغرائه واستمالته إليها. في بعض المرات كنت أستمتع بهذا العرض الحي الذي يجري في غرفة الجلوس، وأشبع رغبة الانتقام والكراهية التي تتملكني نحو والدي،

الذي أوصلنا إلى هذا الوضع، لكنني بالوقت نفسه أشعر بالأسى نحو ناديا، كلما شاهدت نظراته الشهوانية نحو زوجة أبيه.

على الرغم من تظاهره بعدم اهتمامه بهذه الحركات التي تقوم بها، وعدم نيته في مجاراتها لتطوير هذه العلاقة، فقد كنت أشعر داخلياً بأن الأمور ستخرج بالنهاية عن إرادته، ويجد نفسه أسيراً لها، وأصبحت أحاول أن أبتعد بقدر الإمكان عن الجلوس معهما لمشاهدة المسلسلات التلفزيونية.

مضت الأيام، وقاربت السنة الدراسية على الانتهاء، وازداد ضغط أهل ناديا على أخي سمير لكتب الكتاب، راح أخي يماطل في هذا الموضوع، مدعياً بأن عليه أن يسافر إلى أميركا بنهاية العام الدراسي للتخصص، بينما من المفروض أن تبقى ناديا بالسنة القادمة في الكلية، لتحصل على شهادتها الجامعية، ولو أنها سافرت الآن معه، فستضيع عليها شهادة البكالوريوس بالصيدلة، وستخسر جميع سنوات دراستها، لذلك من الأفضل أن تبقى مخطوبة حتى تتخرج، وبعد ذلك يتزوجها، ثم تلحق به إلى أميركا.

إن فكرة زواجه بها الآن، ليأخذها معه لإتمام دراستها عملية مستحيلة، عند وصوله إلى أميركا سيلتحق بالعمل الليلي في أحد المستشفيات بصفة طبيب متمرن ومناوب، مقابل النوم والأكل داخل المستشفى الذي يعمل فيه، وسيحصل على راتب بسيط بالكاد يغطي مصاريفه الضرورية، وتعرف ناديا بالوقت نفسه أن أسرتها متوسطة الحال، وغير قادرة على تغطية مصاريفها الدراسية، كان رأي ناديا وأهلها أنه بغض النظر عن كل هذه

الأعذار، فإنه يجب كتب الكتاب فوراً، للتخلص من كلام الناس، إذ إن هناك مفاجآت كثيرة، قد تحدث بعد سفره وبقائه وحده لمدة سنة في أميركا.

أدركت ناديا متأخرة أن أخي لا يفكر إلا بمصالحه الخاصة، ربما وقع بحبها عندما شاهدها للمرة الأولى مع ابنة عمتي، إن نعومتها وجاذبيتها تفوحان بالمكان الذي تكون فيه مثل عطر شانيل، فانجذب جنسياً بسرعة نحوها، نظراً لطبيعة الكبت الجنسي الذي يعانيه جميع الشبان في هذا البلد، ويبدو أنه بعد خطبتها، حقق شعوره الذاتي بقدرته على الزواج من الفتاة التي تعجبه، إن عطر شانيل بعد فترة شهرين، أخذت تخف رائحته وطار بالهواء.

لم يتوقع أخي أنه يتعامل مع بنت شاطرة وذكية، لا يمكنه التلاعب معها، فهي تراقب خطواته، وتحصي عليه كل شاردة وواردة، وها هي تدفعه الآن بشدة إلى الزاوية ليتزوجها، بالمقابل لم يكن أخي بالشخص البسيط الذي يمكن لناديا أن تتلاعب به، فتذكر أخي قول نابليون بونابرت: في الحب لا يوجد أمام الرجل إلا طريقة واحدة لإحراز النصر، هي الفرار.

في إحدى الأمسيات جاء أخي إلى البيت ليخبرنا بأنه اتفق مع ناديا على إنهاء خطبتهما، لم أستغرب هذا الخبر، ولكني استغربت من طول هذه الفترة التي احتاجتها ناديا لاكتشاف حقيقته، في هذه الأوقات، لم يعد يهتم أحد منا بمشكلات الآخر، فلكل واحد منا بالبيت همٌّ يكفيه، ومنذ تلك الفترة لم أعد أشاهد ناديا، أو أسمع شيئاً عنها.

مضت الأيام وانتهت السنة الدراسية، وتقدم أخي إلى الفحص بالقنصلية الأميركية، ونجح كما كان متوقعاً، حاز الفيزا، وسافر إلى أميركا، على حين أنني نجحت في الثانوية العامة، والتحقت بالكلية العسكرية، واستمرت زوجة أبي بالحياة معه في منزله، لأنه لم يكن لديها خيار آخر، بعد حوالي سنتين تخرجت في الكلية الحربية، وأصبحت برتبة ملازم ثانٍ، بينما كنت في إجازة قصيرة، وأثناء جلوسي بجانب السائق في السرفيس، لمحت عن مسافة بعيدة عند موقف الباصات سيدة قصيرة، تنتظر السرفيس، عرفتها من شكلها من أكثر من مئتي متر، إنها ناديا، صعدت إلى السرفيس، وركبت بالمقعد الخلفي بجانب الشخصين الآخرين، لكنها لم تعرفني، إذ كنت مرتدياً بزتي وقبعتي العسكرية، خطر لي في هذه اللحظة أن ألتفت لأسلم عليها، ولأسألها عن أحوالها، وفيما إذا كانت قد تخرجت في كلية الصيدلية، وهل تزوجت أم إنها مازالت عزباء؟ لكنني ترددت في ذلك، ولم تعد لدي رغبة بأن أتكلم معها، وأن أعيش هذه التجربة المؤلمة من جديد، إضافة إلى أنني لم أجدها جذابة كما عرفتها، إنها أكبر مني بأربع سنوات، إنني أفكر الآن أن أتزوج ببنت تصغرني على الأقل بأربع سنوات، إن عواطفي نحوها قد ماتت منذ فترة طويلة، في الحقيقة منذ أن أصبحت ضابطاً، بدأت أعيش حياتي، وتخليت عن الأوهام.

المفاجأة

بعد تخرجي في كلية الحقوق، التحقت بوزارة الداخلية، وخضعت لدورة تدريبية في كلية الشرطة، تخرجت بعد سنة فيها برتبة ملازم أول، وكان عمري في ذلك الحين أربعة وعشرين عاماً، تمّ فرزي مباشرة بعد تخرجي إلى مخفر حي عرنوس كمساعد لرئيسه، يقع هذا المخفر بالقرب من الوسط التجاري لمدينة دمشق. بما أن خبرتي بالحياة وبمهام عملي الجديد محدودة، فأصبح كل همي أن أمضي ساعاتي بسلام، وأنا أعد الأيام حتى يحين وقت ترقيتي إلى رتبة نقيب، لذلك كنت أتحاشى الاصطدام مع رؤسائي، وحتى مع الأشخاص العاديين.

في إحدى الأمسيات، كنت مناوباً وحدي بالمخفر، رنّ جرس الهاتف، وكان المتصل بالمخفر طبيباً اسمه عماد، ذكر لي أن هناك سيدة متوفاة، وأنه جاء من عيادته بناء على طلب زوجها لإسعافها، فوجدها عند وصوله إلى منزلها قد فارقت الحياة، والآن يطلب منه زوجها إصدار شهادة وفاة، ليتمكن من دفنها وفقاً للأصول. طلب مني الحضور إلى منزلها القريب من مخفرنا، لما كنت وحيداً بالمخفر، لم أجد بداً من الذهاب. أخذت سيارة الجيب والرقيب المناوب، وذهبنا لملاقاة الطبيب، وصلنا إلى البناء، وكان يبدو قديماً ومتهالكاً، صعدنا الدرج إلى الطابق الأول، عند دخولنا البيت استقبلنا صاحبه بالترحاب، ولاحظت أن فرش البيت بسيط وغير مرتب، فأخذت الانطباع بأن صاحبه شخص عادي محدود الدخل.

لم أشعر بالارتياح من خلال النظر إلى وجهه المدور كالبيكار، لأنني بطبعي لا أثق بأصحاب الوجوه المدورة والعيون الجاحظة،

فخلال خبرتي السابقة بالتعامل معهم، لاحظت أنهم غير متعاونين وعصبيون، ويرتكبون كثيراً من الأخطاء بسبب انفعالاتهم الزائدة.

كرر الرجل أقواله بأن زوجته تعاني مرض القلب، وأنها أصيبت بنوبة قلبية خلال وجوده معها بالبيت، ما دفعه لاستدعاء الدكتور عماد، لأن عيادته قريبة من منزلهم، هنا تدخّل الطبيب، وذكر لي بأنه تردد في كتابة تقرير الوفاة، لأنه لاحظ كدمة خفيفة على رقبتها، أخذت أجول بنظري في أرجاء البيت، فلاحظت وجود فردة حذاء نسائي في غرفة الجلوس، ولما دخلنا غرفة النوم لتفقد المرحومة، وجدت الفردة الثانية قريبة من السرير الراقدة عليه، اقتربت منها، فلفت انتباهي أنها بكامل زينتها، ولم أستطع تفسير السبب الذي دفعها لتضع قرطاً ذهبياً صغيراً في أذنها اليسرى، بينما لم تكن الفردة الثانية من القرط موجودة على أذنها اليمنى، كما أنها كانت بكامل زينتها، وهي مرتدية جوارب قطنية سميكة، وكأنها كانت تهمُّ بمغادرة البيت.

تفحصت رقبة الضحية، فلاحظت وجود علامات حمراء خفيفة جداً عليها، وخطر لي حسب ما قرأت بالكتب، أن زوجها ربما ليزيد من متعتها خلال ممارستهما العملية الجنسية، قام بالضغط قليلاً على رقبتها، ليقلل من تزويد دماغها بالأوكسجين، ولكنه تمادى، من دون أن يعرف حدود هذه اللعبة، ما أوقف تزويد الدماغ كلياً بالأوكسجين، فتوفيت على الفور، إنه نوع من الشذوذ الجنسي لأطباء علم النفس.

لم يكن هناك ما يثير الشك سوى هذه العلامات والإيحاءات

البسيطة غير الظاهرة بشكل واضح، التي أثارت الريبة في نفسي، وأخذ زوجها يلح على الطبيب لكتابة شهادة الوفاة، مذكراً إياه بالمقولة الإسلامية: إكرام الميت دفنه.

بدا لي أن الطبيب متردد في كتابة التقرير، ولكي أقطع الطريق عليه، أخذت هاتفي الجوال، وطلبت سيارة الإسعاف لنقل الجثة إلى مستشفى الجامعة لتشريحها، وهنا انبرى زوجها ليقول لي: إنه لن يسمح بتشريح جثة زوجته، وأخذ الهاتف، واتصل على ذمته بضابط مسؤول بالجيش ليخبره بالحادثة، وأعلمه بأن هناك ملازم أول بالشرطة لا علاقة له بالموضوع، يريد إرسال الجثة إلى المشفى لتشريحها، لبيان سبب الوفاة، وزاد على القصة، بأن هناك بعض الموظفين بالمشرحة، يقومون بسرقة الأعضاء البشرية من الجثث، لبيعها للمرضى المحتاجين إليها، وكلما ازداد عناده لفكرة نقل الجثة إلى مستشفى الجامعة، ازدادت شكوكي فيه، ولكي أدخل الطمأنينة إلى قلبه، أكدت له أنني على ثقة بأنها ماتت بالجلطة القلبية، لكن هذه إجراءات روتينية، تعلمناها بمدرسة الشرطة، أخذ يهددني ويحملني المسؤولية الكاملة عن نقلها، وأن عليَّ أن أتحمّل جميع المصاريف المترتبة عن هذه العملية. بالحقيقة شعرت بداخلي بالخوف من أن صلاحياتي قد لا تسمح لي باتخاذ هذا القرار، فكرت بماذا سيكون موقفي أمام رئيسي، إذا تبين أنها ماتت بالجلطة القلبية. لم تأتِ السيارة إلا بعد ساعة، مرت عليَّ وكأنها يوم كامل.

عدت إلى المخفر، واتصلت مباشرة بالنقيب المسؤول عني، فما

كان منه إلا أن لامني لأنني لم استدعِ القاضي الشرعي إلى موقع الحادث، وأنني تصرفت من تلقاء نفسي، من دون الرجوع إليه، وطلب مني تحضير تقرير لرفعه إلى فرع الأدلة الجنائية.

لم أدرِ ماذا أفعل في تلك الليلة، جلست وكتبت تقريراً، شرحت فيه ملابسات القضية، عندما انتهيت منه شعرت بنوع من راحة الضمير. عليَّ الآن أن أواجه مشكلتي بشجاعة، وأنه لن يصيبني إلا ما كتبه الله لي، كل ما يمكنني أن أفعله هو انتظار التقرير المخبري الصادر عن مستشفى الجامعة.

عند الظهر جاء التقرير مبيناً أن المغدورة قد ماتت خنقاً، فانتابني الخجل من هذه السعادة التي غمرتني، وحاولت إخفاءها عن مديري، إنني تخلصت من هذه المسؤولية، وأثبت له كفاءتي في متابعة مهمتي، من المفروض أن تكون وظيفتي قد انتهت عند هذا الحد، وأن تتابع الشعبة الجنائية موضوع الجريمة، لكن العقيد مدير الشعبة طلب من رئيسي أن أتابع ملابسات هذه القضية مع أفراد قسمه، لأنني كنت أول الواصلين إلى موقع الجريمة.

دفعتني هذه الحادثة لاستعادة ثقتي بنفسي، وأعطاني هذا التقرير شعوراً بالرضا عن الذات، كنت قد افتقدته منذ فترة طويلة، بعد سلسلة لا تنتهي من الفشل في حياتي، ابتدأت بمجموع علاماتي بالثانوية العامة التي لم تؤهلني لدخول كلية الطب، ما أجبرتني على دخول كلية الحقوق، ومات حلمي بالزواج بابنة خالتي مع موت حلمي بأن أكون طبيباً، إنها الآن فرصة سانحة لأثبت للآخرين أنني مازلت شخصاً مهماً، وأنه يمكنني التحكم بحياة الآخرين.

بعد انتهاء جنازتها مباشرة، قام قسم التحقيقات الجنائية بإلقاء القبض على زوجها هشام، واقتادوه إلى فرع التحقيقات بتهمة قتل زوجته، كما طلب مني العقيد أن أتابع هذه القضية مع الملازم عزام من الشرطة الجنائية، أحضرنا هشام إلى غرفة التحقيقات، وبدأنا جلسة الاستجواب، عندما نظرت للمرة الأولى إلى وجه الملازم عزام، شعرت بالارتياح، لأنني أؤمن بأن معرفة شخصية الفرد يمكن قراءتها من الشكل العام لوجهه، وأن صفاته يمكن اكتشافها من خلال النظر إلى وجهه الجانبي، ومن خلال قراءتي لوجه عزام الطويل أدركت أنه شخص مثالي، يؤمن بالقيم الأخلاقية، وهو حريص وطموح، ويتطلع دائماً إلى تحسين وضعه المادي.

حاولنا بالبداية أن نقنع هشام بالاعتراف، بأنه أقدم على قتل زوجته تحت تأثير نوبة من الغضب، جعلته غير قادر على السيطرة على سلوكه، ما سينجيه هذا الاعتراف من حبل المشنقة، وعدناه بأننا سنقوم بمساعدته أثناء المحكمة فيما إذا وافق على الإدلاء بهذا الاعتراف خطياً، لكنه رفض الاعتراف بخنقها، وحاول أن يقنعنا بأنها ربما اصطدمت بحافة الطاولة الخشبية الصغيرة الموضوعة بجانب السرير أثناء سقوطها على الأرض عندما فاجأتها النوبة القلبية، كلنا نعرف بأن هذه الرواية مفككة وغير قابلة للتصديق، ولكنه ظل يصر ويتمسك بها، حاولت أن أقنعه بروايتي الأولى، بأنه قام بخنق زوجته عن غير قصد أثناء ممارستهما العلاقة الجنسية، ولكنه نفى بشدة هذه التهمة، فما كان مني إلا أن ذهبت بنفسي إلى المستشفى لأتأكد من عدم وجود سائل منوي في جسدها يعود إليه،

لأتمكن من إثبات نظريتي، لكي أسحبه إلى القضاء بهذه التهمة، ولشدة استغرابي، أفادني الطبيب الذي أشرف على تشريح الجثة بعدم وجود أي سائل منوي.

هنا شعرت بأن الموضوع قد عاد إلى الصفر، يجب عليَّ أن أحصل منه على اعتراف خطي بأنه قد قام بقتل زوجته خلال اليومين القادمين. إن فشلي يعني أن مستقبلي المهني في قسم الشرطة قد يتعرض للخطر، لأنني لم أتخذ الاحتياطات اللازمة عند دخولي مسرح الجريمة للمحافظة عليه، ومنع أي تلاعب بموجوداته، ولم أستدعِ الطبيب الشرعي لفحص الجثة في موقع الجريمة، كما هو المتبع عادةً في مثل هذه الحالات، لقد ارتبكت، واتخذت قراراً مستعجلاً بنقل الجثة إلى المشرحة، وربما عليَّ الآن أن أدفع ثمن هذا القرار الخاطئ، بعد أن سحبت تهمتي الأولى التي كنت قد وجهتها لهشام.

استعاد توازنه، وأصبح يتصور نفسه بأنه قادر على مواجهتنا وهزيمتنا، هنا اتبع صديقي الطريقة التقليدية التي تعودنا على استعمالها، إذ طلب من العريف الذي يشرف على توقيفه، بأن يحاول أن يمنعه من النوم لمدة أربع وعشرين ساعة قبل استدعائنا له لجلسة التحقيق. وبالفعل لما جلس أمامي خلف الطاولة، كان التعب بادياً على وجهه، حاولنا أن نقنعه من جديد بضرورة الاعتراف بجريمته، لكي يفلت من حبل المشنقة، وأمضينا أكثر من ساعتين في محاولاتنا، وكلما ازداد ضغطنا عليه، ازداد عناداً في مواجهتنا، حتى عجزنا عن إقناعه للاعتراف بجريمته،

لقد وضعناه في حالة من التشنج نتيجة لتصرفاتنا الخاطئة، ما زاد في عناده، بدلاً من أن نضعه في حالة استرخاء، لنترك العنان لعقله الباطن، ليتعاون معنا.

أدركت في هذه اللحظة، أن عليَّ إيجاد طريقة ثانية جديدة لتوريطه للاعتراف بجريمته. كنت قد قرأت عندما كنت طالباً في كلية الحقوق عن بعض الأدوية المهدئة التي يستعملها المحققون لانتزاع الاعترافات من المجرمين، وعلى الرغم من معرفتي بأن هذه الطريقة غير مسموح باستعمالها قانونياً، ولا تأخذ بها جميع المحاكم بالعالم، لما لها من آثار جانبية، قد تؤدي إلى هبوط حاد في الضغط الشرياني أثناء الاستجواب، ومن المحتمل أن تؤدي إلى وفاة المتهم، لكنني الآن لم أعد أبالي بحياة المتهم، أصبح كل همي أن أنقذ مستقبلي في سلك الشرطة.

رجعت إلى الإنترنت، وبدأت بقراءة الأدوية التي يستخدمها الأطباء لإجراء التخدير العام على المرضى، والتي تعطى على شكل حقن بالوريد أو بالعضل، على الرغم من معرفتي بأن استخدام التخدير العام بطريق الحقن بجرعات عالية من أجل إحداث التخدير الكامل عملية خطرة، وأنها قد تحدث تأثيرات سمّية تؤدي إلى الوفاة في بعض الأحيان، إضافة إلى أن استعمالها بوساطة الحقن يجعل المريض يتخدّر بسرعة كبيرة، ما سيجعل من الصعب عليَّ التحكم بمجرى ومستوى التخدير.

بالماضي استخدمت هذه الطريقة لانتزاع الاعترافات في السجون الأميركية حتى مطلع التسعينيات، قبل أن يصدر قرار نهائي من

المحاكم، يمنع استخدامها نتيجة لوفاة أحد السجناء تحت تأثير التخدير العام أثناء جلسة الاستجواب.

خطر على بالي استخدام حبوب ال إس دي، التي كان يعطيها الأطباء في مستشفيات الأمراض العقلية للمريض قبل خضوعه لجلسة التحليل النفسي، إن استخدامي لهذه الحبوب قد يستغرق وقتاً طويلاً، لكي أحصل على الاعتراف من هشام، إن الوقت قد بدأ ينفد مني، ولم يعد أمامي إلا المخاطرة باستخدام التخدير العام، وتسجيل أقوال هشام على المسجلة تحت تأثير البنج، لتكون اعترافاً عملياً منه على ارتكاب جريمته.

لابدّ الآن من مفاتحة شريكي الملازم عزام، بأنني قد اتخذت قراري، باللجوء إلى إعطاء المتهم حقنة مخدرة أثناء وجوده بالجلسة معنا أثناء التحقيق بالقسم، عندما عرضت عليه الفكرة في بادئ الأمر، ظنّ أنها مزحة، ولكنه عندما نظر إلى تقاطيع وجهي، أدرك أني أعني كل كلمة أقولها، حاول أن يقنعني بجنون هذه الفكرة، وأنه شخص متزوج، وعنده طفلة صغيرة، ولا يمكنه أن يتحمل نتائجها، طلبت منه أن يتغيب في اليوم التالي عن الحضور إلى القسم، ما سيعطيني الفرصة للقيام بتخديره بنفسي، وسأتحمل أنا وحدي مسؤولية عملي.

بالمساء عند مغادرتي القسم مررت على صيدلية أعرف صاحبها، وطلبت منه دواءً من مركبات سكوبولامين، وشرح لي الصيدلي بأن هذا الدواء خطِر، وهو قادر على إحداث أنواع من الهلوسة القوية والخطِرة، ولكني أصررت على أخذ الدواء، فلم يستطع أن يرفض

طلبي. هناك خوف عميق عند الأشخاص المدنيين من ضباط الشرطة، كما أنه يعرف أن بإسدائه اليوم لي هذا المعروف، فإن ذلك سيساعده على أن يطلب مني خدمة أخرى رداً للجميل، عندما يحتاجها في المستقبل.

ذهبت إلى بيتي، وأنا أفكر طوال الليل ماذا سيحدث إذا ساءت الأمور بهشام تحت تأثير البنج العام، إنني وحدي سأتحمل عواقب هذا العمل، بالحقيقة لم يعد هناك خيار أمامي، إن مسلسل الفشل في حياتي يجب أن يتوقف.

في اليوم التالي لم يحضر الملازم عزام إلى جلسة التحقيق، واستدعيت المتهم هشام إلى غرفة التحقيق، وأجلسته إلى يساري على الكرسي المجاور لي، بادرته بالحديث، بأن الطبيب الشرعي قد أثبت صحة روايته، وتمّ إسقاط التهمة الموجهة إليه، وتمَّ إغلاق المحضر، ولذلك لم يحضر الملازم عزام اليوم إلى جلسة التحقيق، وأنه أصبح بريئاً، ويمكنه الآن مغادرة القسم، فشعر بالاطمئنان، وبينما هو يستجمع قواه المنهارة لمغادرة الغرفة، مددت يدي اليسرى بحركة مباغتة، ووضعتها على كتفه الأيسر، ووقفت على قدمي مستغلاً وزني للضغط عليه بقوة، لأثبته على الكرسي، ثم أخرجت بيدي اليمنى الإبرة المخبأة تحت محضر الجلسات، وحقنته بها مخترقة قميصه في أعلى كتفه الأيمن.

لم يستوعب معنى هذه الحركة في بادئ الأمر، ولعله ظنها أنها نوع من التعذيب الذي أستعمله للانتقام منه، لأنني لم أستطع إثبات التهمة عليه، ثم أكملت عملية تثبيته على الكرسي ضاغطاً

عليه بكل قوتي لمدة عدة دقائق، بدأ بالصراخ، وحاول أن يقف على قدميه، ليمنعني من إكمال هذه العملية، لكن أحداً من الحراس لم يأبه لصوت صراخه، وبعدها بدأت أشعر بأن قواه بدأت تخور، حِينئذٍ رفعته من على الكرسي، ومددته على طاولة المكتب، وتناولت المسجلة وشغلتها، إني أعرف أن تأثير المخدر العام سريع جداً، ولكنني أعرف أيضاً أن مدة تخديره قصيرة، ولن تزيد على نصف ساعة، وبعدها سيستيقظ هشام، إن الوقت يداهمني بسرعة، وهناك كثير من الأسئلة التي يجب أن أحصل على إجابتها في هذه المهلة القصيرة.

كما يعرف الجميع، أن الدماغ ليس العقل، ولكنه أداة يستعملها العقل، وأن مادة البنج لها تأثير مباشر في الدماغ، لتجعله يتحرر من قبضة صاحبه، وينطلق اللاوعي للتعبير عن ذاته، بدأ وعي هشام يتلاشى رويداً رويداً، ودخل بحالة تشبه الحلم، وانفصل عن الواقع، وأصبحت الرؤية لديه غير واضحة، إنني مدرك بأنه عليَّ الاستمرار بالكلام، حتى لا أفقده، وإنه يجب إطالة الحديث معه خلال الثلاثين دقيقة القادمة، من خلال توجيه أسئلتي المباشرة إليه، للحصول على أكبر كمية ممكنة من المعلومات.

بادرته بالسؤال عن علاقته بزوجته، وبدأ يهمهم بكلمات مفهومة وغير مفهومة، إنني أحاول أن أوجهه ليخبرني بأشياء يعرفها عقله الباطن، وما كان ليقولها لو كان في كامل وعيه.

باشر بالحديث عن أبيه، وكيف كان يضربه عندما كان ولداً صغيراً، تركته يتابع سرد حديثه، لكيلا أقطع حبل التواصل بيننا، على

الرغم من إدراكي بأن الوقت يمر بسرعة، وليس هناك مجال لاستعادة ماضي طفولته. وكررت سؤالي عن زوجته، أخذ يهذي من جديد، وهو يتكلم عنها، وعن علاقاته الجنسية معها، واشتكى منها لاحتقارها له، إنه مازال موظفاً صغيراً، وهي تساهم بمصروف البيت من راتب وظيفتها الذي تتقاضاه كمدرسة للغة الفرنسية في المداس الثانوية.

تابع هذيانه وهو يروي صوراً يشاهدها، ولا أدري فيما إذا كانت واقعية أم غير واقعية عن علاقاته معها، ويتكلم بأشياء قد تكون مخبأة بعقله الباطن، إنها أسرار حميمة، لا تفيد مسار التحقيق.

رجعت من جديد وأنا أحاول أن أقوده ليتكلم عن مرحلة وفاة زوجته. من المعروف أن هشام تحت البنج قد يتصور أشياء غير موجودة في عالم الحقيقة، وبعضها مجرد أماني، كان يود لو أنها تحققت في الواقع، إذ إنه من الصعوبة عليه أن يسيطر على خياله، وهو في هذه الحالة من هذا الهذيان. هذا هو السبب الذي دفع بعض المحاكم لعدم قبول اعترافات المتهمين، وهم تحت تأثير التخدير العام.

إن هشام الآن تحت تأثير البنج، وهو شخص آخر، مشلول وغير قادر على الحركة والتفكير السليم، فلا يمكن أن يكون كل ما يقوله صحيحاً، أدركت بأن هشام يحاول أن يهرب من سؤالي، عاد من جديد للتكلم عن طفولته، الوقت يمرّ بسرعة، وأنا أكاد أخسر فرصتي الوحيدة للإيقاع به، عدت بالكلام من جديد إلى موضوع زوجته، وتركت له عنان الحديث.

ذكر لي أنه بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة، توظف في مديرية الأحوال المدنية، لمساعدة أبيه في إعالة أسرته، التحق بالوقت نفسه بكلية الحقوق، ليتخرج فيها بعد أربع سنوات، بدأت أمه تبحث له عن عروس، بالنهاية خطبت له زوجته الحالية الحاصلة على شهادة جامعية باللغة الفرنسية، اقتنع بالزواج منها، على الرغم من أن شكلها لم يكن يجذبه جنسياً، لكنه طمع في راتبها الذي سيساعده على فتح البيت ودفع إيجار الشقة المتواضعة التي سيعيشان فيها.

أثناء فترة الخطبة اجتمع بأختها ناديا التي تكبرها بعامين، والتقت عيونهما معاً لأول مرة، وتحرك جسده كله باتجاهها، وأحس بأنه يعرفها منذ فترة طويلة، وأطال التحديق في عينيها العسليتين، وتصور أن حزن العالم كله موجود فيهما، فبادلته نظرة سريعة، ثم نظرت إلى الأسفل، وقد رسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها، فسَّرها بأنها إشارة منها، وبأنها تبادله الإعجاب، وتكنّ له الشعور نفسه. فكّر أن يترك خطيبته، ثم أن يتقدم لخطبة أختها ناديا، لقد اكتشف بعد فوات الأوان أن ناديا هي حبه الحقيقي، فاتصل معها بالهاتف، وتواعدا على أن يلتقيا في إحدى الحدائق العامة، لكيلا يلفتا النظر إليهما.

شجعته بدوري على أن يتابع سرد هذه الهلوسات، لأنني أدركت أنها ربما تضيء لي الطريق حول مسار هذه الجريمة، إنه يتذكر الأحداث بالتفاصيل الدقيقة المحفوظة في اللاوعي، وهو يجد لذةً في سردها ليعيشها من جديد، من دون أن يشعر بالخجل منها،

لكن ناديا أفهمته بأن أمها وأباها لن يسمحا له بأن يترك أختها ليتزوجها، واعترفت له بأنها تبادله الحب منذ اللحظة الأولى التي التقيا فيها معاً.

إن عليهما الآن أن يفكرا بطريقة لمغادرة هذا البلد إلى أوروبا، من أجل أن يتزوجا، ويعيشا معاً. لكن.. هناك فرق شاسع بين الأمنيات آلتي يحلمان بتحقيقها، وبين الواقع الذي يعيشان به، تبين لهما استحالة تنفيذ هذه الفكرة، كان من المفروض أن ينسحب من هذه الزيجة، وينتهي الأمر عند هذا الحد، ولكن رغبته في أن يستمر بلقاء ناديا منعته من ذلك، وكلما شاهد ناديا وسمع بحة صوتها ازداد تعلقه بها.

تحدث عن زيارته لمنزل أهل زوجته، عندما كانت ناديا وحدها في المنزل، وعندما قدمت له فنجان القهوة، أمسك بيدها، وأقنعها أنها هي التي ستكون فعلاً زوجته بالمستقبل، وظل يضغط عليها، ويوعدها بالزواج، حتى استسلمت له، وبدأت علاقة حبهما.

وجدت ناديا نفسها مرغمة لتنفيذ رغباته الجنسية خوفاً من أن يتركها وحدها، وألا يتزوجها، إنها محاولة يائسة لإعطائه الجنس للاحتفاظ به، لكي ينفذ وعده ويتزوجها بالمستقبل.

هنا حاول أن يتوقف عن الحديث مرة ثانية، ليعود إلى الحديث عن أبيه وعن طفولته، في هذه اللحظة خفت أن أفقد أعصابي، وأن أجد نفسي لم أعد قادراً على مسايرته، وتنقطع صلتي معه، إنه يحاول أن يهرب مني، ربما لأنه كان خائفاً من أن يكشف التخدير عن القسم المجهول من اللاوعي بخصوص وفاة زوجته، فرفضت

الاستماع إليه، وذكرته مرة ثانية بحبيبته ناديا، إنه يحاول التكتم عن أسراره الخطِرة، إلا أن اللاوعي قد تحرر بعد مضي أكثر من عشرين دقيقة من سيطرة هشام بفضل تأثير المخدر، بدأت جميع الحوادث المهمة القديمة المتراكمة في اللاشعور تعبر عن ذاتها.

عدت أشجعه على أن يستمر بالكلام، وأطمئنه، وأقنعه بأنني أقف إلى جانبه، وأنني أتعاطف معه حول علاقته بناديا، لكي يستمر بعدم السيطرة على عقله اللاواعي، أعدت عليه السؤال من جديد حول وفاة زوجته، فتابع حديثه: إنه بينما كان مع ناديا، يتبادلان الحب في غرفة النوم، بعد أن ذهبت زوجته لزيارة بيت أهلها، ولا يدري كيف عادت فجأة بعد فترة قصيرة من مغادرتها المنزل، لتُفاجأ بوجوده مع أختها على فراشها، من هول هذه الصدمة، لم يعرف كيف يتصرف، ولم تعطه المجال ليشرح لها مشاعره نحو ناديا، بدأت بالصراخ، وهرعت إلى الهاتف للاتصال بأبيها، لتخبره عما يجري في غرفة نومها، ركض خلفها، وهو يحاول أن يبعدها عن الهاتف ليهدئها، قبل أن تتسرع في إخبار أهلها، وبينما هو يشدها ليبعدها عن الهاتف، بدأت تصرخ مولولةً، واتجهت نحو باب البيت، لتجمع الجيران في بيته، وتفضحه أمامهم، لم يكن أمامه إلا أن يسحبها من أمام الباب إلى داخل المنزل، وهو يضغط على فمها، ليوقفها عن الصراخ، لكنها كانت تعانده، وترفض التوقف محاولةً إبعاده عنها، ولا يعرف ماذا حدث، ولم يجد نفسه إلا وهو مرغم على أن يضغط على رقبتها، ليوقفها عن الصراخ، واستمر بكتم صوتها، حتى أصبحت جثة هامدة بين يديه.

طلب من ناديا مغادرة المنزل مباشرةً، ثم خلع ملابس زوجته الخارجية على عجل، وألبسها قميص نومها، ومددها على الفراش، أخذ الهاتف واتصل بالطبيب عماد، طالباً حضوره إلى المنزل، بأن زوجته أصيبت بجلطة قلبية، معتقداً أن عماد طبيب عام وغير اختصاصي، ولن يكتشف سبب موتها الحقيقي، وسيكون من السهل الحصول منه على وثيقة وفاة لزوجته.

مضى على بداية إبرة التخدير أكثر من نصف ساعة، وأخذ تأثير المواد المخدرة يتلاشى، وأصيب هشام بمرحلة من الهذيان التي تترافق عادةً مع دخول المريض في مرحلة الإنعاش، ربما شاهد صورة زوجته، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بين يديه، فأخذ يبكي بصوت عالٍ، ويتكلم بأشياء غير مفهومة، كانت مخبأة في عقله الباطن.

ألقيت بكامل ثقلي على جسمه الممدد على الطاولة، وحاولت تثبيته عليها، عندما بدأ يرتعش، وهو يستعيد وعيه، ودامت هذه الحركات لفترة قصيرة، ثم فتح عينيه بتثاقل، ولا أدري فيما إذا أدرك في تلك اللحظة أنه كان قد ذهب في رحلة طويلة تحت تأثير هذه الإبرة المخدرة، وأنه شاهد هذا الحلم الطويل أمام عينيه خلال وصفه أحداث هذه القصة، حيث إن انقياده الأعمى نحو حبه لناديا لإشباع رغباته الجنسية قد دمّر كل شيء في حياته.

إن لحظات الإنعاش الأخيرة فجرت السر الذي كان يحاول إخفاءه عن الجميع، إن هذا الاعتراف الذي أدلى به هشام في حالة اللاوعي، سيقود إلى كثير من المشكلات العائلية بالمستقبل،

لقد تمكنت هذه الإبرة الصغيرة من اكتشاف القسم المجهول من شخصية هشام.

استيقظ هشام وهو محطم وغير قادر على الحركة، واستدعيت العريف المسؤول عنه، وتساعدنا معاً لحمله إلى زنزانته، وهو مازال شبه نائم، أجلسناه بلطف على فرشته الممددة بأرضية غرفة الزنزانة، وبقيت بالمكتب لأكثر من ساعتين، لأطمئن على هشام، خائفاً من أن ينخفض ضغطه، ومن ثمَّ يتوقف قلبه عن الخفقان، بعدها أخذت آلة التسجيل، وانطلقت إلى بيتي، وأخذت تغمرني سعادة كبيرة، لأنني قمت باختراق كبير في تحقيقاتي الخاصة، لحل هذا الموضوع، قد يعجز عنه أكبر ضابط، من خلال التحقيقات في قسم الأدلة الجنائية.

في اليوم التالي ذهبت إلى المركز، وجلست أنا والملازم عزام خلف طاولة التحقيق، واستدعينا هشام لمتابعة التحقيقات معه، أجلسته مواجهي، ولم أنطق بكلمة واحدة، وأدرت آلة التسجيل، ونظرت إلى وجهه، وقد ظهرت بوادر الدهشة عليه، وهو يستمع إلى صوته، لم أكن أدري فيما إذا كان قد استوعب حتى الآن ماذا يجري حوله، وعندما وصلنا إلى المقطع المتعلق بإسكات زوجته، أخذ يجهش في البكاء، ولم يعلق بكلمة واحدة عن هذا التسجيل، هنا تركت الغرفة بدوري، لأتركه مع الملازم عزام، ولأفسح المجال لعزام، ليتحدث معه على انفراد، ويحاول أن يعطيه الانطباع بأنه بعكسي، فهو الملازم الطيب الذي يتفهمه، ويقف إلى جانبه أثناء التحقيق، فطلب منه عزام أن يعترف خطياً بجريمته من تلقاء نفسه، لكي يحصل على

عقوبة مخففة عن الإعدام، سأله هشام أن يعطيه فترة يوم، ليفكر في هذا الاقتراح.

في منتصف تلك الليلة، اتصل معي العريف المناوب، ليخبرني بأن هشام منذ ساعتين قد شنق نفسه في غرفته بالحجز الانفرادي مستعملاً حزام بنطاله، وأن سيادة العقيد يريدني أن أحضر فوراً إلى مكتبه، أخذت سيارة تاكسي ومعي شريط التسجيل متجهاً إلى مبنى المركز، تتقاذفني الأفكار، وينتابني القلق، وأنا أرتّب تسلسل أفكاري، لأشرح للعقيد كيف تطورت مجريات التحقيق، مدركاً بأن مستقبلي أصبح كله يتوقف على هذا الاجتماع.

بينما كنت أنظر من نافذة السيارة، وهي تنساب بالشوارع المظلمة في هدوء الليل، شعرت بالشفقة لأول مرة على هشام، وتصورت مقدار حبه لناديا، لدرجة أنه فضَّل فيها أن يقدم على الانتحار، لكي يجنبها الفضيحة والجرجرة إلى المحاكم، وسرح بي خيالي إلى التفكير بعلاقة ناديا بأختها، لاشكّ أن موافقة أبيها على أن تتزوج أختها الصغرى قبلها، جعلها تفقد ثقتها بنفسها، وتكنّ لأختها الكراهية والحقد في الوقت نفسه، ولاسيما أن ناديا تعرف بقرارة نفسها، بأنها أجمل بكثير منها.

لم يراعِ أبوها أنها أصبحت في الثلاثين من عمرها، وأن قطار الزواج بدأ يفوتها، كان عليه أن يرفض زواج أختها الصغرى قبلها، كما جرت العادة عند أكثر العائلات الدمشقية، إنها بدأت تشعر بتحسسها من هذا الموضوع، كما أنها شاهدت ولمست إعجاب هشام بجمالها، إنها تعتقد بأن أختها قد حصلت على ما كانت

تستحقه، ابتسم الحظ لأختها، وتفوقت مدرسياً عليها، وحصلت على وظيفة وعريس، إن عاطفتها الأخوية نحوها، قد انقلبت إلى مشاعر عدائية كامنة، تغذيها الغيرة والحقد، إنها نتيجة لطبيعة الصراع في هذه الحياة، عليها الآن أن تثأر من أختها، وتحصل على هشام، ليكون زوجها بالمستقبل.

وصلت التاكسي إلى المركز، ونزلت متجهاً إلى مكتب سيادة العقيد، توقعت أنه سيكون هناك بعض الخلافات، لكنني لست أنا من سيبدأ الحديث، حتى أعرف مقدار المعلومات المتوافرة لديه، دخلت المكتب وأديت التحية العسكرية، فطلب مني الجلوس على الكنبة الموجودة أمامه إلى جانب الملازم عزام، شعرت من الجو حينها، بأن الملازم عزام أخبره بوجود شريط تسجيل لاعترافات هشام بارتكاب الجريمة، فأخرجت من جيبي شريط الكاسيت، ووضعته على طاولته، فأخذه وهو يدخن سيجارته بهدوء، من دون أن ينبس بكلمة، ووضعه في المسجل الصغير الموضوع على طرف مكتبه، وأخذ ينصت بتمعن إلى صوت هشام على الشريط، وكنت أراقب بطرف عيني تقاطيع وجهه القاسي التي لم تتغير ملامحه أثناء سماعه لصوت هشام.

لاشكّ أنه بخبرته الطويلة قد لاحظ أن صوت هشام لم يكن طبيعياً، ولاحظ كلماته المطاطية، وهي تخرج من فمه، وأحسَّ بالجمل المتقطّعة والأفكار غير المترابطة في حديثه.

التفت إليَّ وسألني: هل أعطيته حبوب هلوسة أثناء التحقيق؟ تمالكت نفسي، ولم يعد أمامي إلا أن أجيبه بنعم. خيَّم السكون

المطلق على المكان لأكثر من دقيقة، ثم سحب الشريط من علبته البلاستيكية، ووضعه داخل منفضة السجائر الكبيرة الموجودة أمامه، وقرّب منه سيجارته التي يدخنها، فاشتعل الشريط بسرعة كبيرة، وانتبهت في هذه اللحظة، بأنه يحاول أن يحبس دموعه، شعرت بهذه اللحظة بشهامة هذا الرجل الذي يخفي طيبته خلف وجهه القاسي وكلامه الجاف قائلاً: إن القاتل قد مات، ولقي جزاءه في الدنيا، أما الحساب الحقيقي فهو عند رب العالمين، إن إحالة هذا الموضوع إلى المحكمة لن يفيد إلا بتدمير عائلة هشام وعائلة زوجته... ولا شك أن عند كل عيلة منهما بنات مستورات في بيوتهن... ولا داعي لخربان البيوت نتيجة لخطأ هشام وناديا، لا نريد أن يؤدي هذا الخطأ إلى سلسلة من الأخطاء، تؤدي بدورها إلى دمار عائلات مستورة، ليس لها ذنب في هذا الموضوع، لذا آمركم بأن تنسوا قصة هذا الشريط، وأنا أتحمل مسؤوليته.

خرج الملازم عزام، وبينما أنا بطريقي لمغادرة مكتبه، التفت إليَّ قائلاً: حضّر حالك، لأنني سأطلب نقلك من مخفر عرنوس إلى فرع الشعبة الجنائية، أنت شابٌّ ذكي، وحرام أن تمضي وقتك في حلّ المشكلات البسيطة بالمخافر.. أديت له التحية العسكرية، وغادرت مكتبه، وأنا أشعر أنني استعدت ثقتي بنفسي بشكل كامل مرة ثانية، وأنا على أبواب أن أفتح صفحة جديدة في حياتي.

المعسوسة

الفشل المستمر دفع سمير إلى الاعتقاد بأنَّ هناك قوى طبيعية أكبر منه تسعى جاهدةً إلى تدميره، فمنذ أسبوعين تشاجر مع خطيبته نجاح لأسباب واهية في منزل والدها، وانتهت القصة بفسخ الخطبة، ثمَّ خرج من منزل أسرتها مصمماً على ألا يعود إليه.

البارحة أعلمه مدير الثانوية الرسمية التي يعمل فيها مدرساً للفيزياء، بأنَّ جميع الساعات الإضافية التي يقوم بتدريسها في المدرسة قد تمَّ إيقافها، نظراً لقدوم مدرس ثانٍ جديد لمادة الفيزياء إلى المدرسة.

إنَّ الأمور كلها لا تسير على ما يرام، حتى إنَّ عدد الطلاب الذين يأخذون دروساً خصوصية في منزله، أخذ في التناقص في الفترة الأخيرة. لم يعد لديه حالياً سوى ثلاثة طلاب، الظروف كلها تزداد سوءاً بمرور الوقت، إن القوى الغيبية تحاول أن تعاقبه لأسباب ما زال يجهلها حتى الآن.

من نظريات الفيزياء الحديثة التي درسها عندما كان طالباً في جامعة دمشق، تعلَّم من خلالها أنَّ كل شيء في هذا الكون يمكن تفسيره على أساس سلوك المادة بالمستوى الذري، فحتى أصغر الأجسام الموجودة بالذرة مثل الإلكترونات، تمتلك نوعاً من الإدراك المستقل، وهي تتصرف بذكاء وفقاً لإحساسها الداخلي. أيقن سمير من التجارب المخبرية، بأن هناك قوة خارجية تسيطر على هذا الكون، وهي قادرة على أن تتواصل مع هذه الإلكترونات، وتحركها بالشكل الذي تراه مناسباً.

مازال يذكر حتى هذه اللحظة، المرة الأولى التي التقى فيها خطيبته نجاح في بيت خالته، لفتت انتباهه بالوشم الصغير الموجود على معصم يدها، كان عبارة عن دائرة حمراء في

داخلها مثلث أزرق متساوي الأضلاع، لقد كان شكل نجاح عادياً، ولكنه شعر بأنها تتمتع بجاذبية خاصة، لم يدرك كنهها في هذه اللحظة، أحسَّ بنوع من الخجل وهي تحاول أن تثبت عينيها السوداوين الكبيرتين في عينيه عندما كان يتحدث إليها، وكأنها تحاول أن تقوم بتنويمه مغناطيسياً. في كل حياته لم يشاهد امرأة تنظر إليه بوقاحة بمثل هذه النظرة الشهوانية للسيطرة عليه واستحواذه، على الرغم من أنه غير ملتزم دينياً، ولقد تعرّف بحياته على كثير من بائعات الهوى، لكنه لم يشاهد ولو لمرة واحدة في حياته امرأة جريئة مثلها.

عندما عاد إلى البيت في تلك الليلة، فتح الإنترنت وبدأ يقرأ عن الوشوم التي يقوم بعض الأشخاص برسمها على أجسادهم، لجذب الطاقة الموجودة بالكون إليهم، لتساعدهم على تحقيق الأفكار التي يحلمون بها وتحويلها إلى واقع مادي ملموس، تصوّر سمير أنَّ الأشكال الهندسية والكلمات الموجودة في الوشم تعطي لصاحبها بعض القوى الغيبية الخفية، لكن أكثر الأشخاص يضعون هذه الوشوم من دون أن يستوعبوا الهدف منها، معتقدين أنها نوع من إثبات الذات للآخرين بأنهم أحرار بجسدهم، والبعض الآخر لمجرد لفت الانتباه وإشباع رغبة حبّ الظهور الموجودة في أعماقهم، لكن سمير كان واثقاً بأن نجاح تستوعب المعنى الحقيقي من وجود هذا الوشم على رسغها ومن قوته السحرية.

مضت الأيام وسمير يحاول أن ينسى وجه نجاح ونظراتها الثاقبة. لا شك أنها غير جميلة، ولكنها تمتلك كاريزما خاصة بها، تجعلها

قادرة على التأثير في الأشخاص المحيطين بها، من خلال جذبهم إليها بوساطة عينيها السوداوين وشخصيتها القوية، إنَّ وجهها أصبح لا يفارق مخيِّلته، وكلما حاول أن ينساها، ازدادت صورة وجهها التصاقاً بمخيِّلته، لدرجة أنه بدأ يشعر بأنه أصبح مدمناً عليها. سأل خالته عنها، فعرف أنها تعمل موظفة في مديرية التأمينات الاجتماعية، وتحمل شهادة الحقوق من الجامعة السورية، وعمرها بحدود الثلاثين عاماً، تنحدر من أسرة ميسورة، فأبوها عنده محل لتجارة السيارات المستعملة في مدينة دمشق، ولها أخ وحيد يدرس الطب في ألمانيا، تصور سمير أنها ستكون الزوجة المثالية له، فعمرها يقل سنتين عن عمره، ولقد بلغت الثلاثين ولم تتزوج حتى الآن، ما سيجعل أهلها يخففون من شروطهم لإتمام هذه الزيجة، إضافة إلى أنَّ راتبها الشهري سيساعده على فتح بيت مستقل في هذه الأيام الصعبة.

شجعته والدته على فكرة الزواج من هذه البنت الموظفة التي لها راتب شهري، كما أنها سترث والدها بالمستقبل، ما سيساعده على حل مشكلاته المادية على المدى البعيد، ولاسيما أن إمكانياته المادية المحدودة أخذت تدفعه إلى الإسراع في خطبة نجاح، لكي تكون من حظه، قبل أن يأتي شخص آخر ليتقدم لها ويخطفها منه، بين رغبته في الحصول على نجاح، وتحت إلحاح والدته للإسراع في خطبتها قبل أن تفلت من يده، وافق على إرسال والدته إلى بيت أهل نجاح لخطبتها، كما جرت العادة في مجتمعنا.

طلبت أمها بعض الوقت لكي يتسنى لزوجها الاستعلام عن أحوال سمير من معارفهم وأصدقائهم، قبل أن يعطوا الموافقة على هذا الزواج.

وبالفعل بعد أسبوعين اتصلت أم نجاح بهم، ودعتهم للعشاء في منزلها، لأن والد العروس يريد أن يتعرف شخصياً على سمير قبل إعطاء موافقته النهائية على زواجهما. إن هذا الهاتف يعني الموافقة الضمنية على إكمال هذه الزيجة، وإن العشاء سيكون مناسبة لمناقشة بعض الطلبات التي تريدها عائلة نجاح.

توتر سمير من فكرة الذهاب لمشاهدة أهل العروس، لكن لم ينتبه أي شعور بالفرح أو الإثارة، وهذا يعني أنه وصل إلى مرحلة الشعور بعدم الانفعال الزائد، لعلها مرحلة من الاستقرار والنضج النفسي في فهم الحياة، أو ربما لأن نجاح لم تثرْه جنسياً، لكي يشعر بشهوة قوية نحوها. كان عليه عندما اكتشف ذلك أن ينسحب من إكمال هذه العملية، والإنصات إلى صوته الداخلي واتباع تعليماته، لأنه خلاصة إنتاج عقله وقلبه في آنٍ واحد.

خلال الزيارة لاحظ والد العروس بخبرته الطويلة في التعامل مع الناس، بأنَّ سمير شاب جامعي ذكي، وأن له مستقبلاً في سلك التعليم، كما شاهد نظرات ابنته إليه، إنه يعرف أن أحوال سمير المادية صعبة، لذلك لم يشترط عليه تقديم أي مجوهرات أو هدايا للعروس بمناسبة الخطبة؛ بل أفهمه بطريقة غير مباشرة، بأنه سيساعده في فرش البيت، وسيقيم حفلة العرس في بيته الواسع. محاولاً أن يزيح جميع المشكلات التي قد تقف في وجه إتمام مشروع هذا الزواج.

بدأت نجاح تلاحظ أثناء جلوسها مع سمير وحدهما في غرفة المعيشة أن سمير بالفترة الأخيرة لم يكن على سجيّته أثناء تبادلهما الأحاديث.

حاولت في بادئ الأمر أن تقنع نفسها، بأنَّ توتره يعود إلى بعض الضغوطات المادية التي يعانيها، ومن خوفه من مسؤوليات الزواج، لكنها أدركت من مراقبتها للإشارات غير المقصودة التي يبثها جسمه، والتي تعبر عن حقيقة ما يدور في داخله، بأنها بدأت تخسره، فعيناه تحاولان دائماً الهروب من لقاء عينيها، وهو غالباً ما يجلس بعيداً منها، ولا يحاول أن يتفاعل معها خلال الدردشة. كلما حاولت أن تحشره لتحديد موعد الكتاب يجد الأعذارالواهية لتأجيله.

لم تستطع أن تستوعب كيف أنه تقدم لخطبتها، ثم فجأة غيَّر رأيه وهرب منها. لاشك أن هناك قوى غيبية أقوى منه دفعته إلى اتخاذ هذا القرار، تصورت أن فكَّ خطبتها من سمير قد تؤثر في سمعتها، وتقلل من فرصتها للزواج بالمستقبل، ولاسيما أنها قد تجاوزت الثلاثين من عمرها. توهمت أن قطار الزواج قد فاتها، ما سبب لها كثيراً من الإحباط، حتى إنها فكرت مرة بالانتحار.

اسودت الدنيا في عينيها، ورزحت تحت هذه الهواجس غير المنطقية، ونتيجةً لهذه الضغوط النفسية الكبيرة، لم يعد أمامها إلا أن تصارح أمها وتطلب منها مساعدتها. ظنت أمها، أن سمير يمكن أن يكون مرتبطاً بامرأة ثانية، ما دفعه لأن يترك ابنتها من أجلها، وبدأت تسأل صديقاتها ومعارفها عن فلكي منجم يستطيع فك هذا الارتباط وقراءة المستقبل. فدلتها إحدى صديقاتها على منجم روحاني شهير اسمه أبو مهند، يقوم بمعالجة زبائنه في بيته، فهو يبطل السحر ويفكّ المربوط، حتى إنه قادر على معالجة حالات المسّ، حيث يقوم بإخراج الجني من

جسم المريض المفتون، ولا يتقاضى سوى عشرة آلاف ليرة سورية ولكن بعد التأكد من شفاء الزبون.

بالفعل اتصلت أمها عبر الهاتف بالعالم الروحاني أبي مهند، فضرب لها موعداً في بيته الذي يقع في حي الميدان في مدينة دمشق القديمة لمقابلتها، استقبلتهما خادمة سوداء في بيت عربي قديم متهاوٍ، وأجلستهما في الردهة بجانب الباب الخارجي لأكثر من نصف ساعة، لكي يسيطر عليهما التوتر، فيسهل على المنجّم التأثير فيهما والتلاعب بعقليهما. بعدها اجتازا باحة مستطيلة في منتصفها بحرة صغيرة من الرخام، قادتهما الخادمة إلى غرفة معتمة تفوح منها رائحة البخور مباشرةً إلى حضرة العالم الفلكي أبي مهند الذي كان متربعاً على الأرض في صدر الغرفة، حيث بادرهما بقوله، بأنه يقوم بمعالجة مرضاه لوجه الله تعالى، وأنه لن يتقاضى منهما أجراً.

إن أكثر مرضاه بعد شفائهم يتبرعون بالمبلغ الذي يرونه مناسباً للفقراء والمساكين، كان شكله عادياً وهو في منتصف العمر له لحية سوداء كثيفة، ويضع عمامة سوداء على رأسه، لكن أكثر ما لفت انتباه نجاح عيناه السوداوان المخيفتان اللامعتان اللتان يشوبهما احمرار خفيف، من كثرة تعرضهما يومياً لدخان البخور، فتولاها الهلع من منظره، وقررت بداخل نفسها أنها لن تعود مرة ثانية لمقابلته، سألهما أبو مهند عن المشكلة، فانبرت الأم للحديث عن سمير، كيف جاء وخطب ابنتها... وبالرغم من كل الترحاب والتدليل والتسهيلات التي قدمها أبو البنت إليه، فإنه خان العشرة، وانقلب عليهم وفك الخطبة فجأة من دون سبب.

أدرك أبو مهند من تعابير وجه نجاح مقدار الخوف الذي تعانيه. بادر إلى تهدئة خاطرها، فذكر لها بأن الكتابة والسحر والربط كلها من شغل الشيطان، الذي يريد محاربة الله في خلقه وتدمير كل الأشياء التي صنعها الله على الأرض، إن خيانة سمير هي من تحريض الشيطان، الذي استغله بعد أن عرف نقطة ضعفه، فأضلّه عن الطريق المستقيم، فتركها من دون سبب أو عذر مقبول. شرح لها بأن الشخص الذي يريد الأذيّة السحرية يذهب إلى المشعوذين. أما الشخص الطيّب مثلهما فيلجأ إلى العلماء الروحانيين لمساعدته بالدفاع عن نفسه ضد القوى الشيطانية، وسيقوم مستعيناً بالجنيّ الصالح ديمون لمساعدتها عن رفع الأذية عنها.

ارتاحت نجاح لسماع كلمات أبي مهند، وقررت السير في هذا الطريق، لأنها في وضع يائس وليس أمامها سوى الموافقة. استطاع أبو مهند بكلماته القليلة إقناع نجاح، بأن كل الأعمال التي ستقوم بها في المستقبل، هي مجرد ردة فعل للحصول على حقوقها التي سلبتها منها القوى الغيبية الظالمة، فتمكن من شحن إرادتها لكي تسير في الطريق الذي اختاره لها.

إن مبدأ السحر كله يعتمد على الإرادة، من دون التصميم والتركيز لن تتمكن نجاح من التأثير في سمير والدخول إلى عقله، بعد أن اطمأن أبو مهند من قدراته على استيعاب نجاح والتأثير فيها. طلب منها أن تُحضِر له أثراً من سمير، وصورةً حديثةً له، وتكتب بخطّ يدها اسم أمه بالكامل لمساعده الجني، ليتمكن من متابعة أخبار سمير، أخبرت نجاح أبا مهند بأن كل ما لديها من أثر لسمير هي علبة العطور التي

كان قد أهداها إياها في أوائل أيام الخطبة، مع شال خفيف أبيض من الصوف جلبه لها بمناسبة عيد ميلادها. بعد ان أنهت جملتها، أطرق أبو مهند برأسه إلى الأرض، وأغمض عينيه وذهب في تفكير عميق، وكأنه في حالة اتصال روحي مع شريك خارج جدران هذه الغرفة. بعد عدة دقائق استعاد وعيه ليخبرهما بأنَّ الجني ديمون قد وافق على مساعدتهما. كل ما عليهما الآن هو جلب هذه الأغراض إليه، لكي يتمكن الجني من تتبع سمير، ومن الاتصال بقرينه الجني ليستوضح منه عن السبب الذي دفع سمير لإنهاء الخطبة، ووعدهما بأنَّ أمورهما كلها ستكون على ما يرام.

عادت نجاح مع أمها باليوم التالي إلى بيت أبي مهند مع الأغراض التي كان قد طلبها، استقبلهما أبو مهند في غرفته المعتمة التي تفوح منها رائحة البخور، مستعيناً بالظلام ورائحة البخور لحجب الحواس عن الواقع الموجود في الغرفة بقدر المستطاع، ليتمكن من التأثير والسيطرة عليهما. اضطر عقل نجاح تحت تأثير الهلع وحرمانه من بعض حواسه إلى تضخيم مخاوفه، فلجأ إلى محاولة الحصول على معلومات إضافية، فأخذ يتخيل أشكالاً ويسمع أصواتاً غير موجودة بالواقع مصدرها عقله الباطن. شرعت نجاح تتخيل أن الكراسي تمشي في الغرفة، وأنها تتحدث إليها، لقد جعلها تحسّ الواقع من خلال عقلها، ثم أنهى الجلسة بسرعة قبل أن تستيقظ من هذا الوهم، ونجاح مازالت مفتونةً بما تشاهده عيناها، على أن تعودا لزيارته بعد ثلاثة أيام.

بعد ثلاثة أيام رجعت نجاح مع أمها لزيارة أبي مهند وعند دخولهما الغرفة، لاحظتا طاولة صغيرة في منتصف الغرفة عليها

تمثال صغير لرجل مصنوع من الشمع الأبيض، بعد أن جلستا حول الطاولة، أخبرهما أبو مهند بأنَّ هذا تمثال سمير. لقد جعله على شاكلته، وحشاه بقلب ضفدع، فجأة شدَّ إليه يد نجاح اليسرى، رفع إبرة صغيرة موجودة على سطح الطاولة، ووخز سبابة يدها بقسوة، فتدفقت بغزارة قطرات الدم من إصبعها، ثم وضع سبابتها على التمثال حتى اصطبغ بالدم الأحمر.

لم تستوعب نجاح ما يجري، لقد توقف عقلها عن التفكير وهي تشاهد هذا المنظر الفظيع، لذلك لم تسحب يدها أثناء قيام أبي مهند بحركته الغريبة. بعد أن انتهى من طلس التمثال بقطرات دم نجاح، رفع دبوساً صغيراً موجوداً على سطح الطاولة، وطلب من نجاح أن تغرس الدبوس في رأس التمثال، ثم اقترح على أم نجاح أن تغادر الغرفة، لأن الجني ديمون لن يحضر الجلسة ما دامت موجودة فيها، وهي ليست طرفاً بعملية السحر، فوجدت الأم نفسها مضطرة لمغادرة الغرفة.

أمسك التمثال بيده وأخذ يتفوَّه بكلمات غريبة غير مفهومة، وينفث وينفخ على التمثال لأكثر من عشر دقائق. تخيّلت نجاح أنَّ الكراسي تمشي بالغرفة، وهي تتحدث إليها بأصوات غير مفهومة. أقنعها أبو مهند بأنَّ هذه الحركات والأصوات عائدة للجني ديمون الموجود معهم بالغرفة والمتمثل بهذه الكراسي. إنَّ دور أبي مهند كوسيط بينها وبين الجني ديمون قد انتهى، وإنَّ علاقتها أصبحت مباشرة معه. في هذه اللحظة انبثق اتصال سري روحي بينها وبين الجني ديمون، لم تستوعب هذه الإثارة في بادئ الأمر، لكنها شعرت بداخلها بعنف هذه التجربة

التي تمرّ بها. أحسَّت بنوع من النشوة وتحقيق الذات، لأنها أصبحت على علاقة مباشرة مع جني قوي قادر على تحقيق جميع طلباتها.

بعد فك هذه الخطبة، لم يعد سمير كما كان، ذهبت نجاح وأخذت معها راحة باله واستقراره النفسي، حاول أن ينساها، لكن شبح وجهها وعينيها السوداوين مازالت تطارده. زاد من مشكلاته في الفترة الأخيرة تعرضه لأوجاع شديدة في رأسه لأسباب لم يعرفها، إضافة إلى شعوره بالإحباط الدائم، ورغبته في النوم باستمرار للهرب من هذا الواقع الذي يعيش به، فكل هذه العوامل دفعته للانطواء على نفسه والابتعاد عن جميع معارفه وأصدقائه.

لاحظت أمه هذه التطورات التي حدثت معه بعد تركه لخطيبته نجاح، فخطر لها مباشرةً أن نجاح ربما قد عقدت له عقدة من السحر، جلست وشرحت لابنها سمير، بأنَّ أعراض السحر غالباً ما تشبه أعراض المرض من الكسل واليأس والرغبة المستمرة بالنوم، إنه من الصعوبة أن يعرف الواحد منا نفسه فيما إن كان مسحوراً أم لا، اقترحت عليه أن يذهب معها لزيارة إمام الجامع بحارتهم ليعالجه بالرقية الشرعية.

في أول الأمر استخفّ بفكرة أمه، تصوّر أنَّ الذهاب لمعاينته عند إمام الجامع إهانة شخصية لجميع الأفكار التي اعتنقها طوال حياته الجامعية. إنَّ استمرار حالته بالتدهور، وعدم رغبته في مراجعة الأطباء والدخول في دوامة مصاريف الأطباء والتحاليل المخبرية، جعلته يعيد التفكير بفكرة الذهاب إلى رؤية إمام الجامع لتجربة الرقية الشرعية، مادام لا يترتب عليه دفع أي مبلغ للإمام.

بالفعل ذهب مع والدته لزيارة إمام الجامع في بيته، بعد جلوسه على الكرسي سأله الإمام بصراحة فيما إذا كان ملتزماً دينياً، فأجابه بأنه يعيش حياته على هواه، كما يعيش أغلب شباب هذه الأيام، لقد تعوّد على هذا النمط من الحياة، هنا قاطعه الإمام، وأفهمه بأنَّ الإيمان الديني والسمو الأخلاقي قد يشكلان في كثير من الأحيان درعاً يقي الإنسان من القوى الشريرة، وأنه مادام مستمراً في ارتكاب المعاصي، فإن الرقية الشرعية لن تفيده، إن عليه أن يتعلم ألا ينظر إلى الأمور من العين؛ بل يجب أن ينظر إليها من الروح، انتهى الحديث عند هذا الحد، وخرج مع والدته من بيت إمام المسجد، ثمَّ عاد إلى بيته وهو يفكر في كلماته.

الأيام تمضي مسرعةً، وصحة سمير مازالت على حالها لم تتحسن، نصحته أخته التي تعيش مع زوجها في مدينة عمان بالأردن، أن يأتي لزيارتها في نهاية الأسبوع، ليقضي عدة أيام معهم، أخبرته بأنَّ زوج إحدى صديقاتها معالج روحي متخصِّص من ألمانيا، يستخدم الطاقة في علاج المرضى، ولما كانت تعرف أن أخاها مهووس طاقة وأمواج كهرومغناطيسية، فلذلك دعته للقدوم إلى عمان لمراجعته. إن الطبيب سيراعيهم بأجرة الكشفية، كل ما عليه أن يدفع أجرة الباص من دمشق إلى عمان.

تحت إلحاح والدته سافر سمير إلى عمان، وبعد وصوله بيومين اصطحبته أخته إلى عيادة الاختصاصي.

جلس على الكرسي، وبدأ الطبيب يشرح له طريقة العلاج التي يتبعها بالعادة مع مرضاه، إنها تعتمد على مبدأ تفريغ الطاقة السلبية

من جسم المريض، ثم شحنه بالطاقة الإيجابية، لضمان شفائه من مرضه سواء كان نفسياً أم عضوياً، علماً أنَّ أغلب الأمراض العضوية أساسها أمراض نفسية، لكن قبل المباشرة بعلاجه يجب التحقق من وضعية نقاط الشاكرات في جسمه. والتي هي عبارة عن سبع نقاط بالجسم تشبه البوابات، حيث تمرُّ الطاقة الموجودة بالكون لشحن الجسم من خلالها، ثم طلب منه أن يرقد على السرير الموجود في طرف الغرفة، وأن يسترخي. أخرج من الدرج خيطاً قطنياً، ينتهي أسفله بقطعة صغيرة مخروطية الشكل من خشب الزان، تشبه الشاقول المستعمل في أعمال البناء، أمسك الخيط بين إبهامه وسبابته ووضعه على بعد نحو عشرة سنتيمترات فوق صدره بالقرب من قلبه، بدأ يلاحظ اتجاه حركة دوران الشاقول وسرعته، شاهد سمير بأمّ عينيه أن الشاقول بدأ يدور بعكس حركة اتجاه عقارب الساعة، وفسّر له المعالج بأنَّ معنى هذا أنَّ نقطة عبور الطاقة لسوء حظه مسدودة في هذه المنطقة المهمة من جسمه، وأنه من الواجب تنظيفها، لكي تتمكن الطاقة من عبورها. في الحالة الطبيعية تكون حركة دوران الشاقول باتجاه عقارب الساعة، استمرّ يشرح الطرق التي سوف يستعملها لشحن الطاقة إلى جسمه المنهك، وبينما هو غارق في هذا الشرح، كان سمير يفكر بالمبلغ الذي سيتقاضاه المعالج خلال فترة العلاج، وما أن وصل إلى نهاية الحديث، حتى اعتذر منه سمير بحجة أنه مدرس بالثانوية الحكومية، ولا يستطيع الانقطاع عن التدريس، وخجل من أن يسأله عن كلفة العلاج والمدة التي سيستغرقها، اكتشف أنَّ في كلام هذا المعالج حقائق فيزيائية مهمة لا يمكن إنكارها، وتصوَّر أن معرفته

النظرية بموضوع الطاقة والترددات، تجعله قادراً على معالجة نفسه بنفسه، من دون أن يدفع مليماً واحداً، وقرّر أنَّ بعد عودته إلى دمشق سوف يرتِّب برنامجاً عملياً يستخدم فيه معلوماته بالفيزياء الحديثة، لاستخدام الطاقة الكونية في شحن طاقته الذاتية.

اقتنعت نجاح بعد خروجها من بيت أبي مهند، بأنها اكتسبت قوى خارقة جديدة، لم تتوقع أنها تمتلكها، لأنها أصبحت تحظى بمساعدة الجني ديمون، أكدت لنفسها أنَّ هذه العلاقة ستساعدها على استعادة خطيبها سمير، بعد انقضاء ثلاثة أيام، راجعت أبا مهند لتتفاهم معه على الخطوات التي عليها اتباعها لاسترداد خطيبها، دخلت هي وأمها الغرفة المظلمة المشبعة بالبخور والدخان، فطلب أبو مهند من أمها مغادرة الغرفة والانتظار في الردهة الخارجية، لأن الجني ديمون لن يحضر الجلسة مادامت هي موجودة. بعد أن غادرت أمها الغرفة، أخبرها أبو مهند بأن الجني ديمون قد وقع في غرامها، وهو على استعداد لتنفيذ جميع الطلبات التي تريدها، إنه يريد منها أن تضع على خلف كتفها الأيمن وشماً صغيراً باللون الأبيض والأسود، لعين مفتوحة في داخل مثلث متساوي الأضلاع، إنه رمز قديم لإله الشمس رع عند المصريين القدماء، إنها بمنزلة عين ثالثة ستعطيها قدرات كبيرة، ستمكنها من الدفاع عن نفسها من العدو الذي يهاجمها من الخلف، وستساعدها على أن ترى أفكار ورغبات جميع الأشخاص المحيطين بها، وأن تقرأ المستقبل، وبالوقت نفسه، فهي رمز للعلاقة الخاصة التي تربطها بالجني ديمون.

غادرت بيته وهي ترتعد من الخوف، وهي تفكر بمستقبل وخطورة هذا التواصل بينها وبين الجني ديمون. أكد لها أبو مهند، أنها إذا قررت أن تعود بالمرة القادمة، فيجب أن يكون الوشم موجوداً على جسدها، وألا تكون والدتها معها.

بعد وصولها إلى بيتها، اتخذت قرارها بأنها لن تعود مرة ثانية إلى بيت أبي مهند، خجلت من إخبار أمها بقصة وقوع الجني ديمون في حبها، إنه أمر جنوني وفكرة فظيعة لا يمكنها أن تتخيلها، لا يمكن أن تسمح لنفسها بالتورط بمشكلات غيبية لا تعرف نتائجها.

مرت الأيام متثاقلة، وهي تمضيها بين البيت والوظيفة منتظرةً أن يعود سمير إليها. طال انتظارها من دون جدوى، حتى إنها وصلت إلى مرحلة لم تعد قادرة فيها على أن تبقى معلقة بالهواء تترقب خبراً من سمير، مستقبلها أخذ يفلت من يدها، فلابد لها من أن تضع الوشم، وأن تذهب بمفردها لمقابلة أبي مهند.

وضعت صورة الوشم على جلدها، وتحملت آلام غرز الجلد بالإبرة، وبعد الانتهاء من العملية، لم تلاحظ أي زيادة في قواها الداخلية أو العضلية، على الرغم من أنها كثيراً ما شاهدت على التلفزيون أجساد لاعبي كرة القدم الرشيقة، وقد تحولت إلى لوحات فنية ملونة من كثرة صور الوشوم عليها، لاعتقادهم بأنها تعطيهم القوة وتحسن من أدائهم الرياضي، إنَّ الحبر الموجود بالوشم على عمق نحو أربعة مليمترات من سطح الجلد والمشبع بالألمنيوم، يؤثر مباشرةً في فيزيولوجيا الجسم، حيث يلعب هذا المعدن دوراً في تعديل النمط السلوكي للاعب، فيجعله أقوى وأكثر عدوانية.

عندما وصل سمير إلى بيته في دمشق، لم يتوقف عقله عن التفكير بنقاط الشاكرات السبع الموجودة على جسده، والتي تنفذ من خلالها الطاقة الموجودة في الكون إلى جسمه، إن بعض هذه النقاط مسدودة، ويجب عليه أن ينظفها، لتصبح سالكة لعبور الطاقة. كان يخطر له في بعض الأحيان أن يعود إلى خطيبته نجاح، بالنهاية حسم أمره، وقرر أن يفتح الإنترنت، ويبدأ بمتابعة الطرق المتبعة في فتح هذه النقاط، عرف أنه إضافة إلى جسمه المادي، فإن له جسماً طاقياً آخر، يرتبط مع الأول بشكل وثيق، حيث إن كل ما يؤثر في الأول ينعكس على الثاني. اكتشف أنه بحاجة إلى معالج، ليساعده من خلال وضع يده على جسمه، ليشحنه بالطاقة من خلال قواه الذاتية، إنها تشبه طريقة وصل بطارية فارغة بسلك مع بطارية مشحونة ليتدفق الكهرباء من الممتلئة إلى الفارغة ليشحنها بالكهرباء.

قرأ أيضاً عن طريقة المعالجة بوساطة الأحجار الطبيعية الكريمة، لأن لها ساحة كهرومغناطيسية تساعد على الشفاء. اشترى ثلاث قطع من أحجار الكريستال الطبيعية الصافية الصغيرة، ووضعها داخل مياه المغطس الفاترة، أخذ يسترخي داخل هذه المياه في كل يوم لمدة ساعة، ومن الطبيعي أن تتأثر أحجار الكريستال بكهرباء جسمه، فإذا انخفضت الطاقة لديه، سرعان ما تصدر الأحجار أمواجاً لها اهتزازات معينة لإعادة شحن جسمه بالطاقة من جديد.

بعد أسبوعين من الجلوس بالمغطس، لاحظ أن شعوره بالتعب والإحباط وآلام وجع الرأس بدأت تتناقص، فانتقل إلى الخطوة الثانية التي تعتمد على استعمال الألوان المشكلة لقوس قزح في العلاج، تذكّر

أنه عندما كان صغيراً، كانت أمه تضع له خرزة زرقاء اعتقاداً منها بأنها تحميه من العين. عندما كبر تصوّر مقدار جهلها، لإيمانها بهذه الخرافات، والآن ها هو يكتشف من جديد، أن لكل لون من الألوان ذبذبة خاصة تؤثر في جسمه سلباً أو إيجاباً، ما يدفعه لتفضيل لون معين، بحيث يؤثر هذا اللون بطريقة خاصة في جسمه الطاقي.

لَبس خاتماً من حجر الفيروز الأزرق المائل إلى الاخضرار في خنصره، ليتمكن هذا الحجر من عكس جميع الأمواج التي تصدرها العين الحاسدة باتجاهه وتشتيتها بالجو، انتهى سمير من هذه المرحلة، ولم يعد أمامه إلا أن يعود مرة ثانية إلى عمان.

اتصل بأخته في عمان، لتؤمن له موعداً مع يوسف، أخذ إجازة اضطرارية من المدرسة لمدة أسبوع، وانطلق إلى عمان، إنَّ عليه أن يضحي ببعض المال من أجل استكمال علاجه. دخل عيادة الدكتور يوسف. أعاد فحصه بطريقته القديمة مستعملاً الشاقول، فلاحظ تحسناً كبيراً في وضعه الصحي، إن جميع النقاط السبع أصبحت شبه سالكة، وعليه الآن أن يخضع يومياً لجلسة روحية لمدة ربع ساعة لفترة خمسة أيام، يقوم فيها يوسف بنقل الطاقة من جسمه إليه بوساطة وضع كفّ يده على جسمه بطريقة معينة، كما طلب من سمير أن يسترخي خلال هذه الجلسات، ليدخل في مرحلة التأمل، عليه أن يركز دائماً على أداء التنفس العميق، ليحاول إدخال أكبر كمية ممكنة من الأوكسجين إلى رئتيه، ما سيساعده على التركيز الذهني، استمرَّ علاجه نحو أسبوع، أحسَّ بعد هذه الفترة بأنه أصبح شخصاً آخر، ليعود بعدها إلى دمشق.

دارت الأيام، وتطلقت سلمى ابنة عمة سمير بعد زواجها بستة أشهر، انتشرت شائعات كثيرة حول طلاقها، أغلبها سرَّبها أهل العريس بلا خجل ولا حياء، من أجل الدفاع عن تصرفات ابنهم، لتدمير سمعتها لكيلا يجرؤ أحد على الزواج منها مرة ثانية بالمستقبل. وصل سمير الآن إلى مرحلة، لم يعد يهمه فيها رأي الناس في حياته الخاصة، انتابه نوع من الشعور بحرية لم يكن ذاق طعمها من قبل، إن كل ما يعرفه الآن، أنه ما زال يحبها، وهي ما زالت تبادله هذه العواطف، وسيتقدم لخطبتها والزواج منها سواء وافقت والدته أم رفضت، وهو يتصور بأنها بحكم وضعها الحالي، فهي على استعداد لأن تتنازل عن كثير من متطلباتها، حتى إنها على استعداد لأن تعيش مؤقتاً مع أمه في البيت الذي ورثه عن أبيه.

اكتشف أن حبه لها لم يفتر طوال تلك السنين، وها هو لمجرد التفكير بالزواج منها يستعيد رغبته الجنسية وأمله بأن يعيش حياته معها من جديد. في الماضي كان يجهل مفاهيم الطاقة الجنسية، لم يكن يودُّ أن يتطرق إلى هذا الموضوع، ومصارحة نفسه بهذا الدافع، ومن الاعتراف بعنف رغبته الجنسية نحو سلمى، إنها الغريزة الأقوى التي يمكنها أن تشعره بأنه ما زال على قيد الحياة. إنه يستنزف هذه الطاقة بالذهاب مع المومسات، لأنه لم يكن يدرك أن عليه استثمارها مع زوجته بالمستقبل.

لقد أعطته هذه الرغبة مزيداً من الشعور بالسعادة والحب والقدرة على التحكم بالذات، وساعدته على اكتشاف كثير من قدرات الطاقة التي لم يكن يعتقد بأنه يمتلكها. إن رغبته الجنسية تجاه

سلمى أخذت تحفّز دماغه للإسراع بالزواج منها، على الرغم من أنه كان دائماً يخاف ويتهرب من تلك الفكرة.

لاحظ أن فكرة الاكتئاب والإحباط التي كان يمرّ بها قد انتهت، بعد أن استيقظت رغبته الجنسية نحوها، تذكّر مقالة كان قد قرأها في مجلة لطبيب نفسي يقول فيها: إن ازدياد القوة الجنسية هي علامة جيدة، تدل على تحسن حالة المريض، واستعادته لحياته الطبيعية ومقدرته على التعبير عن ذاته ومشاعره بطريقة مباشرة، وها هو يعيش الآن هذه النظرية على أرض الواقع، ويشعر بصحة كل كلمة وردت فيها، إنه على استعداد للمخاطرة بسمعته أمام عائلته وأصدقائه، وحتى عن التنازل عن كرامته للزواج من سلمى، التي كانت قد رفضته بالماضي. إن امتلاكه لهذه الطاقة الجنسية العالية ستجعله يواجه المجهول، وسيركز على عمله لزيادة دخله والنجاح بمهنة التدريس.

إنَّ طاقته الجنسية تشبه وقود السيارة التي تحركها أثناء مشيها على الطرقات، إنَّ عليه أن يصرف طاقته الجنسية مع زوجته بالطريقة المثالية، لكي يصل إلى أهدافه في هذه الحياة القاسية، كل ما عليه الآن أن يتخذ الخطوات العملية للتقدم لخطبة سلمى.

أخذ أمل نجاح يتلاشى باستعادة خطيبها مع كل شروق جديد للشمس، لم يعد أمامها أن تتراجع عن فكرة الذهاب إلى بيت أبي مهند ولو للحظة واحدة، حاولت أن تقنع نفسها مراراً بأنها تسير في طريق خاطئ باتجاه واحد، لا يمكنها التكهن بنهايته، من شدة خوفها ذهبت إلى الإنترنت، وقرأت عن هذه العلاقة العاطفية المريبة التي قد تنشأ بين المرأة والجني.

لفت انتباه نجاح كثرة المقالات المتناقضة حول طبيعة هذه العلاقة، فبعضهم ذهب به القول، بأنه لا يمكن للجني أن يتزوجها نظراً لاختلاف مادة كل منهما، فهي خلقت من طين، بينما خلق الجني من نار، وذهب البعض الآخر إلى القول، بأنه يمكن للجني أن يتلبس رجلاً من الأنس، ليقوم بالزواج منها بالنيابة عنه.

أقنعت نجاح نفسها، بأنَّ هذه المقالات كلها عبارة عن مجرد تخمينات، وأنه لا يوجد شخص واحد يعرف حقيقة الجن، حتى إنّ أبا مهند نفسه، الذي يدّعي بأنه يسخِّر الجني ديمون لخدمته، لا يزال جاهلاً بحقيقة طبيعته، كل ما تعرفه نجاح حول الجن، يعود إلى القصص التي كانت قد سمعتها وهي صغيرة من جدتها من أجل التسلية وقتل الوقت والعيش في عالم الخيال المثير. تدرك نجاح جيداً أنَّ أبا مهند يحاول أن يستغل القلق الذي ينتابها نتيجة خوفها من بقائها عانساً، ما ينغص عليها حياتها، ويدخلها في حسابات معقدة، وما سيحدث لها بالأيام القادمة، بالطبع كان لقرار سمير بفك خطبتهما تأثير مدمّر عليها، على الرغم من أنها موظفة، ولها راتب تقبضه في نهاية كل شهر، إضافة إلى أحوال أسرتها المادية الجيدة، فهي لم تتزوج حتى الآن.

لم يسبق أنها صارحت نفسها بموضوع شكلها، ربما هي ترى نفسها أقل جمالاً مما يراه الآخرون، ولعلها تظلم نفسها بهذه الأفكار السوداء التي تعتريها من حين لآخر. إن نجاح تركز دائماً على أنفها الكبير وجفنيها المنتفخين وخديها المكتنزين، فهي حساسة لهذه العيوب الصغيرة في وجهها التي سيطرت بقوة على تفكيرها، ومنعتها

من أن تظهر للآخرين مواطن الجمال الأخرى في داخلها، قلة من النساء عندها الجرأة لوصف أنفسهن بأنهن جميلات عندما يقفن أمام المرآة، أما الأغلبية فتلجأ إلى المكياج وعمليات التجميل لإخفاء هذه العيوب الصغيرة.

مراراً فكرت نجاح بإجراء عملية تجميل لتصغير حجم أنفها، على الرغم من عدم تأكدها، بما يمكن أن تفعله هذه العملية لها، إنَّ بعض التغييرات الطفيفة للغاية التي يمكن أن يتم إجراؤها على وجهها يمكن أن تؤدي إلى تغيير كبير في شكلها، لكن نجاح بحاجة إلى إجراء جراحة ثانية لشدّ بشرتها تحت عينيها، للتخلص من الانتفاخات والخطوط الضيّقة التي تحاصرهما، عن طريق إزالة الجلد المترهل حولهما، لتعطي لوجهها مظهراً شبابياً مريحاً، السبب الوحيد الذي يجعلها تؤجل فكرة عمليتي التجميل هو خوفها من المضاعفات التي سمعت عنها، والتي أدت إلى تشويه وجوه بعض الفنانات المشهورات على شاشة التلفزيون.

إنها تعتقد بأنَّ عليها أن تسافر إلى إحدى العيادات المشهورة في أوروبا لإجراء هاتين العمليتين على يد أحد الأطباء الناجحين لتضمن نتيجتهما، ولكيلا تدمر حياتها، كما حصل لبعض الفنانات، فهي بدأت مؤخراً بالاقتصاد في راتبها نهاية كل شهر لتحقيق هذا الحلم، لاستعادة ثقتها بنفسها، وهي الآن تستعمل المكياج الثقيل، لإخفاء هذه الانتفاخات حتى لا تبقى أسيرة لها، إنَّ المكياج بالنسبة لنجاح هو أكثر من مجرد وسيلة لإخفاء عيوب وجهها، إنه يعزز ثقتها بنفسها، ويثبت شخصيتها وحضورها، ويجعلها تبدو أكثر أناقةً وحيويةً، إنَّ كل ما

تحتاجه الآن، أن تسمع كلمات الإطراء والثناء من أصدقائها الشباب الذين يحيطون بها أثناء العمل، لتستردّ ثقتها بنفسها. وبالنهاية وصلت إلى قناعة بأنها ستذهب إلى بيت أبي مهند، لتخبره بأنها لن تتزوج الجني ديمون، لعدم إيمانها بوجود هذا النوع من العلاقات.

صممت نجاح بأن تعطي أبا مهند فرصته الأخيرة، لجلب خطيبها السابق سمير إليها، وإلا فإنها ستتوقف عن التردد إلى بيته، يجب عليها أن تضع حداً لهذه الألعاب التي يمارسها عليها، وبالوقت نفسه، فهي على استعداد لتدفع له المبلغ الذي يراه مناسباً، مادام ضمن الحدود المعقولة، لكنها لن تسمح له بأن يخيفها بعد اليوم، من أجل السيطرة عليها، ليسهل عليه ابتزازها بالمستقبل.

تقدم سمير لخطبة سلمى ابنة عمته، وكما كان متوقعاً، فقد وافق والدها فوراً على هذه الزيجة، متناسياً موقفه السابق من سمير. الأمور قد تغيرت، فسلمى أصبحت مطلقة، وفرصتها بالزواج من جديد تتناقص في كل يوم، بينما سمير مازال أعزب، وهو يعمل مدرساً للفيزياء في الثانويات الحكومية، ويعطي دروساً خصوصية للطلاب، ومن المفروض أن تتحسن أحواله في كل يوم، إضافة إلى أنَّ الأب يعرف بالعلاقة العاطفية التي جمعت بين سمير وسلمى في سنوات المراهقة.

تصورَ سمير بأن أيام النحس التي عاشها في الأيام الأخيرة قد شارفت على الانتهاء، إنه الشعور بالولادة من جديد، هذه الإثارة الجنسية القوية التي يشعر بها عندما يكون بالقرب من سلمى، أعطته الدافع للرغبة في الحياة والاستعداد التام للتعبير عن مشاعره من دون

خوف، أحسّ بالاستعداد التام للمخاطرة ومواجهة المجهول من أجل البقاء مع سلمى. فهم سمير بأن عليه أن يعيش أسطورته الشخصية مع سلمى، مع تطور تجاربه الخاصة في كل يوم، استنار عقله بحوادث غامضة لا يدركها، تأتي إليه بشكل ومضات، دفعته لأن يستيقظ ليستمتع بالحياة وليعرف من هو.

عاش سمير من جديد لحظات سعيدة مع سلمى، لم يكن قد مارسها منذ أيام المراهقة، بدأ يشعر لأول مرة بأنَّ حياته بدأت تسير على ما يرام، وبالوقت نفسه، فإن سلمى تبذل كل ما بوسعها من أجل الاحتفاظ به، لقد مرت بتجربة سيئة بعد طلاقها، وهي ليست على استعداد لتكرارها للشائعات التي أطلقها أهل زوجها السابق حول علاقتها مع أحد أصدقاء زوجها المقربين منه، والتي دمرت مستقبلها، وأصبحت تلاحقها أينما ذهبت.

توقعت من سمير بأن يفاتحها في أي لحظة بموضوع هذه الشائعات، لكنها كانت مصممةً على نفيها وتكذيبها، إنها ليست على استعداد لأن تخسر سمير، إنه طوق النجاة الوحيد المتوافر لديها في هذا المجتمع الشرقي الذي لا يرحم. أحياناً كان يخطر ببالها أن تشرح لسمير واقع العلاقة التي ربطتها بزوجها السابق، لكنها باستمرار تخاف من ردة فعله، إنه قد لا يفهم رغباتها العاطفية وطبيعة علاقتها الجنسية التي جمعتها بزوجها الذي يكبرها بأكثر من عشرين عاماً، الذي كان يحاول جاهداً أن يستعيد شبابه من جديد على حسابها.

أراد أن يعزلها عن صديقاتها الشابات، ليبعدها عنهن لتعيش في عالمه الخاص، ليسهل له السيطرة عليها، وهي بالوقت نفسه لم

تستطع أن تبعده عن جوّه القديم لتجرّه إلى عالمها الشبابي، باختصار هناك فارق كبير في العمر بينهما، لا يمكن تجاوزه، وإنها ليست على استعداد لأن تضحي من أجله.

عاش زوجها فترة طويلة من حياته وحده منهمكاً في جمع المال، اعتاد خلالها امتلاك مساحة كبيرة من الحرية الشخصية، كما ساهم تقدمه بالعمر على التأثير في نشاطه الجنسي، إنها متأكدة بأنه من الصعب على سمير أن يفهم ظروفها التي دفعتها لإقامة علاقة مع رجل آخر خلال فترة زواجها، ولو أن سمير عرف بخيانتها لزوجها، لربما فقد ثقته بها، ولن تستطيع إقناعه بأنَّ الخيانة حدثت نتيجة خطأ زوجها. عليها ألا تترك نفسها للأوهام، حتى لا تدمّر حياتها من جديد، إنها مصممة على نفي هذه الشائعات جملةً وتفصيلاً.

إن وعي سلمى لذاتها بأنها جميلة، قد أعطاها مزيداً من الثقة بنفسها، حتى إنه أوصلها إلى درجة من الغرور والتهوّر، ما حرّضها في كثير من الأحيان على التمرد على أهلها وزوجها، والتركيز طوال الوقت على مظهرها وأناقتها، لتلفت اهتمام الآخرين إليها، إنها حلوة، ويهمها أن تجذب سمير إلى جمالها، ليظل يفكر فيها طوال الوقت، لينعكس ذلك على سلوكه نحو أمه، فهي تعرف أن حماتها لا تحبها، وأنها وافقت مرغمة على زواج ابنها منها، ولكنها ما زالت تخاف كثيراً من تأثير أفكار حماتها في سمير، مدركة بأنَّ كل تصرفاتنا هي من خلال أفكارنا.

تعرف سلمى بأنَّ عليها أن تكون واعية وتفتح عينيها لتصرفات وحركات حماتها التي ستحاول أن تنتهز أي فرصة لتقنع ابنها بأن

سلمى امرأة مطلقة، وهناك قصص كثيرة تدور حولها، إنها متأكدة من أن حماتها مازالت تفضل لو أن سمير قد يعود إلى خطيبته الأولى نجاح، لا تريد أن تتخيل كيف أنها ستعيش مع حماتها تحت سقف واحد، لكن كل ما عليها الآن أن تزيح عنها هذه الأفكار السوداء، وأن تستمر ماضيةً في تحقيق هذه الزيجة.

أقام أهل سلمى حفلة صغيرة حضرها أهل العروسين فقط، قام خلالها سمير بتلبيس سلمى خاتم سولتير من الذهب الأصفر ذا فصّ ألماسيّ صغير، لا يزيد على نصف قيراط، وكانت سلمى هي التي اختارت هذا الخاتم، لسعره المعقول، ولكونه ضمن حدود إمكانيات سمير المادية، إنها تنظر إلى هذا الخاتم على أنه نوع من التعبير عن الرابط المميز الذي يجمعها بسمير منذ أيام المراهقة، لا تهمها قيمته المادية، لقد تنازلت عن جميع متطلباتها من أجل سمير، ففي خزنتها خاتم السولتير الذي اشتراه لها زوجها الأول، وهو من نوع كارتييه، يبلغ وزن حبة الألماس التي تزيّنه قيراطين ونصف القيراط، وهي من النوع الأزرق الصافي الخالي من العيوب، إنها حتى الآن لم تخبر سمير بموضوع مجوهراتها الثمينة التي أخذتها من زوجها الأول، فهي تريد أن تحتفظ بها سراً في الوقت الحاضر ضماناً لمستقبلها وخوفاً من المجهول.

بعد أن تمّ إعلان خطبتها من سمير، أخذت سلمى تلتقي به يومياً، وأصبحا يمضيان الساعات مع بعضهما بعضاً، يقضيان الوقت بين البحث عن أثاث غرفة النوم، وزيارة الأهل والأصدقاء. اعتاد سمير مشاهدة سلمى يومياً لدرجة الإدمان، أصبح يتصور بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من دونها، لقد أدمن وجودها في حياته، إنَّ مجرد

نظراته إليها تثيره جنسياً، وتحلق به في عالم الخيال، سلمى تدرك مدى العاطفة القوية التي يكنّها لها سمير منذ أيام المراهقة تحت الضغوط المتواصلة من سمير، لم يكن أمامها إلا مسايرته، وسلمته نفسها من أجل الاحتفاظ به، أعطته الجنس بعد أن تأكدت من أنه سيكون الوسيلة الوحيدة للسيطرة عليه.

وصل الخبر إلى نجاح بأن خطيبها السابق سمير، قد عقد خطبته على ابنة عمته سلمى، في أول الأمر صُدمت من الخبر، ورفضت تصديقه، إنها مازالت معتقدةً حتى الآن، بأنَّ تمثال الشمع الذي صنعه أبو مهند لسمير وقام بوخزه بالإبرة، لابد أن يؤتي بثماره، لكن بعكس ذلك، ها هي تسمع في هذه اللحظة بأنَّ الفاجرة سلمى التي تلوك جميع الألسن سمعتها، وكل أهل الشام يعرفون قصة علاقتها مع صديق زوجها السابق، قد تمكنت من خطف حبيبها سمير منها. أحسَّت بكراهية غريبة نحو هذه المرأة الجميلة الساقطة، التي تحرشت بخطيبها سمير، وأغوته لكي يتركها من أجلها، لا تدري ما الذي جذب سمير إليها، فهي غير متعلمة، ولم تدرس في الجامعة، وليست موظفة، كل رأسمالها جسدها، الذي تكشفه على أعين الرجال، ليقعوا في شباكها.

تخيلت نفسها وهي حاملة زجاجة فيها مادة الأسيد واقفة عند مدخل البناء الذي تقطنه سلمى، وعند خروجها من الباب، تركض باتجاهها، وتلقي الأسيد على وجهها، كما شاهدت هذه الحركة مرة في أحد الأفلام الهندية، استمتعت بهذا المنظر لعدة دقائق، ثم عادت من ذهولها إلى أرض الواقع، إنها تعرف بقرارة نفسها، أنه

من المستحيل تنفيذ هذه العملية، لن تستطيع أن تتحمل نتائجها، وسينتهي بها الأمر في السجن وتدمير سمعتها وحياتها.

جاءت لحظة الحقيقة، لابد لها من الذهاب إلى بيت أبي مهند، على الرغم من أنها السادسة مساءً، لم يعد بإمكانها السيطرة على نفسها، ركبت سيارة التاكسي، وبعد نصف ساعة وجدت نفسها في الغرفة المظلمة المشبعة برائحة البخور، تحملق بوجه أبي مهند المتربع كعادته على سجادته في صدر الغرفة، لاحظ أبو مهند أنها في حالة صدمة نفسية، وهي على وشك الانهيار، فطلب من الخادمة السوداء فنجان قهوة تركية لها، وأخذ يهدّئ من روعها، ويقنعها بأنَّ الجني ديمون يحبها، ولا يمكن أن يتخلى عنها، إنه الوحيد القادر على استعادة خطيبها سمير، حيث سيقوم ديمون بما يلزم لتدمير حياة الفاجرة سلمى، كل ما يحتاجه منها الآن، أن تؤمن له صورة لسلمى، لكي يعمل لها تمثالاً من الشمع. سألها فيما إن كان باستطاعتها أن تصل إلى سلمى، لتضع لها في طعامها أو شرابها تعويذةً سيعطيها إياها، سماها الأذية السحرية، فأخبرته بأنها لا تعرفها، فأفهمها بأنه إذا تعذّر عليها إدخال التعويذة إلى جسم سلمى، من أجل إسكان جنيّ شرير في جسدها، فإن ديمون قادر على إدخال التعويذة إلى جسم سلمى، بإرسالها عن طريق روح شريرة، تقوم بنقلها إليها بطريقة غير مرئيّة، كما طلب منها أن تجلب له صورة لسلمى، ورقم موبايلها، وثلاثة آلاف ليرة سورية.

تابع شرحه بأنَّ جسمنا الصلب تسكنه روحنا، أما الجني فهو عبارة عن روح محضة، لذلك فهو قادر على اقتحام جسدنا والعيش معنا

بداخله، ذكر لها أنه في البداية، استعمل مع سمير السحر الأبيض من أجل استعادته، لكن بعد فشل تلك الطريقة، لابد له من استخدام الأذيّة السحرية، وهي نوع من أنواع السحر الأسود.

استفسر منها فيما إذا كانت سلمى قريبة من الرب، أو أنها تعيش في حالة الخطيئة الجسدية، فأكدت له أنَّ سلمى امرأة فاسقة، لم تعرف ربها في يوم من الأيام، فارتاح أبو مهند لسماع هذا الجواب، لأن ذلك سيسهل عليه إلقاء التعاويذ عليها، خافت نجاح من خطورة هذه الكلمات، وأحست بالدوار والغثيان، تصورت أن أبا مهند قد وضع لها مخدّراً بالقهوة، ليتمكن من إخضاعها لرغباته الجنسية، لكنها بعد قليل استعادت توازنها، وخرجت من هذا الوهم الذي عاشته لعدة دقائق، استعادت طبيعتها بعد أن أفرغت ما في جعبتها من الحقد الأسود، تأكدت حينها من أن أبا مهند لم يضع لها أي مواد مخدرة في فنجان قهوتها، فاستعادت مؤقتاً ثقتها به.

ذهبت إلى بيتها وهي تفكر طوال الطريق، كيف ستتمكن من الحصول على صورة لسلمى، فور وصولها إلى البيت اتصلت بإحدى معارفها التي هي من صديقات سلمى، حاولت أن تسألها بمعرض الحديث، وبصورة غير مباشرة عن شكل سلمى، فكان جواب صديقتها، افتحي الفيسبوك على صفحتها، فستشاهدين لها عشرات الصور، التي نزلتها لإبراز جمالها وجذب انتباه الرجال إليها، وأعطتها رقم موبايلها. خمّنت نجاح بأن مشكلتها بدأت تنحل، وكل ما تحتاجه في الوقت الحاضر قليل من الصبر والتركيز.

في اليوم التالي عادت نجاح إلى بيت أبي مهند، ومعها الصور

ورقم الهاتف وثلاثة آلاف ليرة، أدخلتها الخادمة السوداء إلى الغرفة المظلمة، لتجد أبا مهند كعادته جالساً على الأرض في صدرها، أخذ منها المصاري والصور ورقم الموبايل، جعل يطيل نظره في أرقام الموبايل ويتمعن فيها، ثم سحب آلة تسجيل صغيرة موجودة إلى جانبه، وشغلها فخرج منها صوت هامس ضعيف غير مفهوم.

طلب رقم سلمى، وضع سماعة الهاتف بالقرب من آلة التسجيل، بعد عدة رنات، ردت سلمى على الهاتف، ولم تسمع سوى همس هذه الكلمات غير المفهومة، أخذت تعصّب وهي تقول: ألو... ألو.. . ألو.. لكن لا وجود لأي صوت على الطرف الآخر للخط، ظلت تردد: ألو... ألو... ألو، للحظات، ثم أغلقت الهاتف.

بعد دقيقتين تناول أبو مهند الهاتف، وطلب رقم سلمى من جديد، وضع السماعة مثل المرة الأولى بقرب آلة التسجيل، مكرراً المشهد نفسه، فردت سلمى على الفور، ولم تسمع سوى هذا الصوت الذي يشبه طنين النحل، ففقدت أعصابها وهي تصرخ: ألو... ألو... وهي تشتم هذا المتصل المجهول الغليظ، وتهدده بالشرطة فيما إذا كرر الاتصال معها مرة ثانية، ثم أغلقت الهاتف بغضب.

بعد أن انتهى أبو مهند من اتصاله الهاتفي، حاول أن يقنع نجاح بأنه خلال هذه المخابرة الهاتفية، قد قام بإدخال تعويذة سحرية بالصوت إلى عقل سلمى، من دون أن تعي ذلك، لكي يضعفها ويجعلها تتقبل دخول الجني إلى داخلها، ليتمكن لاحقاً من الاستحواذ عليها.

غادرت نجاح بيت أبي مهند، على أن تعود بعد ثلاثة أيام، يكون خلالها أبو مهند قد أحضر تمثالاً من الشمع لسلمى، ليستعمله خلال

الخلوة التي سيقيمها في بيته، للاحتفال بتقديم الأضاحي لملك الجن، جلباً للخير، ودفعاً للسوء الذي تضمره سلمى.

حسب الموعد، رجعت نجاح بعد ثلاثة أيام إلى بيت أبي مهند، وبينما هي جالسةً وحدها في سيارة التاكسي متوترةً تتنازعها أحاسيس متناقضة من القلق والفرح، تعود إلى شعورها بالخوف مما سيحدث لها من هذه العلاقة الخطِرة التي ستجمعها بالجني ديمون، ومعرفتها بالوقت نفسه بأنه سيكون بمقدرتها استعادة حبيبها سمير.

خطر لها في منتصف الطريق أن تطلب من سائق التاكسي أن يغير اتجاهه، ويعيدها ثانية إلى بيتها، إن استجابتها لفكرة الخوف حركت في داخلها فكرة الهروب، ولكن رغبتها في استعادة سمير دفعتها إلى القبول بالتحدي والمواجهة.

دخلت بيت أبي مهند، ففوجئت برؤيته على غير عادته جالساً على الحصيرة، في باحة الدار المستطيلة المفتوحة على السماء، التي تتوسطها بحرة صغيرة من الرخام، لفت انتباهها وجود طشتين من البلاستيك بجانب البحرة، طلب أبو مهند منها الجلوس أمامه على الحصيرة، شرح لها أنه سيقوم بتقديم قربان من الماعز الأسود، لاستحضار الجني ديمون، وأنه سيتواصل معه، من خلال قراءة أجوبته على ورقة الكرتون التي تغطي الطشت الصغير، التي كتب عليها بخطّ كبير، كلمة لا في أعلى الركن الأيسر، وكلمة نعم في أعلى الركن الأيمن، كما تمّت كتابة الأحرف العربية في منتصف الورقة بشكل صغير.

طلب من الخادمة إحضار كأس من الماء، وأخرج من جيبته حبة صغيرة بيضاء، وطلب من نجاح أن تبتلعها مع الماء، في البداية خافت

نجاح من ابتلاع الحبة، وتصورت أن أبا مهند قد وضع في داخلها مخدراً ليتمكن من اغتصابها.

استوعب أبو مهند مخاوف سلمى، فطمأنها بأنه لا يستطيع أن ينام معها، لأنها خطيبة الجني ديمون، وأنه لو كان يود فعل ذلك، لكان قد خدّرها من خلال فنجان القهوة الذي شربته عنده منذ ثلاثة أيام، وجدت نفسها مضطرة لابتلاع الحبة، بعدها أخرج أبو مهند آلة التسجيل الموجودة إلى جانبه، وأعطاها سماعتين وضعتهما فوق أذنيها، وأدار جهاز التسجيل، وبذلك سلط ترددين مختلفين قليلاً عن بعضهما بعضاً في كل أذن، فسمعت صوت تردد نبض سريع مختلف في كل من أذنيها، ما عرض دماغها إلى ذبذبات كهرومغناطيسية متضاربة، أدت لفرز مادة الدوبامين المنشطة، فأعطتها إحساساً بالنشوة والتخدير، إنها المخدرات الرقمية التي تؤثر مباشرةً في دماغ الإنسان، وتصيبه بحالة من الهوس والشرود، ثم طلب منها أن تتمدد على البساط وتسترخي وتغلق عينيها، ليظهر لها الجني ديمون.

ذهبت حبة الهلوسة بعد فترة بعقلها وإدراكها، انفصلت تماماً عن الواقع، وشعرت بأنها أصبحت مركز العالم، بدأت بالتعرق، وتسارعت دقات قلبها، وازداد ضغطها، وأخذت تعاني جفافاً في فمها.

التقطت أذناها أصواتاً قادمة من بعيد، تتحدث مع بعضها، وكأنها تريد أن تخبرها بأشياء غريبة ستحدث معها بالمستقبل، ميزت من بينها صوت سمير وهو يطلب منها أن تعود إليه، شاهدته وهو يجلس بجانبها في حفلة العرس تحت الأضواء الساطعة، وقد أمسك بيدها، شمّت رائحة الورد الموجودة بكل مكان في أرجاء الصالة، تصورت بأنها مسافرة

في رحلة روحانية عجيبة، تخيلت فيها أشياء ووجوهاً غريبة ومخيفة وأحداثاً غير مترابطة تمر أمام عينيها في شريط سينمائي سريع.

لقد أحست أنها انفصلت عن إطار الزمان والمكان محلقة بعيداً من العالم، ثم انتابتها نوبة من الفزع، وهي تشاهد كميات لا نهائية من النمل تخرج من شعرها متجهة إلى صدرها، فبدأت بصراخ هستيري، كما لو أن كل كيانها قد تحول إلى صراخ. أصيبت بهلوسات مخيفة شعرت فيها بأنها مستيقظة، ولكنها مشلولة لا تستطيع الحركة، وعلى وشك أن تختنق.

لاحظ أبو مهند أنها تتعرض لنوبة من الصرع، فأخذ يهزها بيديه بعنف، وبعد فترة قصيرة استيقظت من الكابوس الذي تعيش فيه، عندئذ هدأت وارتاحت، وعادت إلى عالم الواقع. أخرج أبو مهند صورة سلمى، وبدأ يقرأ كلمات غير مفهومة، وينفث على الصورة، لتخرج روح خبيثة من فمه بالنفث، تاركة آثار لعابه على صورة سلمى، ثم أحضرت الخادمة السوداء ماعزاً صغيراً أسود، فقام أبو مهند، وحمله بقسوة ليضعه داخل الطشت الكبير، وكأنه يتلذذ بتعذيب هذا الضعيف الصغير.

وضع رجله اليسرى على بطنه، ثم حزَّ رقبته بسكين صغيرة، غير عابئ برغاء المسكين ورجفان جسمه، فنفر الدم من رقبته، وملأ الطشت، وبعدها طلب من الخادمة أن تجلب كأساً من الفضة، فملأها بالدم، وأعطاها لنجاح لتشربها، أخذت نجاح الكأس من دون مبالاة وشربتها، حتى إنها استطعمت بنكهة مجهولة، وهي تتذوق هذا الطعم المعدني لأول مرة في حياتها، ثمَّ غمس أبو مهند يده اليسرى

في دم الطشت وأخرجها، وطبع بإبهامه على جبينها، ثم على خديها ثلاث نقاط من الدم، مرسخاً العهد الذي أقامته مع الجني ديمون.

عندما انتهت مراسم هذا الاحتفال الشيطاني، أخبرها أبو مهند بأنه اتصل مع الجني ديمون أثناء رحلتها الغيبية إلى السماء، بوساطة الأحرف المكتوبة على قطعة الكرتون، فأكد له ديمون أن جميع طلباتها سوف يتم تحقيقها، وأنه أصبح منذ اليوم مسؤولاً عنها، وتعهد بأنه سيعيد إليها خطيبها سمير، أحست نجاح بأنها قد أصبحت امرأة أخرى، أصبح الآن بإمكانها بمساعدة الجني ديمون، أن تستعيد خطيبها سمير، وتدمّر سلمى.

مع مرور الوقت ازداد تشابك علاقة سلمى مع سمير، أصبحت تجد نفسها مضطرة رغماً عنها لمسايرة رغباته الجنسية، فعلاقتها الحميمة الجديدة معه هي بكل تأكيد امتداد للعلاقة العاطفية القديمة التي كانت تجمعهما في أيام المراهقة، أحياناً تتصور بأنَّ عليها الاستمرار في إعطائه الجنس لضمان زواجهما، في البداية حاولت أن تجعل الأمور تأخذ مجراها بعفوية لكيلا تخسره نتيجة لاقتناعها بشدّة إخلاصه لها، فهو الوحيد الذي تقدم لخطبتها، بعد فضيحة علاقتها العاطفية مع صديق زوجها السابق، إنه السند الوحيد لديها الآن، بعد أن تخلى عنها أغلب أصدقائها، ما دفعها لأن تغض النظر عن ظروفه المادية والقبول بالسكن مع أمه في بيت واحد متخلية عن أحلامها بأن تعيش حياة سعيدة مع شخص ثري يلبي جميع رغباتها.

علاقتها الجنسية معه جعلتها على دراية بمعظم تفاصيل أمور حياته، فهي تعرف من تجربتها السابقة بالزواج، بأن التوافق الجنسي

ضروري لاستمرار الحياة الزوجية، لكنها تخاف بالوقت نفسه من أن تخلق علاقتها الجنسية معه قبل الزواج انطباعاً لديه بأنها امرأة سهلة المنال، يمكنها أن تستسلم بعد الزواج لأي رجل ينال إعجابها، ما الذي سيمنعها من أن تخونه كما خانت زوجها الأول؟ كما أنها تخاف من أن يستغل هذه العلاقة بالمستقبل للضغط عليها وإجبارها على مزيد من التنازلات.

إنها تعيش هذا الصراع النفسي في كل لحظة، بسبب مفاهيم التحرر التي تعلمتها من السينما والتلفزيون، بينما عليها بالوقت نفسه، الالتزام بمفاهيم أسرتها عن الحرية الجنسية، وخصوصاً بعد فضيحتها الأخيرة وطلاقها من زوجها الأول، وهذه الشكوك دفعت سلمى إلى محاولة التوقف عن إرضاء رغبات سمير الجنسية.

على الرغم من قوة العلاقة التي تجمعهما، بدأ سمير يشعر ببعض الملل والرتابة تدب في هذا الاندماج، لم يعد يستمتع بفترة الخطبة، وخصوصاً بعد أن بدأت سلمى تخلق الأعذار في كل مناسبة، للتهرب من إقامة العلاقات الحميمة معه. بالنسبة إليه لقد أصبح الجنس أمراً مفروغاً منه، لكن مع تكرار رفضها لهذا الارتباط، اهتزت ثقته بنفسه، وبدأ يعتقد أنه قد لا يكون رجلاً، بما يكفي لإسعادها، لعله كان يبحث في أعماق نفسه عن المسوّغات التي قد تساعده للهروب من الزواج.

الخوف من الالتزام والمسؤولية من عدم قدرته على تأمين تطلعاتها إلى حياة هينة، فيها جميع وسائل الراحة والرفاهية التي تعودت أن تعيشها مع زوجها السابق، جعلته يعيد التفكير، فيما إذا كانت سلمى هي الزوجة المناسبة له.

إن وجود هذا التفاوت الكبير في مستوى ثقافتهما، دفعه إلى التردد أمام متابعة هذه الخطوات التي ستقوده حتماً إلى الزواج. بالنهاية تحامل على نفسه، وقرّر طرد هذه الأفكار السوداء من مخيلته، لإدراكه بأنه لن يستطيع أن يتابع حياته من دون سلمى.

لاحظت سلمى بالفترة الأخيرة أن طريقة معاملة سمير لها قد تغيّرت، وأنها أصبحت شيئاً مفروغاً منه في حياته، أصبح يهملها في بعض الأحيان لاعتقاده بأنه يمتلكها، بدأت تشعر بالقلق والخوف وعدم الأمان، لكن ذلك زادها إصراراً على عدم مسايرته والخضوع لطلباته الجنسية. لعل رفضها يكون دافعاً له إلى الإسراع في إتمام عملية الزواج، بغية الحصول على حاجته الجنسية منها، يجب ألا تكون كالكتاب المفتوح، فلابد من أن يكون هناك بعض الغموض في تعاملها معه بعد اليوم، إن كثرة مسايرتها له، جعلته دائماً يتوقع ردود أفعالها، التي تنتهي بالموافقة على جميع طلباته، ما أفقدها كثيراً من غموضها وجاذبيتها التي كانت تميزها عن كل معارفها.

تكهنت سلمى بأنَّ اندماج خطيبها سمير مع أسرتها سيعيد الدفء إلى علاقتهما، وسيؤدي إلى التغيير والتجديد في نمط سلوكهما، ولاسيما أنه قد نضب مؤخراً الحديث بينهما، فأمست أمها تدعو سمير باستمرار إلى العشاء في منزلهم، لقضاء الوقت بصحبتهم لتجديد الألفة والتقارب، ولإعطائه الانطباع بأنه جزء من العائلة، ولتمارس أمها بالوقت نفسه ضغوطها العائلية على سمير بوصفها عمته، من أجل الإسراع في إكمال معاملة الزواج.

في الأيام القليلة الماضية تغير مزاج سلمى، بدأ يعتريها الخوف كلما

ازداد موعد اقتراب عرسها من سمير، لمجرد تصوّرها بأنها ستعيش مع حماتها في بيت واحد، فهي تخشى من أنها لن تستطيع أن تتعايش وتتعامل مع حماتها، يخطر لها أحياناً، بأنه لا يمكن لهذه الزيجة أن تتم إلا إذا عاشت في بيت مستقل يعطيها مساحتها الخاصة، لتمارس فيها حريتها الشخصية، لكنها تعرف جيداً أوضاع سمير المادية، إن إثارتها لهذا الموضوع في هذا الوقت المتأخر، قد يجهض هذه الزيجة، إنها تحت ضغوط نفسية كبيرة، فهي مشوّشة التفكير، شاردة الذهن، تحاول الهروب من واقعها الذي تعيش فيه، تسيطر عليها الوساوس والهواجس التي لا تنتهي، وتعاني آلاماً حادة في رأسها بصورة مستمرة، وقد لجأت إلى تناول الحبوب المهدئة للأعصاب، لكي تساعدها على تخطي المشكلات التي تمر بها، بالنهاية تولد لديها إحساس داخلي بأنها على غير طبيعتها.

باحت سلمى لأمها، بماهية هذه الأفكار الغريبة التي تتسلط على عقلها، فمنذ يومين اتصلت بعشيقها السابق، الذي تعرف جيداً بأنه مازال يحبها، طلبت منه أن يطلق زوجته لكي يتزوجها، قبل أن يفوت الأوان، وتتزوج من ابن خالها سمير، إنها متأكدة من أن أحواله المادية الجيدة، ستساعدهما على تخطي جميع المشكلات وأقاويل الناس، لأن للنقود قدرة عجيبة على تغطية جميع العيوب والشائعات. هنا جنَّ جنون أمها، أدركت أن سلمى على أبواب انهيار عصبي، وأنها غير واعية لتصرفاتها، وستتسبب للعائلة ولنفسها بفضائح جديدة تدمّر سمعتها، وتغطي على جميع فضائحها السابقة.

لا شك أن خطيبة سمير الأولى نجاح وأهلها قد ربطوا ابنتها سلمى، لكيلا تتزوج أبداً، من دون أي تردد، ما كاد زوجها يصل من

مكتبه الهندسي، حتى صارحته بأنَّ ابنته مربوطة بوساطة تعويذة سحرية، وأنه إذا لم يتم فكّ التعويذة فوراً، فإن العائلة ستتعرض لمذلة كبيرة أمام أهلهم وأصحابهم.

صارحته بالتفصيل، بماذا يوسوس الشيطان لابنته سلمى، احتوى زوجها هواجسها، وطمأنها بأنَّ سلمى قد تكون تمرُّ بمرحلة من الاكتئاب، لذا من الأفضل مراجعة طبيب نفساني ليساعدها على تخطي هذه المرحلة، رفضت الأم في بادئ الأمر أن تعترف بأن ابنتها مريضة نفسياً، وأنها بحاجة إلى طلب المساعدة من طبيب نفسي، إنها تفكر بماذا سيقول سمير والناس عنها، إذا سمعوا بأنها تتردد على عيادة طبيب مختص في معالجة الأمراض العقلية.

تحت إلحاح وتهديدات زوجته، وافق بالنهاية على أن تسافر سلمى مع أمها إلى بيروت، لاستشارة طبيب نفساني هناك، على ألا يعرف أحد بذلك، بحجة أنهما ذاهبتان لشراء فستان الزفاف من بيروت، وهي عادة درج عليها الميسورون في دمشق، لإشعار الآخرين بأهميتهم الاجتماعية.

راجعت أحد الأطباء النفسيين المعروفين في بيروت، بعد وصلولهما إلى عيادته، أدخلتهما الممرضة إلى غرفة المعاينة، بادرهما الطبيب بابتسامة عريضة قائلاً: إننا جميعاً مرضى نفسيون، حتى إنني أنا أيضاً أتردد بين فترة وأخرى على إحدى العيادات النفسية للعلاج، بعث هذا الكلام الطمأنينة في نفس سلمى، فانطلقت من دون وعي، تتحدث عن وساوسها وهواجسها، فشرح لها الطبيب أنَّ هذا الخوف طبيعي عند كل شخص منا، واقترح على والدتها أن يخضعها لأربع

جلسات من التحليل النفسي، تتحدث من خلالها معه على انفراد عن مخاوفها الداخلية، لكي يساعدها على فهم العديد من هذه الدوافع التي تحركها، والتي كانت تجهلها بالماضي، ما سيساهم بنسبة كبيرة في تخفيف معاناتها الداخلية، ويعزز ثقتها بنفسها.

فعلاً بعد الانتهاء من هذه الجلسات، شعرت سلمى بتقدم كبير في حالتها الصحية، وصف الطبيب لها بأن تتناول حبوب بروزاك لفترة ثلاثة أشهر، وهو دواء نفسي معروف لمعالجة الاكتئاب، أكد لها أنه لا داعي للقلق من استعماله، فليس له ردود أفعال جانبية، وأنَّ أغلبية الشعب الأميركي يتعاطى هذا الدواء، إذا لم تتحسن حالتها، فعليها أن تخضع لعدد من جلسات التحليل النفسي، التي ربما تستغرق فترة طويلة. إنه يعرف طبيباً نفسياً ناجحاً في دمشق، كان طالباً معه بالصف أثناء دراستهما الطب في فرنسا، وهو ينصحها بأن تتصل بعيادته عندما تعود إلى دمشق.

عادت سلمى مع أمها بعد أن أمضتا خمسة أيام في بيروت، وهي تشعر بتحسن ملحوظ في صحتها، لكن لم تمضِ عدة أيام حتى عادت إليها وساوسها القديمة، وأخذت أحوالها بالتدهور من جديد، هنا استنتجت أمها، بأنَّ على ابنتها سلمى مراجعة عالم روحاني شاطر، لإنقاذها قبل فوات الأوان.

وضعت زوجها أمام الأمر الواقع، بأنها ستسافر مع سلمى إلى بيروت لمراجعة أشهر عالمة روحانية فيها، واسمها رشيدة، إنها الوحيدة القادرة على فكّ التعويذة السحرية المعمولة لابنتها. حاول زوجها أن يقنعها من جديد، بأنه لا يؤمن بهذه الخزعبلات، وأنَّ على سلمى

أن تستمر بأخذ حبوب البروزاك لفترة، حتى يعطي الدواء مفعوله، لتتحسن حالتها النفسية، لكنها رفضت الاستماع إلى محاضرته.

في المساء اجتمعت مع ابن أخيها سمير، وأطلعته بصراحة على حقيقة مخاوفها، من أن تكون خطيبته السابقة نجاح قد ربطت ابنتها سلمى، لدهشتها وافق سمير مباشرةً على رأيها، وأيد نظريتها، إنه شخصياً يؤمن بالسحر وقوى ما وراء الطبيعة، وهو متأكد من أنَّ التوازن هو الأساس في تركيبة الإنسان، ويقوم مبدأ السحر على إبطال التوازن الموجود في شخصية كل واحد منا.

لاشك أنَّ سلمى قد فقدت توازنها بفعل أذية سحرية، بعد أن حصلت أمها على تأييد سمير لفكرتها، أصبح من الصعب على زوجها معارضتها، لقد اتخذت قرارها النهائي، بالسفر في اليوم التالي إلى بيروت، لمراجعة العرّافة رشيدة المشهورة على صعيد لبنان وسورية، والتي هي وحدها القادرة على تخليص ابنتها من هذه اللعنة التي أصابتها.

بعد أن وصلت سلمى وأمها إلى فندقهما المتواضع في بيروت، تركتا حقائبهما، وذهبتا مباشرة إلى منزل رشيدة في شارع الحازمية، في ردهة الاستقبال كانت هناك زحمة غير عادية من النساء المتباينات بالأشكال والأعمار، اللواتي جئن لمراجعتها، وبعقلية الشطارة المتجذّرة في أعماق السوريين، ذهبت أمها إلى المرأة الجالسة عند المدخل والمسؤولة عن تنظيم دخول السيدات، ودست بخفة في يدها مئة دولار هديةً منها على عربون تعارفهما، وكما هو متوقع، ضربت المسؤولة لهما موعداً لمقابلة رشيدة في صباح اليوم التالي.

حسب الموعد دخلت سلمى وأمها إلى غرفة بسيطة الأثاث، تجلس على كنبة في صدرها امرأة متوسطة العمر، وقد وضعت على رأسها غطاء أبيض، طلبت منهما الجلوس على الكنبة المواجهة لها، ومن دون أي مقدمات، وجهت رشيدة كلامها إلى سلمى قائلةً: إنها ليست على طهارة، طلبت منها مغادرة الغرفة فوراً، والانتظار خارجاً بالردهة، حيث إن هناك حديثاً خاصاً تريد أن تجريه مع أمها، بوغتت سلمى بهذا الطلب، واعتبرته إهانة شخصية لها، وهي البنت المدللة الجميلة، التي يتهافت مئات الرجال للتقرب منها، فغادرت الغرفة وهي تحبس دموعها. ذهبت مباشرة إلى الفندق لتحزم حقيبتها، وتعود مباشرة إلى دمشق، قالت رشيدة باختصار لأمها: إن رائحة الشيطان تفوح من ابنتها، وإنها ليست على استعداد لأن تستقبلها بالمرة القادمة في بيتها، قبل أن تغتسل وتصلي ركعتين لوجه الله على نية التوبة، فيما إذا ما ظلت تود في أن تعود ثانيةً لمقابلتها.

خرجت أمها مسرعة، فلم تجد سلمى بانتظارها في الردهة، فأخذت تاكسي ولحقت بها إلى الفندق، فوجدتها تحزم حقيبتها، لقد اتخذت قرارها النهائي بالعودة إلى دمشق، حاولت أمها تهدئتها، لكن سلمى كانت في وضع نفسي سيّئ، من جراء هذه الإهانة التي لحقت بها. أصبحت أمها بدورها في وضع محرج، أخذت الهاتف واتصلت مباشرة مع سمير، شرحت له الموقف، بأنَّ سلمى مصممة على العودة إلى دمشق، ولكي يحسم سمير الأمور، ويضع سلمى في موقف لا يمكنها التنصل منه، أخبرهما بأنه سيحضر غداً صباحاً إلى بيروت، طلب من سلمى أن تكبر عقلها، وأن تتوقف عن أعمال الولدنة، وتسمع كلمة والدتها.

تحت هذا الموقف المتشدّد من خطيبها سمير، لم تجد سلمى أمامها بداً من مسايرة أمها. دخلت الحمام، وجلست تحت الدوش بنية الاغتسال والتطهّر، أحست بقطرات الماء الساخنة تنساب على جسدها، وعادت بها الذاكرة إلى أيام صغرها، كيف أنها كانت متديّنة، وكانت تعتقد دائماً، بأنَّ العناية الإلهية لا يمكن أن تتخلى عنها. تذكرت قبلتها الأولى مع سمير، والتي ما زالت تحسّ بطعمها حتى الآن، لا تدري كيف جرفها التيار، ودخلت في علاقتها المحرمة مع صديق زوجها، نتيجة لفشل حياتها مع زوجها العجوز.

بدأت تسير في طريق مجهول، كلما توغلت فيه، ازدادت ابتعاداً عن اللّه، بالنهاية أقنعت نفسها بأنَّ الدين يحدّ من حريتها الشخصية، ويمنعها من الاستمتاع بالحياة، فقررت قطع علاقتها بكل ما يمت بصلة إلى اللّه.

أصبحت أسيرة رغباتها الجسدية، توسلت إلى هذه القطرات التي تزحف على جسدها، أن تطهرها من آثار الخطيئة التي ترسبت في داخلها. تعرف سلمى من زمان، أنَّ الاغتسال بالماء عادة قديمة تمارسها جميع الأديان، من أجل التطهّر والولادة من جديد، إن للماء قدرةً عجيبةً على التفاعل مع جسم الإنسان، تصورت أن قطرات الماء المتدفقة على جسدها تتغلغل في بشرتها، جارفةً في طريقها جميع الآثام التي علقت فيها من الماضي، منظفةً روحها من الدنس.

أجهشت في البكاء، واختلطت دموعها مع قطرات الماء المنسابة على وجهها، شعرت بنوع من السكينة الداخلية التي لم تعرفها إلا في أيام طفولتها، عندما كانت تجلس في حضن أمها، تمنت لو أنها

تستطيع أن تبقى جالسة تحت ذرات الماء المتناثرة على جسدها طوال الليل، لتكتشف فجأة في هذه اللحظة، أنها قد تحررت من خطيئتها، ولم تعد ترزح تحت تأنيب ضميرها، أحسّت بأنها تولد مرة ثانية من جديد.

وصل سمير إلى بيروت، واتجه مباشرة إلى الفندق الذي تقيم فيه سلمى مع أمها، بعد أن جلس معهما لفترة قصيرة، كان لابد لهما من تركه وحده، والذهاب إلى مقابلة رشيدة، إنَّ وجوده إلى جانبها أعاد لها ثقتها بنفسها، وتأكدت من أنه الزوج الذي يمكنها الاعتماد عليه في المستقبل. بعد وصولهما إلى بيت رشيدة، دخلتا إلى غرفتها المخصصة لمقابلة ضيوفها، جلستا كعادتهما عل الكنبة المواجهة لها، وجهت رشيدة سؤالها مباشرة إلى سلمى: كيفك اليوم..... أجابتها سلمى: الحمد لله رب العالمين..... بعدها ساد سكون عميق أجواء الغرفة، فكرت أمها بأن تتدخل لتقطع هذا الصمت الذي يغلف المكان، لكنها لم تجد في نفسها الجرأة الكافية لفتح الحديث، أدركت سلمى أنها على أبواب رؤيا جديدة، لما يدور من حولها، إنَّ الأمور كلها لا تجري بالطريقة التي كانت قد اعتادت عليها.

لقد عاشت الوهم بكل تفاصيله، من خلال مشاهدتها الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، ومن مطالعتها المجلات التي تتابع حياة الفنانين وأخبار الموضة، إنها تتخدّر في كل يوم نتيجة لتفاعلها مع عالمها الافتراضي، ومع مجتمعها المخملي الذي تغوص فيه.

لقد تمكنت الميديا من أن تخلق لها عالماً وهمياً يشبه في كثير من صفاته العالم الذي تعيش به، ومن كثرة تركيزها على تفاصيل

حياتها اليومية، أُعميت بصيرتها، ولم تعد قادرة على رؤية الصورة الشاملة للحياة، ولا على إدراك القوة الواعية الحقيقية التي وراء تنظيم هذا الكون.

لما وصلت إلى اكتشاف هذه الحقيقة، انتابها نوع من السكينة والطمأنينة، التي لم تعهدهما منذ فترة طويلة، أصبحت جرعات التخدير التي تحصل عليها يومياً من عالمها الوهمي غير كافية لإشباع لذّاتها الجسدية، فهناك عالم روحي آخر موجود في داخلها ترفض الاعتراف به.

أيقنت سلمى من خلال هذه الدقائق القليلة التي أمضتها بالغرفة مع رشيدة، بطبيعة هذه العلاقة الروحية التي جمعت بينهما، عن طريق تبادل الأفكار، من دون أن تشعر أمها بذلك، عندما وصلت هذه المداخلة إلى نهايتها، غادرت سلمى وأمها الغرفة، وعادتا إلى فندقهما.

قررت سلمى أن تعود إلى دمشق في هذا اليوم، استوعبت أنَّ مهمتها التي قد أتت من أجلها إلى بيروت قد تمّ إنجازها، على الرغم من أنه لم يمضِ أكثر من خمس ساعات على وصول سمير إلى بيروت.

استأجروا تاكسي، وعندما همَّ سمير بالجلوس معهما بالمقعد الخلفي كما يفعل دائماً، ليستمتع خلال الطريق بمسك يدها والضغط على أناملها، ومداعبة خصلات شعرها، باغتته سلمى بطلبها منه، أن يجلس إلى جانب السائق، بحجة أنَّ المسافة طويلة، وأن وجود ثلاثة أشخاص في المقعد الخلفي قد لا يكون مريحاً بالنسبة إليه.

استغرب هذا الطلب من سلمى، ولكنه تحامل كعادته على نفسه،

لكيلا يزعجها، وقد أدرك بذكائه المعهود أنَّ سلمى تعيش مرحلة جديدة من حياتها، أثناء الطريق حاول سمير أن يبدو طبيعياً، أخذ يحدثهما كعادته عن الحاجات الوهمية التي يخلقها المجتمع الاستهلاكي للناس، وأنَّ باستطاعتهما الاستغناء عن كثير من هذه الحاجات غير الضرورية، لتوفير أكثر من نصف مصروفهما اليومي، ثم أخذ ينصح سلمى بالاسترخاء والتعوُّد على استنشاق الهواء بشكل عميق، لكي تحصل على أكبر كمية من الأوكسجين، التي هي أساس الحياة، من دون دفع أي قرش مقابل ذلك.

جلست سلمى مستمتعةً بالإنصات إليه، على الرغم من سماعها لهذه المحاضرات، من قبل لعشرات المرات، فجأة مدت يدها على مؤخرة رأس سمير، وعبثت بخصلات شعره، وقاطعت حديثه قائلة: إنها عدت الآن عشر شعرات بيضاء في رأسه. وتابعت: إنَّ الزمن يمضي، وإنه يتقدم بالعمر، وعليه أن يفكر بآخرته.

هذه الكلمات القليلة، لا يمكن أن تمرَّ على عقل سمير ببساطة، فهو مصاب بعلة التحليل والتعليل، أدرك أنّ سلمى قد أصبحت أكثر وعياً من الماضي، وأنها انتقلت إلى مرحلة التفكير بلغة الأرقام، بدلاً من مرحلة الكميات، ثم تابعت حديثها، لتفاجئهما بأنها قررت إلغاء إقامة حفلة عرسها بفندق الشيراتون.

كعادتها في كل صباح، أعدت أم سلمى فنجاني القهوة التركية، وجلست إلى جانب زوجها في بلكونتهما المطلة على شارع المزرعة، لتدردش معه حول آخر أخبار البيت، أطلعته بأنَّ سلمى قد قررت إلغاء إقامة حفلة عرسها في فندق الشيراتون، كما أنها ترى شخصياً، بأنه

لا داعي لتبذير النقود في هذه الحفلة، وربما من الأفضل الاحتفاظ بهذا المبلغ من أجل مستقبل البنت.

استغرب زوجها هذا الكلام، وهي التي كانت تلح على إقامة حفلة طنانة رنانة لابنتها، لكي تخرس بها أهلهم ومعارفهم، الذين لا يتوقفون عن ترديد الشائعات حول ابنتهما، وأضافت بأنها تفكر، لو أنَّ سلمى توافق على بيع خاتم السولتير، وجميع قطع مصاغها التي أخذتها بعد طلاقها من زوجها الأول، وتجمع هذه المبالغ مع بعضها، لكي تشتري بيتاً صغيراً مؤلفاً من غرفتين، يتمّ تسجيله باسمها في الطابو، إنها متاكدة بأنَّ سلمى لن تكون سعيدة بالعيش مع حماتها في بيت واحد، وأخبرته بأنَّ من واجبه تسديد الفارق بين سعر البيت والمبلغ المتوافر لدى سلمى، فأجابها بكلمة إن شاء الله.

اقتنع بداخله بهذه الفكرة، ونظراً لطبيعة عمله مع المقاولين وتجار الأبنية، فقد وجد بسهولة وبسعر معقول بيتاً مؤلفاً من غرفتين وصالة واسعة في مشروع دمر السكني، يتطابق مع متطلبات زوجته، إنَّ كل ما عليه الآن، الحصول على موافقة سلمى لإتمام هذه الصفقة الجيدة.

في المساء، عند جلوسهم جميعاً حول طاولة العشاء، فاتحت الأم ابنتها وسمير بما تخطط له مع زوجها، من أجل شراء بيت مستقل لسلمى، لكي ينتقلا للعيش فيه بعد كتب كتابهما. و أنه لا داعي لحفلة العرس، ولا لشهر العسل، ولا لتبذير المصاري من دون أي طعمة.

لم تخفِ سلمى فرحتها بهذا الخبر، لأنها في هذه اللحظة لم تكن تفكر إلا بإسعاد سمير، إنَّ كل ما تتمناه من ربها أن يرزقها بعد

زواجهما بصبي لكي تسميه باسم المرحوم أبيه، فهي واثقة من أنَّ سمير سيفرح كثيراً بهذا الصبي، لأنه عاش يتيماً، ولا شك أنه يفتقد كثيراً إلى حنان أبيه.

لما تطرأت أمها إلى موضوع فرش البيت، صارحهم سمير، أنه بعد شرائه خاتم السولتير الصغير لسلمى، لم يبقَ معه سوى أربعة آلاف دولار، هنا استلمت سلمى دفة الحديث، وأكدت بشكل حازم وبلهجة جدية، لكيلا تترك لأمها أي فرصة للتدخل بالموضوع، بأنَّ سمير سيقوم بنقل غرفة نومه التي يستعملها حالياً في بيت أمه، إلى بيتهما الجديد، مع أنها تعرف أنَّ أثاث هذه الغرفة مستهلك وقديم، بحكم أنها كانت تساير سمير أحياناً، وتقضي معه بعض الوقت في غرفة نومه، أثناء وجود والدته خارج المنزل. أضافت: إن مبلغ أربعة الآلاف دولار كافٍ لشراء أثاث غرفة الصالون وبعض الحاجات الضرورية للمنزل، أما الغرفة الثانية فلا داعي لفرشها في الوقت الحاضر، وسيتم شراء أثاثها بالمستقبل، بعد قدوم طفلهما.

توقعت الأم كل شيء من سلمى، إلا أن توافق على أن تتزوج من عريس وتعيش معه على فراش غرفة نومه القديمة، لكن تحت هذه اللهجة الجدية التي سمعتها من ابنتها، لم يكن باستطاعتها إبداء رأيها. نظرت إلى زوجها مطالبة إياه بالتدخل لدعمها في هذا النقاش، ولكنه تجاهل نظرتها، وختم حديثه، بأنه قرأ مرة في كتاب، دع القلق وابدأ الحياة، للكاتب الشهير ديل كارنجي، جملة مازالت عالقة في ذاكرته حتى الآن، تقول: لا تعبر جسراً حتى تصل إليه. امتعضت من كلمات زوجها، واعتبرتها موافقة ضمنية على كل ما تخطط له سلمى،

الشائعات تنتشر وتدور بين الناس، ويتغير شكلها في كل مرة تنتقل فيها من شخص إلى آخر، حتى تفقد بنهاية المطاف حقيقتها الأصلية.

وصل الخبر إلى نجاح، بأنَّ سلمى قد باعت صيغتها التي سرقتها من زوجها الأول، واشترت بيتاً وسيارة، لكي تقنع سمير بالزواج منها، شعرت نجاح بكراهية عميقة نحو زوج سلمى الأول، الذي وافق على أن يعطي زوجته الخائنة كل مصاغها، بدلاً من أن يقوم بذبحها، بعد أن لطخت شرفه بالتراب، ثم انتقلت عدوى الكراهية إلى أبي مهند، الذي سرق نقودها، ولم يستطع منع إتمام هذه الزيجة.

بالنهاية سيطر عليها شعور عميق بالكراهية لنفسها ولكل الأشخاص الذين تعرفهم بلا استثناء، إن العدالة لم تعد موجودة في هذا العالم. لم تعد هناك قوانين أخلاقية تردع الناس عن تحقيق مطامعهم الوسخة، لقد تحول الناس كلهم إلى قطيع من الذئاب المفترسة، وأول ما خطر على بالها، بأنَّ عليها أن تذهب فوراً لمقابلة أبي مهند لتحاول أن تجد حلاً سريعاً لهذا الموضوع.

وصلت إلى بيت أبي مهند، وكانت الساعة نحو السادسة مساءً، فتحت لها الخادمة السوداء الباب، وقادتها إلى غرفة الجلوس المعتمة التي تفوح منها رائحة البخور، لتجد أبا مهند جالساً كعادته على البساط في صدر الغرفة، لاحظ أبو مهند من خبرته الطويلة بالتعامل مع النساء، بأنَّ نجاح على حافة الانهيار النفسي، وأنها بالكاد تسيطر على أعصابها، من دون أي مقدمات طلبت منه أن يعيد إليها ثلاثة الآلاف ليرة السورية، لأنه أخفق في منع زواج سمير من سلمى، وإلا فإنها ستذهب إلى مخفر الشرطة لتخبرهم بأنه يقوم بممارسة

الشعوذة والدجل، وبكل هدوء أخبرها أبو مهند، بأنَّ المصاري موجودة عنده وسيعيدها إليها، لكنه أكد لها، بأنه سيقوم الآن أمامها، بعمل أذية سحرية اسمها الزار الأسود، لقد جربها أكثر من مئة مرة، ولم تفشل ولا لمرة واحدة، وهي كفيلة بإيقاف هذه الزيجة، إنها محظوظة لقدومها في هذا الوقت من النهار، لأنه من المفروض أن يقوم بطقوس الزار الأسود عند مغيب الشمس، لأنه الوقت المفضل عند الأسياد. نادى على الخادمة السوداء، وطلب منها أن تحضر الأدوات اللازمة لاستحضار الأسياد إلى حفلة الزار، فخرجت المرأة السوداء من الغرفة، لتعود بعد ربع ساعة، وهي تحمل صينية في يدها اليمنى عليها فنجانان من القهوة التركية، وترتدي تنورة قصيرة حمراء، لا تستر إلا القليل من جسمها النحيل، إنها نصف عارية، ولقد لطخت وجهها بمادة حمراء، ولبست قبعة صفراء كبيرة من القشّ، وأحاطت عنقها بعدة أطواق من القطع البلاستيكية الصغيرة الزرقاء التي تشبه الفيروز، وتدلت على صدرها سلاسل مصنوعة من قطع معدنية تشبه التمائم، تصدر أصواتاً غريبة، عند احتكاك بعضها ببعض، كما وضعت على رسغيها خلخالين من النحاس، يصدران نغمة معينة عند مشيتها حاملة دفاً في يدها اليسرى.

خرج أبو مهند من الغرفة، ليعود بعد قليل وهو يحمل طشتاً صغيراً من البلاستيك الأحمر، وديكاً أسود صغيراً، وضع الطشت على الأرض في منتصف الغرفة، ثم حمل الديك الأسود بيده اليسرى من فخذيه، رفعه فوق الطشت، وبحركة سريعة وضع يده اليمنى على رقبة الديك، وجذبها بقوة نحو الأعلى، فسمعت بأذنها صوت أنين

الديك عالياً أثناء خلع رقبته، وتناثرت الدماء على أرضية الغرفة، وأحسّت نجاح برذاذ هذه الدماء تصيب وجهها وملابسها، فأصابتها نوبة من الهلع، من وحشية هذا المنظر، حتى إنها خافت من أن يتوقف قلبها عن الخفقان، ثمَّ وضع القربان داخل الطشت، وهو يتمتم بصوته الأجش، بكلمات غير واضحة: يا شيخ محضر، العفريت اللي عليه الدور يحضر.

أخرج أبو مهند آلة التسجيل التي يحتفظ بها إلى جانبه، وأدارها على نوع من الموسيقا الصاخبة السريعة الإيقاع، فقامت الخادمة السوداء، وأخذت تدور وترقص حول الطشت، وهي تدق على الدف، ليصدر عن القطع المعدنية الموجودة على جسمها أثناء حركتها مجموعة من أصوات نشاز غريبة، لتمتزج مع صوتها الخشن، وهي تردد الترانيم الأمهرية الإفريقية طالبةً من الأسياد الحضور لأخذ قربانهم.

وضع أبو مهند يده اليسرى في الطشت المملوء بالدم، ثم أخرجها، وبصم بسبابته بالدم على جبين المرأة السوداء، وأخرج بالوقت نفسه صورة سلمى القديمة التي مازال يحتفظ بها في جيبه، وبصم بالدم بسبابته على جبينها أيضاً، شارحاً لنجاح بأنَّ الجني سيدخل بنهاية الحفلة إلى جسم المرأة السوداء، وبعدها سينتقل إلى جسد سلمى لكي يتلبسها ويقودها إلى الجنون، أقسم لها إنه خلال الأيام الخمسة القادمة، ستسمع بأن سلمى دخلت مستشفى الأمراض العقلية.

سيطر على نجاح نوع من الاطمئنان، وهي تستمع لأقوال أبي

مهند، استرخت وأخذت ترتشف فنجان قهوتها التركية بهدوء، وهي تهزُّ رأسها على إيقاع الدف السريع، استمرت المرأة السوداء بالرقص، وهي تهتزّ وترتعش بشكل جنوني لفترة قصيرة، وكأنها تحت تأثير نوبة من الصرع، بعدها وقعت على الأرض فاقدةً الوعي، وأفهمها أبو مهند بأنَّ الجني قد دخل فيها وتلبسها.

أحست نجاح بوجع خفيف في رأسها وأنها مرهقة، وكان صوت دقات الطبلة تتناهى إلى سمعها من بعيد، فتشجعها على إغماض عينيها، إنها نصف مخدرة، تشعر بكل ما يدور حولها، ولكنها لا تستطيع تحريك يديها، تملكها الرعب في تلك اللحظة، لأنها اكتشفت بأن هناك مخدراً كان موجوداً في قهوتها، حاولت أن تحرك قدميها، ولكنها لا تحسّ بهما، شعرت بأبي مهند وهو يقترب منها، ويبدأ بخلع ملابسها، لكنها لا تستطيع مقاومته، وأحست بأنفاسه الكريهة على وجهها وهو يقبلها، إنها مشلولة تماماً، لا تستطيع أن تدفعه عنها، وبعدها أحست بألم خفيف. تملكها النوم، وغابت عن الوعي، وهي تحسّ بحركات أبي مهند وهو يقوم بمعاشرتها جنسياً، بعد أن استيقظت بعد فترة قصيرة، وجدت نفسها قد فقدت عذريتها، حاول أبو مهند أن يوضح لها بأنه عاشرها بالنيابة عن زوجها الجني ديمون، الذي تلبسه طوال فترة الجماع، إنَّ كل ما فعله هو كان تنفيذاً لأوامر زوجها ديمون.

أدركت نجاح حقيقة هذه الخدعة التي دفعتها أمها إليها، وحملتها المسؤولية عن هذه المصيبة التي وقعت لها، غادرت بيت أبي مهند يملؤها العار والغضب والرغبة في الانتقام.

خلال جلوسها داخل التاكسي وهي في طريق عودتها، تملكتها فكرة واحدة، بأنها عندما تصل إلى البيت، ستذهب مباشرة إلى المطبخ، لتأخذ كالون زيت الكاز الذي تحتفظ به أمها لتنظيف السجاد، وستعود مباشرة إلى بيت أبي مهند، وعندما تفتح لها المرأة السوداء الباب، ستلقي بعضاً من مادة الكاز على وجهها، ثم تشعله بقداحتها لتشاهد وجهها تتآكله النيران، ثم بعدها ستدخل غرفة أبي مهند لتلقي على جسمه ما تبقى من زيت الكاز، وتشعله بقداحتها، لتشاهده وهو يصرخ ويرقص في النار، إنها النار وحدها، القادرة على تطهير النفوس الآثمة من خطيئتها، ومن الواجب عليها أن تقوم بهذه المهمة المقدسة، شعرت بنوع من الارتياح النفسي وهي تتصور الطريقة التي ستقوم فيها بمعاقبة أبي مهند وشريكته السوداء.

وصلت إلى منزلها، ونزلت متثاقلة على نفسها، كان بودها لو أنها لا تعود أبداً إلى هذا البيت، لترى وجه أمها مرة ثانية، فتحت الباب بتمهل، لكيلا تصدر أي ضجة، فالساعة الآن نحو العاشرة، دخلت غرفة الجلوس، وكانت مظلمة والتلفزيون منطفئ، فلابد من أنَّ أمها نائمة في غرفتها، خطر لها أن تذهب إلى المطبخ لتحضر كالون الكاز لتحمله، ولتعود أدراجها إلى بيت أبي مهند، لكنها شعرت بأنها محطَّمة، فقررت تأجيل خطّتها، صعدت إلى غرفة نومها، أحسّت بأنها بحاجة إلى أن تجلس بالماء الساخن لفترة ساعات لترتاح، ولتنسى أحداث هذا اليوم الطويل، وتفكر بهدوء في مستقبلها المظلم.

فتحت الماء وبدأت المياه الساخنة تنساب لتملأ المغطس، في هذه الأثناء ذهبت لتفتح الصيدلية الصغيرة الموجودة في الحمام، لتتناول حبتي بانادول، لتخفف من آلام رأسها، لكنها لمحت بطرف عينها، زجاجة الحبوب المنوّمة، التي اعتادت أن تأخذ حبةً واحدةً منها في الأوقات الصعبة، لتساعدها على النوم، فتحت غطاء الزجاجة فوجدتها ممتلئة تقريباً، ملأت كأساً من الماء وأخذتها ووضعتها مع زجاجة الحبوب المنوّمة بجانب المغطس، خلعت ملابسها، واستلقت بالماء الساخن، أخذت الحبة الأولى المنوّمة وبلعتها مع رشفة من الماء، بعد لحظات أخذت الحبة الثانية وبلعتها أيضاً، إنها طريقة متدرجة مبرمجة لكسر إرادتها بالتعلق بالحياة، ثم بلعت الحبة الثالثة والرابعة، وظلت تستمر في بلع الحبات حتى انتهت من الزجاجة، لم تعد تعرف عدد الحبات التي ابتلعتها، بعد دقائق شعرت بالثقل والرغبة في النوم، فأغلقت عينيها وهي تنظر إلى سقف الحمام، ليكون المنظر الأخير الذي تشاهده في هذا العالم، الذي لم تذق فيه يوماً طعم السعادة.

الزلـــزال

في هذا الصباح، ضربت بيروت هزة أرضية خفيفة، فتداعت إلى رأس هشام، وهو جالس وحده في بلكونة شقته المطلة على البحر، يتناول كعادته فنجان قهوته التركية، الكثير من الأفكار والهواجس التي كان قد قرأها بالماضي عن وقوع لبنان وسورية على خطّ زلزالي نشيط، يبدأ من جبال طوروس في تركيا، ماراً بالغاب السوري، ثم سهل البقاع، حتى غور الأردن، منتهياً بالبحر الأحمر.

ولطالما تعرضت بيروت بالماضي إلى زلازل مدمرة، كان آخرها قبل حوالي سبعمئة سنة، حين تم مسحها من على وجهه الأرض، حدث حينها زلزال رهيب، تراجع وقتها البحر إلى الوراء لمسافة تزيد على كيلومتر واحد، ثم ارتدّ من جديد بشكل موجة عالية، غمرت المدينة كلها فأغرقتها، وهدمت أبنيتها، وقتلت أغلبية من فيها، ولم ينجُ إلا عدد قليل من سكانها الموجودين وقتها في الهضاب العالية المحيطة ببيروت، فارتحلت أغلبيتهم بعد هذا المنظر المخيف إلى القرى المتناثرة بالجبال.

أدى هذا الزلزال إلى انهيارات في الشواطئ المحيطة بمدينة بيروت، وغرقت كثيراً من الجزر الصغيرة التي كانت تمتد على طوال شواطئه، ولم يبقَ منها في الوقت الحاضر شاهد على هذه المأساة سوى جزيرة صغيرة واحدة.

أخذ هشام يفكر في موضوع هذه الزيادة في عدد الزلازل التي أخذت تضرب الكرة الأرضية في الفترة الأخيرة، وكان قد قرأ مصادفة منذ أسبوع في جريدة الأوبزرفر اللندنية مقالة لعالم إنكليزي يتحدث فيها، على أن سرعة دوران الكرة الأرضية حول

نفسها آخذة بالتناقص، وأن هناك علاقة وثيقة تجمع بين سرعة دوران الأرض والزلازل.

من المتوقع أن يشهد عام ٢٠٢٠ زلازل كارثية كثيرة، ستدمر عدداً كبيراً من مدن العالم، وستتسبب في مقتل المليارات من البشر، وبعدها سيعود العالم مئات السنين إلى الوراء بفضل هذه الكوارث، لعل الناس في بيروت مازالت حتى الآن تتناقل أخبار هذه الهزة الأرضية، التي تزامنت مع خروج الأتراك من لبنان، كأنها كانت إشارة خاصة من السماء إلى نهاية الأحداث الأليمة التي مرّ بها لبنان في هذه الحقبة الطويلة من تاريخه تحت حكم العثمانيين، وإعلانها بأن مرحلة ثانية ستبدأ في حياته من جديد.

حاول هشام أن يهرب من فكرة أن هناك علاقة وثيقة بين تصرفات البشر نحو الطبيعة وإساءتهم إليها واستنزافها من دون رحمة، وبين ردة فعلها على هذه التصرفات، إن تدمير الغابات وقطع الأشجار المستمر من دون أي مسؤولية، سيزيد من منسوب كميات غاز الفحم الموجودة في الهواء، ما سيؤدي بالنهاية إلى ذوبان الثلوج الموجودة بالقطبين، وإلى ارتفاع مستوى منسوب سطح البحر، وستكون نتيجة ذلك إغراق جميع المدن الساحلية في العالم.

إن الطبيعة قد ضاقت ذرعاً بجشع الإنسان الذي لا ينتهي، وإنها لم تعد قادرة على الاستمرار بالتغاضي عن نهب ثرواتها بهذه الوحشية، وعلى الرغم من كثرة الكلام عن الاحتباس الحراري، فإن المؤسسات التي تحكم الأرض باقية على تسويف هذا الموضوع من أجل المحافظة على سيطرتها الاقتصادية، لم يعد أمام الأرض

إلا أن تدافع عن بقائها بمواجهة أطماع البشر التي ليس لها حدود.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، حدثت هزة أرضية خفيفة، شعر بها هشام وجميع سكان بيروت، بعد الهزة هرع الناس إلى الشوارع في بعض المناطق القديمة من بيروت، وذكرت الشبكة اللبنانية لرصد الزلازل، أن الهزة الأرضية التي شعر بها سكان البلد بلغت قوتها بين أربع إلى خمس درجات على مقياس ريختر المستخدم من العلماء لوصف قوة الزلازل، ووفقاً لهذا المقياس العددي، فإن هشام يعرف أننا مازلنا بعيدين عن رقم المقياس الأخير المدمر عشرة، الذي يعني الهلاك الكامل للمنطقة التي يحدث فيها مثل هذا الزلزال.

خطر له في هذه اللحظة أن يفتح التلفزيون ليتابع تطورات أخبار الهزة الأرضية، ولكنه فوجئ وهو يتنقل بين المحطات الأجنبية بمشاهدة صور الهزات الأرضية التي ضربت مختلف مناطق العالم خلال الساعات الماضية، ما أوقع آلاف القتلى والجرحى، ودمر كثيراً من المباني في مناطق هذه الزلازل. الزلزال الأقوى بالمنطقة كان في تركيا، كما وقعت هزة أرضية في إيطاليا، خلفت خسائر رهيبة في الأرواح والمنشآت، لكن أقوى هذه الهزات على الإطلاق كان بقوة عشر درجات على مقياس ريختر، وقع قبالة ساحل كوستاريكا، ما أدى إلى دمارها بشكل نهائي.

أدرك هشام أن احتمال وقوع هزة أرضية مدمرة في لبنان، يمكن أن يحدث في كل لحظة، وهو يعرف بالوقت نفسه عدم جاهزية المستشفيات لمعالجة هذا الكم الهائل من الجرحى والمصابين، إضافة إلى قرب بيته من شاطئ البحر. إن أي هزة أرضية في داخل البحر

ستشكل ظاهرة التسونامي التي ستؤدي إلى ظهور موجة عملاقة تغمر منطقته وتغرقها. عاد من جديد يفكر بالتقديرات التي قرأها، التي توقعت باحتمال وقوع هزات أرضية مدمرة ستضرب لبنان بشكل أكيد، لابد له من أن يتصرف الآن بسرعة قبل فوات الأوان.

في أول الليل ضربت بيروت من جديد هزة أرضية، أقوى بكثير من الهزة التي حدثت بعد الظهر، شاهد الثريا الموجودة في غرفة الجلوس وهي تتأرجح بشكل واضح من اليمين إلى الشمال، هرع مرة ثانية إلى التلفزيون وفتحه، لكن البرنامج الغنائي ظل مستمراً بشكل طبيعي، لم يتوقف ليخبر المشاهدين بطبيعة هذه الهزة الأرضية، يبدو أن الإدارة بحاجة إلى أن تكسب بعض الوقت لتتباحث مع الجهات المسؤولة، قبل أن تصارح الناس بحقيقة ما يجري.

بعد دقائق قطع المذيع البرنامج العادي، ليعلن للمشاهدين بأن هزة أرضية بلغت شدتها ست درجات على مقياس ريختر ضربت بيروت، أخذ يتفلسف، ويقرأ من ورقة أمامه النصائح التي يجب على السكان اتخاذها فوراً من أجل سلامتهم. طلب من المشاهدين البقاء في منازلهم والاحتماء في داخلها، وألا يخرجوا إلى الشوارع، حتى لا يتعرضوا لخطر الجدران التي قد تتساقط بشكل مباشر على رؤوسهم، وتابع نصائحه، محذراً الناس من الاقتراب من النوافذ والرفوف والأشياء المعلقة على الأسقف والجدران، من الواضح أن الأمور قد أصبحت أخطر بكثير مما يحاول أن يتشدق به هذا المذيع الملعون.

اقتنع هشام أن الحل الوحيد أمامه أن يبدأ في توضيب حقيبته الصغيرة، ليحملها وينطلق بها في صباح اليوم التالي إلى قريته كفريا التي ولد وترعرع فيها، والواقعة على السفح الشرقي لجبل الباروك، على ارتفاع ألف ومئة متر عن سطح البحر، والتي لا تبعد عن بيروت أكثر من ستين كيلومتراً، ما يجعلها قرية مثالية للاحتماء من خطر الزلازل، وسيكون بين أهله بعيداً عن هذه الترددات الاهتزازية التي بدأت تتكرر بالساعات الأخيرة في بيروت، والتي قد تتحول في أي لحظة إلى تسونامي في صورة أمواج عالية تضرب الشاطئ، وقد تكون كل موجة قادمة أكبر من التي سبقتها، حتى تقضي عليه، وعلى سكان بيروت.

حاول هشام أن يخفف من مخاوفه، ويغمض عينيه لينام في تلك الليلة، لكن الأفكار ظلت تهاجمه، لقد انتهت حياته العاطفية بشكل عملي قبل أن تبدأ، على الرغم من أنه مازال في بداية الثلاثينيات من عمره، إنه يسكن في شقة صغيرة مستأجرة في حي المصيطبة، وما زال يعمل منذ تخرجه في الجامعة لدى أمانة السجل العقاري لمدينة بيروت براتبٍ يكاد لا يكفيه.

تسابقت الذكريات إلى رأسه، وتذكر بنت الجيران سلمى التي كانت حبه الأول، وتصور اللحظات التي كان يسرقها من الزمن ليمضيها برفقتها بعيداً عن عيون سكان قريتهم، ومازال يشعر حتى الآن بطعم قبلتها الأولى التي تغلغلت إلى أعماق وجدانه، والتي لن ينساها أبداً. كان أمله في تلك الأيام أن يتخرج في الجامعة، وأن يحصل على وظيفة من أجل أن يتزوجها، ثم تذكّر كيف أن أهلها

زوجوها إلى رجل غني يكبرها بأكثر من عشرين عاماً، وما زالت تعيش معه حتى الآن في حي عين المريسة الراقي المطل على البحر في بيروت، لا شك أنها وافقت على هذه الزيجة، وتخلت عنه من أجل أن تعيش حياة مترفة في بيروت، إن زواجها جعله يفقد شهيته للحياة، وأصبح كل مستقبله الذي كان يتطلع إليه خلفه، لا شيء في حياته على ما يرام، يعيش الإحباط الدائم، لأنه فقد سلمى، ويبدو أن تشاؤمه قد صدق بالنهاية، وأن القادم سيكون أسوأ له وللجميع.

في الصباح وبينما هو يقوم بوضع الأشياء الضرورية في حقيبته الخفيفة، تناول مسدسه الصغير ماركة سميث، ووضعه تحت قميصه، وجد نفسه عاجزاً عن مقاومة فكرة الاتصال بسلمى على الهاتف من جديد، ليطمئن عليها، مقترحاً عليها مغادرة بيروت إلى قريتها كفريا، لأن المعلومات المتوافرة بالتلفزيونات تشير إلى أن هزات أرضية قوية ستضرب العالم بالأيام القادمة. تردد كثيراً في بادئ الأمر، لأنه كلما كان يتصل معها بالهاتف، كانت تجد ألف سبب لإنهاء مكالمتهما الهاتفية بسرعة.

لقد تجرأ مرة بعد أن سمع في قريته بعض الشائعات، بأنها غير سعيدة بحياتها الزوجية، وأنها لم تنجب أولاداً، فتسرع وعرض عليها بأن تطلب الطلاق من زوجها، لكي يتزوجها، لكنها رفضت هذه الفكرة بدلال، وماطلت بالإجابة عليه بشكل واضح، إنه يعرف أنها تفكر بأن تحتفظ به كلاعب احتياطي، فيما لو تطلقت من زوجها الحالي، ولكن على الرغم من أنانيتها، فإنه مازال يحبها ويريدها، وهو دائماً على استعداد لأن يجد لها الأعذار لتسويغ جميع تصرفاتها.

في أثناء ذلك، سمع صوتاً مخيفاً، استمر لبضع ثوانٍ، وشعر بالبناء يهتز، وتصور بأن السقف سينهار على رأسه، ما جعله في حالة من الذعر الشديد، حتى إنه وجد صعوبة في حفظ توازنه وهو واقف في وسط الغرفة، وسمع صوتاً مثل الانفجار عندما سقطت الثريا المعلقة بالسقف، ووقعت المكتبة الجدارية على الأرض، إنها الهزة الرابعة التي تضرب بيروت خلال هذا اليوم، انقطعت الكهرباء، ولكن الجوال مازال يعمل، أخذ حقيبته الصغيرة، واستلم الدرج هابطاً بسرعة من دون تفكير، وكل همه أن يغادر بيروت بسرعة خوفاً من ارتدادات الزلزال، كانت الشوارع تغص بالناس الذين تركوا بيوتهم لحظة شعورهم بهزات الزلزال، وهم يهرعون تحت تأثير هذه الصدمة إلى الأماكن المفتوحة، الطرقات مشحونة بالناس والصياح والغبار الناتج عن تساقط عتبات النوافذ والأحجار الملبسة على واجهات المباني.

بدأت تشهد الشوارع تزاحماً كبيراً بالناس، يزداد سوءاً مع مرور الوقت بازدياد عدد السيارات التي تغادر مدينة بيروت متجهة إلى القرى الجبلية. عندما أصبح بالشارع شعر بارتياح لوجوده بين هذا العدد الكبير من الأشخاص، ولمعت في رأسه فكرة واحدة، فأخذ هاتفه الجوال، واتصل بسلمى على الفور، فهي الآن تعيش مع زوجها في عين المريسة، إنها المرأة الوحيدة التي يهمه نجاتها في هذه المدينة، وما هي إلا دقيقة حتى سمع صوتها وهي ترتعد من الخوف، عرض عليها أن يحضر إلى منزلها، ليأخذها معه إلى قريتهما، قبل أن يضرب التسونامي بيروت ويغرقها، فأجابته بصوت

متهدج بأن زوجها موجود بالبيت، ولا تستطيع أن تتركه لتذهب معه إلى قريتهما، وأغلقت السماعة. خطر له أن يتصل بها من جديد، ليفهمها خطورة الوضع، ولكنه تمالك نفسه، لكي يحافظ على البقية الباقية من عزة نفسه، فعليه الآن أن يفكر بإنقاذ نفسه.

أخذ طريقه متجهاً إلى الأوتستراد للوصول إلى قرية بكفيا، وبعد أن مشى حوالي نصف ساعة سمع رنين جواله، كانت سلمى على الخط من جديد، لقد غيرت رأيها، وطلبت منه أن يحضر إلى منزلها، ليأخذها معه إلى كفريا، أعطته هذه الكلمات شعوراً بقدرته على قهر جميع الظروف الذي سوف تعترضه وهو في طريقه إليها، انبعث الأمل في نفسه للانفتاح على الحياة، بدلاً من حياة الخوف والعزلة التي يعيشها وحده في بيته.

استدار وعاد راجعاً باتجاه منزل سلمى، كان يمشي مسرعاً بين الكتل البشرية والسيارات المزدحمة التي تسد الطرقات. بعد أكثر من ساعة وصل إلى بيتها، ليجدها واقفة بمفردها أمام باب البناء، تحمل حقيبة يد صغيرة، وترتدي بنطال جينز أزرق وبلوزة صوفية بيضاء خفيفة، أظهرت الحروف المطبوعة عليها علامات ماركاتها العالمية المشهورة، إنها حتى في هذه الظروف لا تستطيع التخلي عن عادتها في حب الظهور والمحافظة على أناقتها وجمالها.

مازالت كما يتذكرها مزيجاً من السحر والأناقة والغموض، سألها عن زوجها، فأجابته بأنه رفض أن يغادر المنزل، ولذلك قررت أن تذهب بمفردها معه إلى قريتهما كفريا، اقترحت عليه أن يقود سيارتها المرسيدس باتجاه القرية، وانطلقا بالسيارة باتجاه

طريق الجديدة، ولكن وجود هذه الحشود البشرية والقطع المتساقطة من الأبنية على الطرقات، زادت من صعوبة تقدم السيارة، وأخذ التزاحم يزداد مع الوقت، ويشلّ حركة سير السيارات المتجهة إلى خارج بيروت.

استلم طريق الجديدة، وما كاد يقترب من الجسر الموجود على أوتوستراد المتن، حتى توقف السير نهائياً، نتيجة للأضرار التي لحقت بالجسر من الزلزال. لم يعد أمامهما إلا أن يتركا السيارة بمنتصف الطريق، ويتابعا سيرهما مشياً ليجتازا هذه المنطقة، لكي يصلا إلى بكفيا.

كانت الناس تمشي بالشوارع متراصة كالقطيع، وكأنها لا تصدق ما يجري حولها، لكن وجود سلمى بهذه الملابس الأنيقة، وخصوصاً حقيبة يدها الفاخرة، قد تتسبب في لفت الأنظار إليها، فشعرت بأن عليها أن تتخلص من حقيبة يدها بسرعة، فتوقفت في إحدى الزوايا، وأخرجت كيساً بلاستيكياً صغيراً من حقيبتها، ودسته في صدرها، كما أخرجت من الحقيبة رزمة ملفوفة من أوراق المئة دولار، وقسمتها إلى قسمين، وضعت إحداهما في جيبة بنطالها، وأعطت القسم الثاني إلى هشام، ثم تابعا سيرهما بين الحشود، تصور هشام من هذه الحركة بأنها مازالت تثق به، وأنها ما برحت تكن له المودة القديمة، فاقترب منها، ووضع يده حول خصرها، ليطوقها وليشعرها بالأمان، إنها الفرصة الوحيدة التي كان يحلم بها في كل حياته، قد تحققت الآن، حاولت بلطف أن تدفع يده عنها، لكنه لم يتجاوب معها، فهمت أنها ليس باستطاعتها أن تضع أي

مسافة بينهما، وهما في هذه الظروف، فأسرعت لتندمج بالحشود التي تسير على الطرقات، إنها الطريقة الوحيدة التي تمكنها من أن تتحرر من اللمس.

في هذه الحشود الكثيفة، يمكنها أن تتحرر من الخوف ومن اللمس، حيث يضغط الجسد على الجسد، بحيث لا تستطيع أن تميز بين هشام والأشخاص الآخرين، الجميع يتدفقون تحت عامل الذعر كالقطيع المرعوب، ولم يعد هناك مجال للتفكير بالجنس، وكلما تدافع الناس بغريزة القطيع وتراصوا قلَّ خوفهم من بعضهم بعضاً، في هذه اللحظات لم تعد لمسات هشام لجسدها تعني أي شيء بالنسبة إليها.

بعد فترة توقف جهاز الجوال عن العمل، فلابد من أن تأثيرات الهزات الأرضية قد طالت محطات بث الهاتف المحمول، فاستغل هشام هذه المناسبة، وسألها عن زوجها، فذكرت له أنه فضَّل أن يبقى لحماية البيت، لأنه يؤمن بأنه عندما تعمّ الفوضى، فإن الناس ستهاجم البيوت وتنهبها، وتابعت حديثها ضاحكة: لا تخف عليه، إنه بسبع أرواح.

بعد خمس ساعات من المشي وصلا قرية بكفيا، لقد ظهر الإجهاد على سلمى، لأنها لم تتعود المشي لمسافات طويلة، على الرغم من أنها تمارس الرياضة يومياً للمحافظة على وزنها ورشاقتها، بالنهاية وجدا فندقاً صغيراً ذهبا إليه مباشرةً.

طلب هشام من موظف الاستقبال غرفة واحدة ليمضيا فيها هذه الليلة، قبل أن يتابعا طريقهما إلى كفريا، لكن الموظف أجابه

بأن جميع الغرف محجوزة بالفندق، فما كان من هشام إلا أن أخرج من جيبه عشر أوراق ذات المئة دولار، وأعطاه إياها لتأمين هذه الغرفة، إنه عرض لا يمكن أن يرفضه، فأعطاه الموظف مباشرة مفاتيح غرفة في الطابق الثاني، وتصور هشام أنه سيشبع غريزته وسينام معها في غرفة واحدة.

إن فكرة زواجه بها التي شغلت عقله باستمرار خلقت بالواقع شيئاً مطابقاً لتفكيره، إن رغبته العنيفة بالزواج من سلمى جذبت إلى حياته الموقف الذي كان يرغب فيه بشدة، لكنها رفضت بإصرار القبول بغرفة واحدة، وطلبت من الموظف تأمين غرفة ثانية لها، وأفهمته بأنها على استعداد لأن تدفع له المبلغ الذي يريده، وتحت هذا الإغراء وافق الموظف على أن يعطيها الغرفة المخصصة له بالفندق، لتنام فيها وحدها لهذه الليلة.

لم يكن باستطاعة هشام أن ينام في تلك الليلة، وتمدد بالسرير تتنازعه الأفكار، إنها مازالت كعادتها تتلاعب به، ولعلها تخطط لأن تتخلى عنه حالما تصل سالمة إلى كفريا، إنها امرأة أنانية، رفضت أن ينام معها، لكي يعيشا حبهما الأول، لكي يمتزجا معاً، وليتعاهدا على الزواج من جديد.

خطر له بأن مشاعرها نحوه ربما قد ماتت، فالحب مثل الأشخاص ينمو ويكبر ليدخل مرحلة الشيخوخة ثم يموت، أو لعلها تفكر بالزواج من رجل ميسور، قد تعرفت عليه مؤخراً في مجتمعها الراقي في بيروت.

في أثناء ذلك ضربت هزة ارتدادية متوسطة القوة مبنى الفندق،

وشعر بالجدران تهتز، وأن السرير يتحرك من تحته، فكَّر في تلك اللحظة بأن يترك غرفته، وينزل إلى الشارع، ولكن الهزة الأرضية استمرت لفترة قصيرة ثم توقفت، بعد ذلك غمرته الطمأنينة، وما كاد يخلد إلى النوم، حتى هزَّ زلزال قوي مبنى الفندق من جديد، فشعر بتمايل البناء، وتوقع أن يسقط السقف على رأسه، وسمع أصوات نزلاء الفندق وهم ينزلون الدرج بسرعة مستعجلين الخروج من داخل المبنى قبل أن تبدأ الأرض بالاهتزاز مرة ثانية، لكن الهزة الأرضية استمرت لنحو عشر ثوانٍ ثم توقفت، لم يكن بين الهزة الارتدادية الأولى والهزة الارتدادية الثانية التي أصابت الفندق أكثر من أربع ساعات.

إن كثرة الزلازل في هذا اليوم قد تكون دليلاً على أن العالم قد دخل في مراحله الأخيرة، ومن الممكن أن تكون نهايته قد اقتربت، إن كل ما يتمناه الآن أن يصل إلى قريته ليموت مع أهله. أحس بعد أن راودته هذه الأفكار، بقوته الذاتية التي حررته من عقدة الخوف من الموت، ولم يعد يكترث بكل هذه الزلازل، فلم يبق لديه ما يخسره في هذه الحياة.

ارتدى ملابسه بهدوء، ونزل إلى صالة الفندق، ليجد سلمى جالسة وحدها بالزاوية، وقد اعتراها الخوف، وزاد من مصيبتها حالة الذعر التي تعم المكان، نظر إليها هشام ببرود، وسألها فيما إذا كانت جاهزة لمغادرة الفندق إلى كفريا، فأجابته: بأنها اتفقت مع موظف الاستقبال على أن يؤمن لهما سيارة لتقلهما إلى قريتهما في هذا الصباح مقابل سبعمئة دولار.

تأكد أن كل همها قد أصبح محصوراً في أن تمنعه من أن ينفرد بها خلال الطريق إلى كفريا، طلب فنجاناً من القهوة التركية، وأشعل سيجارته، وأخذ يفكر، وهما ينتظران قدوم السيارة، في الطريقة التي ستمكنه من الانفراد بها، لتنهار المسافات والجدران التي حاولت أن تخلقها بينهما، وعندئذٍ لن تستطيع أن تمنعه من أن يشفي جرح كبريائه، إنها حبه الأول، ومن حقه أن يمتلكها ويتزوجها.

بعد قليل وحسب الموعد وصلت السيارة، وفيها السائق وإلى جانبه فلاح يبدو أنه من سكان المنطقة، جلس هشام معها بالمقعد الخلفي، وشاهدها وهي تحشر نفسها بالزاوية لتلتصق بنافذة السيارة، تاركة أكبر مسافة ممكنة بينهما، لتقطع عليه التفكير بأن يمد يده ليلمسها، إنها لا تريد أن تجدد علاقتها معه، لأنها تعرف كيف ستنتهي.

لقد تركته بالمرة الأولى لأن أحواله المادية لم تكن على ما يرام، وهو ما زال على حاله موظفاً صغيراً محدود الدخل، سأل نفسه: كيف يمكن أن ينتهي الحب العنيف الذي كان يجمعهما بهذه الطريقة؟ انطلقت السيارة بحذر في الطريق الجبلي الصاعد على طرف سفوح الجبال، نظراً لوجود بعض الصخور الصغيرة التي تناثرت على سطح الطريق، قادمة من أعالي المنحدرات بفعل الزلزال، ظهرت بعض التشققات في الطريق الإسفلتي الممتد أمامهم، وكلما أوغلوا في الطريق ازدادت شدة الانحدارات المطلة على الطريق، وبعد أن قطعوا حوالي عشرين كيلومتراً، شاهدوا انهيارات أرضية خفيفة، ولاحظوا بعض الصخور المنفردة الكبيرة الساقطة على الطريق، وبعض الأتربة المتراكمة على أسفل جوانبه.

تابعوا سيرهم ببطء، ولكن بعد فترة قصيرة، فوجئوا بمنظر كتلة ضخمة من الركام على الطريق الإسفلتي، نتجت عن انزلاق الصخور والتربة من على سطوح المنحدرات العالية المشرفة عليه، وأصبح من المستحيل على السيارة أن تتقدم إلى الأمام.

لم يبق أمام سلمى سوى أن تقرر فيما إذا كانت ستعود معهما بالسيارة إلى قرية بكفيا، أو أن تستمر بالمشي لمسافة حوالي خمسة عشر كيلو متراً مع هشام، حتى يصلا إلى قريتهما، إنها تعرف أن وتيرة الزلازل ما زالت تزداد باستمرار، لقد اقتنعت لدرجة ما، بأن نهاية العالم قد أصبحت وشيكة، إنها تريد أن ترى أمها وأخواتها قبل أن تموت.

تحت تأثير الخوف من الموت والمجهول، قررت أن تستمر بالمشي مع هشام، حتى تصل إلى قريتها، بالوقت نفسه أدرك هشام أن هذه هي الفرصة الأخيرة لديه، ليسقط جميع الحواجز التي بنتها سلمى، لتقف في وجه حبهما الأول، ربما لم تكن لديها الجرأة بالماضي، لتعبر له عن مشاعرها، بسبب الضغوط الاجتماعية ومغريات الحياة المادية، لكنها ستتحرر الآن في هذه البقعة الموحشة، من كل هذه الضغوطات، وتجد نفسها حرة من جديد لتعطيه حبها، وتمنحه جسدها.

تركا السيارة وفي يد كل واحد منهما قنينة بلاستيكية صغيرة من الماء، يجب أن تكفيه طوال الطريق. أخذا يمشيان على الشريط الترابي الرفيع الذي يجري إلى أعلى التلة مبتعدين عن الطريق الإسفلتي. حاول هشام أن يمسك بيدها متظاهراً بأنه يساعدها

على صعود التلة، ولكنها سحبت يدها بإصرار، لمعرفتها بأنها يجب أن تكون صارمة منذ البداية، لكيلا تعطيه المجال ليتمادى معها، إن عليه أن ينضج ويفهم أن علاقتهما قد ماتت، إنها أصبحت امرأة مستقلة، ولم تعد تلك المراهقة الصغيرة التي عرفها، فقد أصبح لها تطلعاتها ومفاهيمها الخاصة في هذه الحياة.

بعد أكثر من نصف ساعة من المشي وصلا إلى قمة التلة، حاول هشام أن يقنعها بأن عليهما أن يتوقفا للاستراحة، قبل أن يواصلا سيرهما في نزول التلة، لكن سلمى خافت من نية هشام، ولكيلا تعطيه الفرصة تابعت سيرها، من دون أن تترك له الفرصة ليختار المسار الآمن ليتبعاه نزولاً إلى أسفل التلة، فتقدم هشام وتجاوزها، وأخذ كتف التلة الأيسر، واتجه بالنزول على شريط شديد الميول من الحصى الخشنة.

استوعب هشام متأخراً خطورة المشي على هذه الحصى، لكن لم يعد له الخيار، فإلى يمينه وعلى مسافة قريبة منه يجري إلى الأسفل خط صخري ذو ميل قاسٍ خطِر، لابد له من الاستمرار بهذا الطريق، إن اختياره الكتف الأيسر للتلة كطريق إلى أسفل الوادي، كان خطأً كبيراً، وأصبح من الصعب عليهما أن يعودا إلى الأعلى، لترجيح مسار آخر جديد للهبوط إلى الوادي، إن عليهما الآن أن يتابعا نزولهما بانتباه وشجاعة، فوحشة المكان وظروف هذا الطريق أنسته جميع تطلعاته الجنسية، أصبح همه الوحيد أن يحافظ على حياة سلمى، إنها مشاعر جديدة بالعطف عليها، تولدت عنده في هذه اللحظات الصعبة، للسير في هذه المناطق الجبلية

التي لا يعرفها، يحتاج إلى الحظ ليخدمه بالترجيح بين الاختيارات في المسارات الطبيعية الممتدة أمامه، ليلتقط أيسر الطرق وأقلها خطورة، إنها مثل الحياة، فهي كلها بالنهاية عبارة عن مجموعة من الاختيارات.

التفت برأسه ليتأكد من أن سلمى تنزل المنحدر بثبات، محذراً إياها بضرورة الانتباه لكيلا تتزحلق على هذه الحصى الصغيرة. في هذه الأثناء فقد تركيزه، وداس على حصوة كبيرة بطريقة خاطئة، ففقد توازنه، ووقع على سطح الأرض المنحدرة، وتدحرج إلى الأسفل لأكثر من عشرين متراً، قبل أن يصطدم بصخرة كبيرة في أواخر المنحدر ليتوقف عندها.

شاهدت سلمى الكارثة فانتابها خوف شديد، فانحنت إلى جانبها، وجثت على ركبتيها، ودارت حول نفسها باتجاه هشام، بدأت تنزل الهضبة بحذر، وهي راكعة على ركبتيها ممسكة الحشائش والصخور الثابتة بالأرض، لكيلا تتزحلق، تتمايل بصعوبة مع تعرجات الصخور الموجودة أمامها، لتحافظ على توازنها، مرعوبة من المنظر الذي ينتظرها بالأسفل.

استغرقت هذه المسافة القصيرة من سلمى أكثر من ربع ساعة، وهي تتقدم منحنية على ركبتيها باتجاهه، لقد سمعت صوته وهو يطمئنها من الأسفل أنه بخير، طالباً منها أن تكون حذرة أثناء نزولها التلة، ولم تعرف كيف وصلت إليه، نظرت إليه فلم تشاهد أثراً للدماء، ولم يكن هناك سوى بعض الخدوش الدامية على وجهه ويديه، فارتاحت نفسياً من منظره، وحمدت ربها على أن الوقعة

انتهت على خير، فسألته فيما إذا كان يشعر بالألم، فهالها أنه يجد صعوبة في الكلام وهو يجاوبها، إنه يتحامل على نفسه كثيراً، ليعطيها الشعور بالطمأنينة، ويوهمها بأن الأمور كلها على ما يرام.

حاولت أن تقنعه بأنهما سيتابعان سيرهما بعد استراحة قصيرة، وأعطته قنينة الماء البلاستيكية التي معها ليشرب منها، فشرب قطرات قليلة، ليبل ريقه وأعادها إليها، إنه يعرف بأن عليها أن تحافظ على كمية الماء التي معها للطريق الطويل الذي ينتظرها، تأكدت بأنه أصبح عاجزاً عن الحركة، عندما لاحظت آثار الدماء على شفتيه وهو يشرب الماء، وأيقنت أنه من المستحيل أن يتابع الطريق معها، لا شك أنه قد تعرض لنزيف داخلي من جراء ارتطامه بقوة بالصخرة، حبست بشجاعة دمعة حاولت أن تسقط من عينيها، لكيلا تشعره بخطورة الموقف.

طلب منها قبل أن تتركه وحده أن تشعل له سيجارة، الآن عليها أن تذهب بمفردها لتصعد وتنزل الهضاب التي تفصلها عن قريتها لأكثر من خمس ساعات، ثم لتعود بعدها مع بعض أقاربها ومعهم بغل أو حمار ليحملوه إلى القرية، هذا فيما إذا اختارت المسارات الصحيحة في هذه المناطق الوعرة، من المفروض أن تصل إلى القرية قبل حلول الظلام، أو نفاد الماء.

شعر بالعطف على سلمى، وعرض عليها أن يعطيها عبوة الماء التي معه، فرفضت أن تأخذها، لشعورها بأن حاجته إليها أكثر منها، بصعوبة مدَّ يده وأخرج مسدسه الصغير ودفعه إليها، لأنها ربما قد تحتاجه للدفاع عن نفسها في هذه الأماكن الموحشة.

قررت سلمى ألا تضيّع الوقت، مازالت لياقتها البدنية عالية، وعليها أن تصل إلى القرية بسرعة، لتنقذ هشام، انطلقت باتجاه السهل، وما كادت تبتعد عنه، حتى لم تعد تسيطر على مقاومة دموعها، فأجهشت بالبكاء، ربما لشعورها بالندم على استغلالها له بالفترة الأخيرة.

بعد أكثر من نصف ساعة من المشي، التفتت وهي على قمة التلة الصغيرة، ونظرت إلى المنحدر الذي يجلس عليه هشام، فرأته قريباً، وكأنها لم تقطع كل هذه المسافة الطويلة، أحست بأنها هذه هي آخر مرة تشاهده فيها، وكان هشام بالوقت نفسه ينظر إليها من سفح المنحدر إلى الأعلى، وهي تتسلق التلة بصعوبة، خائفاً عليها من أن تتعرض للسقوط الذي يمكن أن يحدث في أي لحظة، متأكداً بأنها هي نظرة الوداع الأخيرة إليها.

إن كل ما يهمه الآن أن تصل سالمة إلى القرية قبل حلول الظلام، أحس برغبة في أن يدخن سيكارة أخرى، حاول أن يحرك يده ليصل إلى علبة السجائر، فلم يستطع تحريكها، تداعت إلى مخيلته أيام مراهقته وحبه الأول لسلمى، فأيقن أنه لن يراها مرة ثانية، اشتاق إلى أمه وتمنى لو أنه لم يترك قريته، وأنه مازال يعيش معها.

لقد مرت صور حياته أمام عينيه، وكأنه يشاهدها بأحد الأفلام السينمائية، رغب لو أن حياته لم تجر بهذا الشكل، ولو أن الحظ ساعده لمرة واحدة، وتزوج من سلمى، لكانت حياته قد تغيرت كلها، وعاش سعيداً معها.

أحس بالنشاط فجأة من تداعي هذه الأفكار المبهجة إلى عقله، وتصور بأنه يستطيع الانتظار حتى وصول سلمى، فحرك يده من جديد للوصول إلى علبة السجائر الموجودة بجانبه، لكنه لم يعد يسيطر على يده، وحتى لا يحس بها، نظر إلى السماء، فشاهد من بعيد غراباً أسود يطير باتجاه الأفق مبتعداً عنه، فأيقن بأنها إشارة من السماء، تعلن بأن عليه أن يرحل بعيداً من هذه الأرض.

عرف في هذه اللحظة أن عليه أن يستسلم، فالمقاومة ليست سوى مضيعة للوقت، إن هناك حياة أخرى سيذهب إليها، تاركاً وراءه هذه الأمور التي كانت تشغل تفكيره في هذه الحياة، إن الشيء الوحيد الذي استمتع فيه بحياته هو شغفه بسلمى، كان يرغب في أن يسألها قبل أن تتركه، أن تسامحه عن كل الوساوس السيئة التي كانت تختلج صدره نحوها، لكن لم تكن عنده الجرأة لذلك، شعر بالتخدير يصعد من أسفل جسمه إلى الأعلى، فغمرته سعادة داخلية وهو يشعر برغبة قوية في أن يغلق عينيه، وينام ويستريح، وليترك هذا العالم الذي لم يتذوق فيه طعم السعادة، باستثناء سنتين وحيدتين، عاش فيهما في قريته قريباً من سلمى.

رسالة على الماسنجر

كعادتي في كل صباح، فإن أول ما أقوم به مباشرةً بعد أن أستيقظ من النوم، هو النظر إلى شاشة موبايلي، لأتأكد من المكالمات الهاتفية التي يمكن أن تكون قد وصلتني خلال الليل، وبعدها أنتقل لأتفقد رسائلي على المسنجر، ثم أنهض من فراشي لشرب فنجان قهوتي الصباحية، وغالباً ما أعود أثناء ذلك إلى صفحتي على الفيسبوك، لأقرأ تعليقات الأصدقاء على البوستات التي قمت بإنزالها في الليلة الماضية، ولأحصي عدد اللايكات التي حصلت عليها رغبةً مني برفع روحي المعنوية، قبل ذهابي إلى الجلوس في قهوة المربوطة بشارع الحمرا في بيروت.

لفت انتباهي في ذلك الصباح طلب صداقة على الفيسبوك من بنت لا أعرفها، اسمها لمياء، وبطبيعتي عند استلامي مثل هذه الطلبات، فإني أضغط على اسم صاحبة الطلب، فأنتقل إلى صفحتها على الفيسبوك، لأتمعَّن طويلاً في صورتها، قبل أن أكبس الإشارة بالموافقة على ضمها إلى قائمة أصدقائي.

طالعتني صورة بنت ناعمة متوسطة الجمال في حدود الأربعين سنة، تبدو عليها الرتابة والأناقة، كان مكتوباً على صفحتها بأنها تعمل محاسبة في بنك في مدينة أمستردام في هولندا، وهي هولندية من جذور لبنانية.

ظلت صورتها عالقة في مخيلتي، فوجهها الناعم الحزين، هو نوعي المفضل الذي طالما كان يستهويني من أيام المراهقة، ما دفعني للموافقة على طلبها من دون تردد، بعد بضعة أيام نسيت هذه القصة، وانشغلت بمتطلبات الحياة التي يبدو لي أنها لن تنتهي.

مرة وبينما كنت أقلّب صفحتي على الفيسبوك، وجدت أكثر من عشرة لايكات متتابعة موضوعة على آخر البوستات التي كتبتها، فعرفت أنها من لمياء، فشعرت بالزهو لأنها أعجبتها، فهذه الأشياء الصغيرة قد تتحول في حياتنا الفارغة القاسية التي نعيشها إلى أشياء مهمة، لتبعث السعادة والنشوة في أعماقنا.

بعد فترة قصيرة وجدت رسالة من لمياء على المسنجر، وفيها كلمتان... صباح الخير، ورددت عليها ببطاقة من الزهور، وبجانبها صباح الخيرات، وتكررت رسائلها القصيرة في كل صباح، وردودي الروتينية عليها، حتى وجدت نفسي بعد فترة قصيرة قد أدمنت رسائلها على المسنجر، أصبحت في صباح كل يوم، أتوقع أن أجد رسالة منها تصبّحني بالخير، مع بعض الكلمات التشجيعية التي تشعرني بالسعادة، وتساعدني على تمضية ساعات العمل الثقيلة.

مع مرور الوقت تعودت الحديث معها، وبدأت أتخدّر برسائلها التي تصلني كل صباح، منتشياً في فضاء هذا العالم الافتراضي الذي خلقه لنا صديقنا مارك زوكربيرغ، أخذت أنتظر بلهفة رسائلها على المسنجر، مدركاً بالوقت نفسه، بأنني أخدع نفسي بالتعلق بحبال الهواء، للهروب من الواقع المؤلم الذي أعيشه.

توثقت علاقتنا مع مرور الأيام، لتخبرني ذات يوم بأنها تعمل محاسبة في بنك في مدينة أمستردام في هولندا، وهي مطلقة تعيش وحدها في شقة صغيرة، وكان عندها صبي وحيد توفي بمرض السرطان، وهو في الخامسة من عمره، وتطرقت مرة بالحديث عن عائلتها التي مازالت تعيش في جنوب لبنان، إن استمرار تواصلنا يومياً

على المسنجر قد زاد من قوة علاقتنا، حتى بدأنا نتخيل أن العناية الإلهية قد تدخلت، لتربطنا مع بعضنا بهذه الصداقة.

من ميزات العالم الافتراضي أن الواحد منا، يجد نفسه قادراً على التكلم بسهولة عن مشكلاته الشخصية، لأنه غير متأكد من شخصية البنت التي تتحدث معه على الطرف الآخر، وغالباً ما يكون اسمها وصورتها على الفيسبوك، ليس لهما علاقة باسمها وصورتها الأصليتين، ما يعطي للحديث طابع المغامرة والتسلية بالوقت نفسه.

ذكرت لها مرة عن طريق المصادفة، بأنني أمرّ بظروف مادية صعبة، فما كان منها إلا أن طلبت مني مباشرة، أن أرسل لها رقم حسابي بالبنك، لترسل لي خمسة آلاف يورو من حسابها الشخصي، كدين يمكنني أن أسدّده لها عندما تتحسن ظروفي، اعتبرت أن هذا العرض إهانة لمفاهيمي عن مجتمعنا الذكوري، فرفضت قبول هذه الفكرة، لكنها في كل صباح، أخذت تردد بأنها تشعر بتعاسة كبيرة، وهي تشاهدني ماراً بهذه الأزمة الصعبة رافضاً قبول مساعدتها، على الرغم من أنها تعتبرني صديقها الوحيد في هذه الغربة التي تعيش بها.

في بادئ الأمر توقعت أنها تبالغ في كلامها، وأن عالم الفيسبوك الوهمي الذي تعيش به قد دفعها إلى اختلاق هذه القصة، ولما كانت أموري المادية لا تجري على ما يرام، وأنا غارق في الديون التي يصعب عليَّ تسديدها، أرسلت لها رقم حسابي البنكي، وأنا على يقين بأنها لن ترسل لي أي مبلغ، وأنه مجرد تباهٍ من امرأة لا أعرفها، وحتى إنني لست متأكداً من اسمها.

بعد أربعة أيام، وصلتني رسالة على موبايلي من البنك، بأنه تم إيداع مبلغ عشرة آلاف يورو في حسابي، حتى إنني بالكاد صدقت هذا الرقم، لقد أجبرتني ظروفي الصعبة التي أعيشها للتنازل عن القليل من كرامتي والقبول بمساعدتها، وأنا مدرك بأنه لن يكون بإمكاني تسديد هذا الدين لها في المستقبل. أخذت الجوال وأرسلت لها رسالة على المسنجر، شكرتها فيها، وقلت لها بصراحة: إنني لم أكن أتوقع منها أن تقوم بإرسال هذا المبلغ من مدخراتها الشخصية إلى رجل بالكاد تعرفه، وقد يكون مختلفاً كلياً عن الشخص الذي تتوقعه.

في اليوم التالي أرسلت لي على المسنجر رسالة طويلة، أخبرتني فيها بأنها تعتبرني صديقها الوحيد في هذا العالم، وأنها تجلس في غرفتها أحياناً، وتتخيلني بأنني هاجرت إلى هولندا، وأننا نتمشى معاً في شوارع أمستردام على ضفاف قنواتها المائية.

شعرت بنوع من الندم لأنني أخذت هذا المبلغ منها، وأنني ورطت نفسي بهذه العلاقة الجدية، فوجدت نفسي مضطراً، لتذكيرها بأنني رجل مطلق، وأعمل ممثلاً ثانوياً على المسرح في النوادي الليلية في مدينة بيروت، ولدي مسؤولية إعالة زوجتي السابقة وأولادي، وأن أموري المالية ليست على ما يرام، فاستمرت بمراسلتي، وأفهمتني بأنها تحبني كما أنا، فأعطتني الثقة بنفسي، وجعلتني أشعر بأنني ما زلت مطلوباً، على الرغم من تقدمي بالعمر.

شجعني كلامها على أن أطور علاقتي العاطفية معها، ففي إحدى رسائلها الأخيرة صارحتني بأنها تفكر بأن عليها أن تتزوج بسرعة، لأنها قاربت الأربعين سنة، وأنه لم يعد لديها الكثير من الوقت

لإضاعته، وأنها تتصور بأنه ربما علينا أن نتزوج بسرعة في هولندا، لنقوم بتأسيس عائلتنا الخاصة، لكي تتمكن من إنجاب طفل أو طفلين خلال السنتين القادمتين قبل فوات الأوان.

عندما يصل الرجل مثلي إلى سن الخمسين، يشعر بأن حياته قد انتهت، وأنه بدأ يلعب في الوقت الإضافي، لا شيء في هذا العالم يمكن أن يعيد إليه شبابه، سوى التفكير بأنه سيبدأ حياته من جديد مع امرأة ثانية.

استهوتني فكرة هذا الحلم بأن أتزوج من لمياء، وأهاجر إلى هولندا، لأفتح هناك صفحة جديدة من حياتي، لكن الواقع جاهز دائماً ليصدمنا، فكان لابد لي من مصارحتها، بأنه ليس من السهولة السفر إلى أمستردام، إضافة إلى أنه من الصعوبة إيجاد عمل لي كممثل على المسرح في هذا البلد المتطور، حيث الثقافة والمفاهيم الاجتماعية تختلف كلياً عن مفاهيم مجتمعنا، ما يجعل من الصعوبة بمكان ممارستي التمثيل على المسرح في أمستردام.

شرحت لها بأن الأمور قد تكون أكثر تعقيداً مما تتصورها، وأنني لا أستطيع التوقف عن العمل ليوم واحد، نظراً للمسؤوليات المادية المترتبة على عاتقي تجاه أسرتي.

بعد يومين أرسلت لي على المسنجر تخبرني، بأنني أصبحت جزءاً من حاضرها، وأنها لا تتصور أنها تستطيع أن تستمر من دوني في هذه الحياة، وهي باتت تشعر بأن زواجنا هو قدرنا. طلبت مني أن أرسل لها إيميلي، لأنها تود أن ترسل إليّ رسالة سرية طويلة وخطِرة، فأحسست بالخوف بعد قراءة رسالتها على المسنجر، لأنني

لم أستوعب القصد منها، لكنني تحاملت على نفسي، وأرسلت لها إيميلي، وأنا أتوجس شراً من رسالتها القادمة.

في اليوم التالي استلمت على إيميلي الرسالة التالية:

يجب أن أشكرك مرة أخرى على ردّك المتواضع على بريدي، فقط إذا كنّا نستطيع أن نثق ببعضنا، ونكون صادقين ومخلصين لبعضنا بعضاً، كما قلت لك سابقاً، فإنني كنت أتطلع لإنجاز مهمة معينة، التي كان زوجي السابق غير محظوظ لتحقيقها، أعتقد أنه مع القليل الذي أخبرتني به، سيكون من الحكمة جداً الكشف لك عن هذا السر، وأقول لك أيضاً هدفي وخطتي، لأنها ستكون ذات فائدة متبادلة لنا، ربما يمكنك أن تكون الشخص المناسب للاستفادة من هذه الفرصة، لأنني أعتقد أن معرفتنا لبعضنا، هي الطريقة التي قدر الله بها.

تذكر أنني أخبرتك بأنني مدققة حسابات في البنك الخاص بي، وكذلك رئيسة وحدة التحويلات الخارجية للعلاقات الدولية، قبل موقفي هنا في البنك الذي أتعامل معه، لدي فرصة لنهب المال من عميل لبناني متوفى، أظهرت نتيجة تحليل الجثة أنه توفي نتيجة لسرقة من مسلحين مجهولين، ومن سجلات فتح الحساب، لم يشر إلى أي شخص بصفته مستفيداً من أقاربه منذ عام ٢٠٠٨ حتى الآن، لم يتقدم أحد كمستفيد من أقاربه لإدارة الصندوق، المبلغ المطلوب هو إجمالي أربعة عشر مليوناً وخمسمئة ألف يورو.

يمكنني تقديم جميع الأوراق القانونية المطلوبة من المحكمة الهولندية، لتقديمك كمستفيد قانوني لهذه الأموال، إذا كنت ستقبل الدخول في شراكة معي في هذه الصفقة، فهناك الكثير

من الأموال التي تمّ التخلي عنها في هذا البنك، نتيجة للحسابات المصرفية المهجورة، وحيازات الأسهم، ودفعات التأمين على الحياة غير المطالب بها، واستحقاقات المعاشات المنسية، سوف أعطيك بالتأكيد تفاصيل شاملة حول تحقيق ذلك بشكل قانوني من دون مخالفة قوانين البلاد، بمجرد الردّ لي لتشير إلى اهتمامك بالعمل معي.

لقد عملت مع البنك لعدة سنوات، وخصصت بعض الوقت لدراسة إجراءات مطالبات الميراث الهولندية، ممتنة إذا كنت ستتعامل مع هذه المسألة بالسرية والنضج المطلوبين، ما يضع نزاهتي في المقام الأول، لأنني لن أحتاج إلى أي أخطاء أو ندم، أؤكد لك أنك لن تندم أبداً، إذا كنت ستتخذ الخطوة الجريئة للمشاركة معي في هذه الصفقة، سيكون من الحكمة، أن نبذل كل جهد ممكن لعدم فقدان هذه الفرصة الذهبية.

يحدث هذا في كل بنك حول العالم حتى في بلدك، لكن الناس خارج الصناعة المصرفية لا يعرفون ذلك، سيتم تقاسم الصندوق بنسبة ٥٨٪ بالنسبة لي، و٣٥٪ بالنسبة لك، وسيتم تخصيص ٧٪ لتغطية أي نفقات أو ضرائب في البنك الذي تتعامل معه، وسوف نستخدم الصندوق في لبنان لبناء الشركات ولأجل الاستثمار الذي سوف يديره كل منا، من فضلك، هذا هو طلب صادق بالنسبة لي ولَك، أنا فقط أتوسل إليك بحق العلاقة العاطفية التي تجمعنا معاً، لجعل هذه الصفقة سرية للغاية، لأننا لا نستطيع أن نثق في أي شخص سوى أنت وأنا وحدنا.

يرجى التعامل مع هذا الاقتراح التجاري بأقصى درجة من السرية، أرجو أن ترسل لي المعلومات التالية للحصول على مزيد من الطلب لهذا التحويل:

١- اسمك الكامل.

٢- عنوانك في بيروت.

٣- نسخة التعريف الخاصة بك.

٤- جنسيتك.

وبعدها، سأتصل بابن عمتي الذي يعيش في البقاع، ليجتمع معك في بيروت، لإجراء الترتيبات اللازمة من أجل تزويدك ببعض الأوراق الشخصية وجواز سفر لبناني جديد، لاستخدامه للقدوم إلى هولندا، أرجو ألا تتطرق خلال الاجتماع معه عن الحديث حول علاقتنا، ولا عن موضوع صفقتنا التجارية، إنه سرنا الكبير وحدنا، خلال ذلك أرجو أن تستمتع بوقتك، وألا ينتابك القلق حول هذا الموضوع، فالنتيجة سليمة ومضمونة إن شاء الله، مع أطيب التمنيات.

المخلصة لك إلى الأبد،،،،،،، لمياء.

بعد استلامي هذا الإيميل انتابني قلق كبير من المستقبل المجهول الذي قد ينتظرني، فمهما كان تخطيط لمياء سليماً، فإن المستقبل يظل غير مضمون النتائج، فلا ضمانات في الحياة، لكن وضعي الحالي وديوني المتراكمة، وعجزي عن تأمين مستقبل أولادي، دفعتني جميعها للتحامل على مخاوفي والقبول بهذا القادم المجهول، بعد أربعة أيام وصلتني على المسنجر هذه الرسالة.

عزيزي الحبيب:

آسفة لتأخري عليك برسالتي، أرسل لك رقم جوال ابن عمتي سليم في بيروت، لكي تتصل به، ثم تذهب لمقابلته، وخذ معك ست صور حديثة صالحة لاستعمالها في جواز السفر، أرجو ألا تتطرق معه بالحديث حول علاقتنا، ولا عن موضوع سرنا الكبير، بأي شكلٍ من الأشكال.

المخلصة لك إلى الأبد،،،، لمياء

بعد هذه الرسالة، شعرت بأن الأمور أصبحت جدية، فأحسست بالذعر وأنا أفكر: كيف سيكون وضعي لو اكتشفوا بالمطار بأن جواز السفر الذي أحمله مزور، وماذا سيحدث لعائلتي وأولادي؟ تصورت أنهم قد يضعونني بالسجن وتنتهي حياتي، وماذا سيقول أصدقائي ومعارفي عني؟

لكن حالة القلق وتوتر الأعصاب والخوف والأمل التي أعيشها منذ قبولي بهذه الصفقة، انعكست جميعها على طريقة تفكيري السليمة، وجعلتني أتخذ قراري بالمضي إلى نهاية هذا المشروع.

بعد يومين اتصلت بسليم، ورتبنا موعداً في قهوة المربوطة، التي اعتدت أن أتردد عليها، وبعد أن شربنا فنجانين من قهوة الإسبريسو، أعطيته الصور، وجلسنا نثرثر ونتناقش في مشكلات البلد، إلى أن أشار بمعرض كلامه، إلى أنه يعرف أنني متزوج، وأن عندي ثلاثة أولاد، ويعرف عنوان أسرتي في بيروت، ولقد شاهدني على المسرح مراراً، وأنا أؤدي بعض الأدوار، ففهمت مباشرة من فحوى حديثه، بأنه تهديد مباشر، يلوح فيه على أنه قادر على الوصول إلى عائلتي

متى يشأ، وانتهت جلستنا، وعندما عدت إلى بيتي، شعرت فعلاً بالذعر لأن عائلتي أصبحت رهينة لديه، وأن هناك مخططاً أكبر مني يتم الإعداد له.

لم أنم في تلك الليلة، وقررت أن أتراجع قبل فوات الأوان، وأن أرسل في الصباح رسالة إلى لمياء، أطلب منها أن تنسى الموضوع، عندما وصلت إلى هذا القرار، شعرت بالهدوء والطمأنينة، فاستطعت أن أتابع نومي بشكل عميق، لكنني عندما استيقظت في الصباح، وجلست لأكتب الرسالة، تذكرت أربعة الملايين يورو، وهي بالنسبة لي حبل النجاة الأخير، فأنا ممثل من الدرجة الثانية، والزمن يلعب ضدي، وأنا أتقدم بالعمر في كل يوم، وسيكون من الصعوبة بعد فترة حصولي على أدوار في المسرحيات.

بصراحة إنني رجل بلا مستقبل، وأنا الآن أتخلى بغبائي عن فرصتي الوحيدة، لأبدأ حياتي من جديد، وأرسل أولادي إلى الجامعات، بعدها يمكنني أن أتزوج من امرأة صغيرة وجميلة وأعيش حياة مترفة، إنه حلم كان يراودني طوال عمري، لابد من المخاطرة، وإلا فسأبقى فقيراً إلى الأبد، فتراجعت في اللحظة الأخيرة عن كتابة الرسالة، استجمعت شجاعتي وأقنعت نفسي، بأنني أصبحت جاهزاً لقبول قضاء الله وقدره.

رنَّ موبايلي بعد أسبوعين، وسمعت صوت سليم، وهو يقول لي: إن الأمانة جاهزة، وسيمر غداً إلى بيتي ليسلمني إياها، بالفعل حضر سليم باليوم التالي، وسلمني جواز السفر وعليه صورتي واسمي الجديد، من المستحيل أن أصف شعوري، وأنا أنظر إلى جوازي، فهو

مزيج من الخوف والفرحة، وأشياء كثيرة لا أستطيع وصفها، أخذت موبايلي وأرسلت رسالة قصيرة إلى لمياء، أخبرها بأنني استلمت الجواز، وبعد أقل من ساعتين استلمت منها الإيميل التالي:

عزيزي محمود.. لقد سمحت لنفسي بأن أناديك باسمك الجديد، لكي تعتاد عليه، ويشهد الله أنني أعد الأيام لكي نلتقي في أمستردام، أرجو أن تذهب غداً إلى بنك المشرق، وتطلب مقابلة نائب المدير، ليساعدك على فتح حسابك في هذا البنك، وفقاً للمعلومات الواردة في جواز سفرك، ثق بي بأن الأمور ستتم ببساطة، لأنني رتبت الموضوع، وبعد الانتهاء من فتح الحساب، راجع السفارة الهولندية من أجل الحصول على فيزا سياحية إلى هولندا، أكرر لك مرة ثانية أنه لا داعي للقلق، فإن الأمور بإذن الله ستجري على ما يرام.

المخلصة لك إلى الأبد،،،،،، لمياء

في اليوم التالي ذهبت إلى البنك، وقابلت نائب المدير، ولقد رحب بي كثيراً، وفتح لي حساب توفير بالبنك بمبلغ أربعة آلاف يورو، ولقد فهمت من حديثه، بأنه يتطلع لكي نعمل معاً بالمستقبل في مشاريع استثمارية كبيرة في لبنان، أدركت بلحظتها بأنه يعرف أشياء كثيرة عني، ما أعطاني الثقة بنفسي، وتوهمت أنني أصبحت من رجال الأعمال المرموقين، بعدها ذهبت إلى السفارة الهولندية، وتقدمت بطلب للحصول على فيزا سياحية إلى هولندا.

تأكدت بأن العناية الإلهية لن تتخلى عني، وأن جواز السفر الذي استعملته حقيقي، وليس مزوراً كما كنت أتوقع، لما وضعت السفارة عليه فيزا السفر إلى هولندا، استعدت الطمأنينة التي كنت

قد افتقدتها منذ تورطت في هذه الصفقة، أقنعت نفسي بأن أغلبية الأغنياء في هذا العالم الذي نعيش به، قد جمعوا أموالهم بطرق ملتوية، وأنني ما دمت أحصل على هذا المبلغ، من دون أن أؤذي أحداً، فإنه من حقي، وأنا أولى به من البنوك التي تسرق الناس ولا تشبع نهمها أبداً، إن ضميري مرتاح لأبعد الحدود، بعد أن أنهيت ما طلبته مني لمياء، أرسلت لها رسالة على المسنجر أخبرها فيها بأنني أصبحت جاهزاً للسفر إلى أمستردام.

في اليوم التالي استلمت منها هذا الإيميل:

عزيزي محمود.. لا يمكنني أن أعبر لك عن عواطفي نحوك، أرجو أن تحجز على الخطوط الهولندية، وتأتي بأسرع ما يمكن، أخبرني برقم رحلتك، لأرسل لك شخصاً ليستقبلك في المطار، لأنه من الأفضل ألا نجتمع معاً في الأماكن العامة، هناك كاميرات مراقبة في كل زاوية من زوايا المطار، أنا بالانتظار.

المخلصة لك إلى الأبد،،،،،،،،،، لمياء

بالنهاية وصلت إلى مطار سخيبول في أمستردام، عند مروري بصالة الوصول، شاهدت رجلاً طويلاً أشقر، يحمل بيده لافتة مكتوباً عليها مستر محمود، فتأكدت من ملامحه بأنه الشخص نفسه الذي ذكرته لمياء في رسالتها الأخيرة، بأنه سيكون في انتظاري بالمطار. أثناء حديثنا بسيارته وهو يتكلم اللغة الفرنسية المكسرة، أخبرني بأن اسمه بول، وأنه صديق للمياء، وهو عامل بناء من أصول بولندية.

بعد أكثر من نصف ساعة، وصلنا إلى فندق ويست بارك، وهو فندق صغير بثلاثة نجوم، وقبل أن أهمَّ للنزول من السيارة، أخرج من

جيبه ظرفاً أصفر مغلقاً وأعطاني إياه قائلاً: إنه من لمياء، ثم أعطاني موبايلاً صغيراً مستعملاً، وطلب مني ألا أستعمله إلا للاتصال به، شارحاً لي بأن الخطوط هنا كلها مراقبة، طالباً مني أن أكون في منتهى الحذر عند تعاملي مع الأشخاص الآخرين.

نزلت من السيارة، واتجهت إلى باب الفندق، بعد أن أنهيت معاملة تسجيلي، صعدت إلى غرفتي، وأنا أشعر بالخوف من كلمات بول الأخيرة، لاشك أنه يعرف كثيراً عن موضوع قدومي إلى أمستردام، فتحت الظرف لأجد فيه أربعة آلاف يورو ورسالةً مطبوعةً على الكومبيوتر.

حبيبي محمود.. أولاً الحمد لله على سلامتك، لم أستطع أن آتي إلى المطار لاستقبالك. الآن على أي حال، قد تعرفت على بول، وأعتقد بأنه سيساعدك كثيراً خلال وجودك في أمستردام، طلبت منه أن يحضر غداً مساءً، ليأخذك إلى مركز البلد لتشتري بدلة أنيقة لترتديها عند حضورك إلى البنك لمقابلة المستر برنارد المسؤول عن الودائع في البنك، سيكون بول في الوقت الحاضر واسطة التواصل بيننا، أقول لك مرة ثالثة لا داعي للقلق، فالأمور كلها ستجري إن شاء الله على ما يرام.

المخلصة لك إلى الأبد،،،،،،،،،،،، لمياء

أمضيت طوال النهار وحدي بالفندق، وأنا أنتظر قدوم بول، ينتابني شعور داخلي بالفراغ لا يهدأ أبداً، إنه كالفجوة التي تزداد اتساعاً في كل لحظة، ولعل أقوال وتصرفات بول هي التي دفعتني إلى التفكير، بأنه ربما قد يكون على علاقة عاطفية وجنسية معها، تخيُّلي بوجود

علاقة له مع لمياء، أيقظ في نفسي الشعور بالاكتئاب المختفي الذي ظل يلازمني منذ طلاقي من زوجتي.

حضر بول بالمساء في حوالي الساعة السابعة، ذهبنا إلى مركز البلد، اشتريت بدلة من ماركة بووس الشهيرة وحذاء جلدياً فاخراً، لكي أظهر بشكل أنيق، عند مقابلتي السيد برنارد في البنك، فهمت من بول، بأنه يعيش وحده في استديو صغير خارج أمستردام، ويبعد عني حوالي نصف ساعة بالسيارة، حاولت أن أتطرق معه بالحديث عن علاقته بلمياء، ولكنني لم أصل إلى أي نتيجة، خجلت من أن أسأله مباشرة عن طبيعة هذه العلاقة، لكيلا أعطيه الانطباع بأنني أتطفل على حياته الخاصة. أوصلني الفندق، ووعدني بأنه سيحضر في اليوم التالي بالوقت نفسه لاصطحابي إلى أحد البارات القريبة لتمضية بعض الوقت هناك.

بالفعل حضر بول في الوقت المحدد باليوم التالي، أخذني بسيارته من أمام الفندق، وأخبرني بأننا سنذهب للعشاء في شقته، لأنه يريدني أن أتمرن على تقليد إمضاء المرحوم محمود. وصلنا إلى بناء قديم، وصعدنا إلى شقته في الطابق الثاني، حيث يعيش هناك بمفرده، أحضر لي زجاجة بيرة وساندويشة من البراد، أعلمني بأن عليَّ أن أذهب لزيارة البنك في الساعة العاشرة من بعد غد، وأنني سأبقى في بيته هذه الليلة، وطوال نهار اليوم التالي، لأتمرن على تقليد إمضاء محمود، أخرج ورقة بيضاء من كدسة الأوراق البيضاء الموجودة على الطاولة، ثم أخرج من جيبه ورقة عليها الإمضاء المطلوب تزويره، وقال لي: يجب أن تتمرن على تقليد الإمضاء لمدة ساعات طويلة، أخذ عدسة مقربة كانت معه ووضعها فوق الإمضاء الأصلي، وأخذ يشرح

لي بالتفاصيل الدقيقة طبيعة شكل الحروف المكونة للإمضاء وطبيعة علاقتها مع بعضها بعضاً.

عندما نظرت إلى الإمضاء في أول الأمر، بدا لي بسيطاً، وتصورت أن من السهولة تقليده، بعد أن قمت بمحاولتي الأولى، أخذ العدسة المقربة ووضعها فوق إمضائي، ثم وضعها فوق الإمضاء الأصلي، ولدهشتي كانت هناك فروقات كثيرة بين الإمضاءين، بدأت أعيد المحاولات، وأكررها لأكثر من ساعتين حتى شعرت بالإعياء، حينها اقترح بول، أن نشرب زجاجة بيرة أخيرة ونذهب إلى النوم، على أن نتابع التدريب على تقليد الإمضاء في اليوم التالي.

في اليوم التالي، أمضيت النهار كله في شقة بول، وأنا أتمرن على تقليد الإمضاء، حتى وصلت إلى درجة الملل والتعب، وشعرت أنني من المستحيل أن أستمرَّ في التمرين، حينئذٍ أقنعني بول، بأن إمضائي أصبح الآن يشبه كثيراً إمضاء محمود، ومن الصعب التفريق بينهما.

في المساء اصطحبني بسيارته، وأنزلني أمام فندقي، وذكَّرني ونحن في السيارة، أنه عند دخولي البنك، ستكون موظفة الاستعلامات هناك على شمالي، وعليَّ أن أقول لها: إنني أريد رؤية السيد برنارد، بعد أن أعطيها اسمي، وأنه سيحضر شخص من موظفي البنك، ليقودني إلى مكتب السيد برنارد، أكد عليَّ مرة ثانية، أنه خلال حديثي مع السيد برنارد، يجب ألا أتكلم الفرنسية بلهجة سليمة، لأن محمود كانت لغته الفرنسية مكسّرة، ما سيجعل السيد برنارد كعادته، بأن يطلب من الموظفة لمياء التي تتقن العربية، لأن تحضر إلى مكتبه، لتقوم بدور الوسيط للترجمة بينكما.

إن الأمور كلها ستجري على أحسن ما يرام، وبما أن مهنتي الأصلية هي التمثيل على المسرح، فإنه واثق بأنني سأنجح في تأدية هذا الدور السهل، ولاسيما أنه كان قد سمع من لمياء بأن هناك تطابقاً كبيراً بين شكلي وشكل محمود، أعادت إليَّ كلماته الأخيرة الثقة المفقودة في نفسي، وأخذت أردد بأعماقي، بأنني سأنجح في هذه المهمة، لأعطي لنفسي مزيداً من الثقة.

في اليوم التالي، أخذت تاكسي وأعطيته العنوان، لأجد نفسي بعد عشر دقائق أمام البنك، بعد نزولي من السيارة، وأنا أتجه إلى باب البنك انتابتني نوبة من الذعر، وسمعت دقات قلبي وهي تنبض في أذني، وأحسست بالعرق البارد يتصبب من جسمي، تملكتني رغبة جامحة للفرار من هذا المكان، خفت ألا تحملني ساقاي، وأن أفقد الوعي وأقع على الأرض. استدرت إلى الخلف، وبدأت أبحث عن تاكسي ليعيدني إلى الفندق، ثم تماسكت، وأخذت أطمئن حالي، بأنه مهما اشتد خوفي، فإن ذلك لن يحدث، وتذكرت النوبة التي أصبت بها لأول مرة عند ظهوري على المسرح، أقنعت نفسي بأن ما أمر به، هو ردة فعل طبيعية لجسمي على الموقف الخطير الذي ينتظرني، ويعود ذلك إلى كمية الأدرينالين الكبيرة التي فرزها جسمي، ما تسبب لي في هذا الموقف، بدأت أهدّئ حالي، وأخذت أنفاساً عميقة متتالية، لكي أستعيد السيطرة على أعصابي، بعد دقائق معدودة استعدت طبيعتي، فاتجهت إلى مدخل البنك.

فعلاً جرت الأمور تماماً، كما وصفها لي بول، بعد أن جلست في مكتب السيد برنارد، وشرحت له بلغة فرنسية ركيكة بأنني أرغب

في سحب عشرة ملايين يورو من حسابي، لتحويلها إلى بنكي في بيروت، بينما سأبقي بقية المبلغ عنده، في حسابي بالبنك، لأعطيه نوعاً من الشعور بالاطمئنان، نظراً لحاجتي إلى هذا المبلغ لتنفيذ مشروع استثماري، لبناء فندق على شاطئ البحر.

أثناء حديثنا فُتح الباب ودخلت لمياء، لقد عرفتها فوراً من صورة وجهها على الفيسبوك، ولكنني لم أتوقع أن تكون قصيرة ونحيفة لهذا الحد، فاتجهت نحوي وسلمت عليَّ بحرارة على أساس أنني عميل قديم للبنك، وتعرفني منذ فترة طويلة. يبدو أن السيد برنارد قد استدعاها كعادته لتقوم بدور المترجم بيننا، ليتأكد حرفياً من طلباتي، كان لوجودها تأثير كبير في استعادة ثقتي بنفسي خلال الاجتماع، بعدها قمت بالتوقيع على معاملات التحويل إلى حسابي في بنك المشرق في بيروت، لم تأخذ هذه العملية أكثر من ساعة، عند الانتهاء منها، عدت إلى فندقي، وأنا أحسُّ بأنني أصبحت أسعد إنسان بالعالم، لقد أصبح الآن في حسابي عشرة ملايين يورو في بيروت.

على الرغم من كل هذا الفرح الذي يفيض في داخلي، لم أستطع النوم في تلك الليلة، ولعل ذلك يعود إلى شدة الإثارة التي عشتها في هذا اليوم. طردت بعض الأفكار التي حاولت أن تتسلل إلى دماغي، حول أحقيتي بالحصول على هذا المبلغ من البنك، استعنت بحجتي القديمة، بأنني، إذا لم أقم بسحب هذا المبلغ، فإن البنك سيستولي عليه، عاهدت نفسي على أنني سأخصص قسماً من هذا المبلغ لمساعدة الجمعيات الخيرية، عندما وصلت إلى هذه النتيجة، ارتاح ضميري من كل هذا الموضوع، وذهبت أغط في نومٍ عميق.

في الصباح الباكر، اتصل بي بول، وهنأني على نجاح العملية، ذكر لي أنه سيأتي مساءً، ليأخذني للعشاء في بيته، جلست أنتظره، والأفكار السوداء تخيّم على تفكيري، خطر لي في هذا الوقت، أن أذهب مباشرة إلى المطار، لأجد طيارة تقلني إلى بيروت، ولو حتى عن طريق رحلة غير مباشرة، فإن مبلغ عشرة الملايين يورو، أصبحت الآن كلها باسمي، وإن لمياء وبول مجرد محتالين، وأعتقد أن هناك علاقات عاطفية تربطهما ببعضهما بعضاً، فهو لا تفوته شاردة ولا واردة من تفاصيل هذه الصفقة، لكن الذي دفعني إلى التريُّث في قراري هذا، هو التهديد المبطن الذي سمعته من ابن عمة لمياء، عندما أشار بحديثه إلى أنه يعرف عنوان عائلتي في بيروت، فجلست على مضض، وأنا أنتظر قدوم بول.

ما كادت الساعة تقارب السابعة، حتى حضر بول، ركبت إلى جانبه، وانطلق إلى بيته، كان يبدو سعيداً ومنتشياً، استغربت كثيراً عندما بدأ يحدثني عن الفرص الكبيرة للمشاريع الاستثمارية التي تنتظرنا في بيروت، لما دخلت بيته، فوجئت بوجود لمياء جالسة على الكنبة المواجهة للباب مباشرة، فما كان منها إلا أن تقدمت مني، وعانقتني وهي تضحك، وأخيراً التقينا .... مبارك.. الأمور كلها انتهت بسلام، ألم أقل لك ألا تقلق.

فتح بول زجاجة من النبيذ احتفالاً بهذه المناسبة، وجلسنا نشرب ونتسامر في جو مملوء بالفرح والسعادة، أثناء جلوسنا قام بول بتغيير مقعده، وجلس إلى جانب لمياء، وضع يده على كتفها، ثم مدَّ يده ولمس ذراعها مداعباً إياها، وهو يقول مازحاً: هذه أجمل امرأة في العالم.

حاولت أن تدفع يده برفق عن جسمها، ورفعت رأسها واحمرَّ وجهها، عندما رأت الغضب الذي اعتراني من هذه الحركة الصبيانية. لاحظ بول بدوره التبرُّم الواضح على وجهها، فانسحب بهدوء مصطنع، تأكدت من هذه الحركة، بأن شكوكي كانت في محلها، حاولت أن أكون طبيعياً، لكيلا أفسد أجواء الابتهاج. بعد ساعة شعرت بأنني لم أعد قادراً على تحمل هذه الجلسة، فطلبت من بول أن يعيدني بسيارته إلى الفندق، وبالطريق سألته، فيما إذا كان سيقوم بإيصال لمياء إلى بيتها أيضاً، فأجابني بأن لمياء، عندها سيارتها، ولكنها ستمضي الليلة في شقته.

لم أستطع أن أفهم، ما الذي يدور في داخل هذه المرأة، فهي التي تحرشت بي في رسائلها، وعرضت عليّ فكرة الزواج، وها أنذا أكتشف بأنها على علاقة جنسية مع بول، لعلها كانت تحاول أن تستخدمني لتنفيذ هذه المهمة، أو لعلها عاشت الوحدة بدائرة مغلقة، ولم يكن أمامها إلا الحصول على بول، لتفرغ ما بداخلها من طاقات مكبوتة ومشكلات وأحزان، أو لربما كانت بحاجتي لمساعدتها في تنفيذ هذه الصفقة، إنها بطبيعتها شخصية ذكية وعنيدة، فهي بحاجة دائماً، لإثبات ذاتها، ومشاهدة صورتها الجميلة في عيون رجل يدللها ويعيش بقربها، اتخذت قراري في هذه اللحظة، بأنني لن أسمح لنفسي مهما يكن، بأن أكون ألعوبة في يد هذه المرأة.

في ظهيرة اليوم التالي، رنَّ جوالي، وفوجئت بسماع صوت لمياء على الطرف الآخر، أخبرتني بأنها ستحضر لتأخذني من أمام الفندق بعد نصف ساعة، وأكدت عليّ بألا أعلم بول بهذه المكالمة. بعد نصف ساعة، كنت جالساً إلى جانبها في سيارتها، ذهبنا إلى مطعم

صيني صغير بالقرب من الفندق، تطرقت لمياء مباشرة وبجرأة لم أكن أتوقعها إلى علاقتها مع بول، وصفته بأنه شخص سكّير، وشبه عاطل عن العمل، من دون قيم أخلاقية، يقوم بضربها باستمرار، ولقد أجبرها بالقوة على ممارسة الجنس معه. بالنهاية وجدت نفسها مجبرة للاستعانة به لمساعدتنا في تنفيذ خطتنا، ظللت أُومئ برأسي طوال الوقت، وأنا متظاهر بأنني أصدق كل كلمة تقولها، تابعت حديثها لتخبرني أنه الآن وبعد أن عرف بحصولنا على هذا المبلغ، سيحاول ابتزازنا، وسيهددنا بالذهاب إلى البوليس، من الأفضل لنا أن نتخلص منه بأسرع ما يمكن، فهو شخص سكّير، وربما يفلت الكلام منه أمام أصدقائه، فنجد أنفسنا وقد أصبحنا داخل السجن.

رفضت فكرة أن أتورط في هذا الموضوع، أفهمتها بأنني سأحجز غداً وأسافر إلى بيروت، ولن أشارك بأي شكل في هذه الجريمة، فذكرتني بوجود شرطة الإنتربول القادرة على الوصول إلى بيروت، وأن تهمة انتحال الشخصية وتزوير الإمضاء للحصول على الأموال من البنوك، قد تبلغ مدة عقوبتها خمس عشرة سنة.

عندما عدت إلى غرفتي بالفندق، أصابتني نوبة من الاكتئاب، وأنا أشاهد أن جميع أحلامي التي حققتها البارحة، قد أصبحت آيلة للتبخر على يدّ السكّير بول، إنه شخص مضطرب نفسياً، ولا يمكننا توقع ردات فعله، في حال رفضنا تلبية جميع طلباته، لا شك أنه شخص منحرف، لا يتورع عن ضرب لمياء وإجبارها على ممارسة الجنس معه، فهو شخص بلا ضمير، لكنني مع كل ذلك، فمازلت لا أريد أن أتورط في موضوع التخلص من بول.

في المساء جاء بول وأخذني من أمام الفندق، واتجهنا إلى بيت لمياء، عند دخولي الشقة، لاحظت البساطة والأناقة التي يميل إليها البيت، كانت أرضية الموكيت لغرفة الجلوس مغطاة بصفيحة من البلاستيك، ما يشير إلى ولع صاحبة البيت بالنظافة، وأحسست من توزيع المزهريات التي تحتوي على الزهور المجففة، ومن صور اللوحات المائية المعلقة على الجدران، باللمسة الأنثوية لصاحبة البيت، أدركت من خبرتي الطويلة في تحليل حركات الجسد التي كنت قد اكتسبتها من خلال تمثيلي على المسرح، بأن لمياء لم تكن على طبيعتها، على الرغم من هذه الابتسامة التي رسمتها على وجهها.

بعد قليل جلبت لنا زجاجة من النبيذ، وأخذنا نتبادل الأنخاب لنجاحنا بتنفيذ هذه الصفقة، بعدها ذهبت لمياء إلى المطبخ، وجلبت لي صحناً فيه قطعتان من البيتزا التي أعدتها بنفسها احتفالاً بنا، ثم عادت إلى المطبخ، وجلبت صحناً فيه قطعتان من البيتزا ناولته لبول، وعادت إلى المطبخ بحجة تحضير قالب الكاتو، ما كاد بول أن ينتهي من تناول قطعة البيتزا، حتى سقط على الأرض وبدأ بالتقيؤ، محاولاً الشهيق بصوت مخنوق، لسحب أكبر كمية من الهواء، ولاحظت صدره يعلو ويهبط بسرعة، من شدة زيادة معدلات ضربات قلبه.

أول ما خطر لي أن أفتح الباب، وأخرج لطلب مساعدة الجيران، لكن لمياء برزت أمامي فجأة من المطبخ وقالت لي: إن الموضوع قد انتهى، وإن سمَّ السيانيد الذي وضعته له في قطعة البيتزا، لن يستغرق مفعوله سوى دقيقتين، نظرت إليه فوجدت صدره بدأ

يتحرك بتكاسل، وأن الدموع تسيل من عينيه، نتيجة لامتلاء حنجرته بالماء، ثم توقف صدره نهائياً عن الحركة، فأيقنت حينها بأنه قد انتقل إلى العالم الآخر.

وقفت جامداً في أرضي، لا أعرف ماذا أفعل، فاقتربت مني لمياء وضمتني، وقالت: إنها فعلت ذلك من أجلنا معاً، إنه كان يعرف بأنها تحبني، وأننا عازمان على الزواج، لكنه كان يضربها ويغتصبها في كل يوم، وهي الآن قد انتقمت لشرفنا منه.

الآن أصبحت جثة بول أمامي، ولم أعد أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، وجلست لمياء على الأرض، وهي تبكي مرددة، بأنها فعلت ذلك من أجلنا معاً، ثم مسحت دموعها، ونهضت متكئةً على يدي، وأخذت تهدئ من روعي، قالت لي: يجب أن تعرف بأن زوجتك ذكية، لقد أعددت خطة محكمة للتخلص من هذه الجثة النتنة.

إنه مادام ليس هناك وجود للجثة، فلن تستطيع الشرطة، اتهام أي جهة بقتل بول، وستكتفي بإصدار مذكرة تبليغ من دائرة الشرطة المحلية باختفائه، وبما أنه شخص مشرَّد وسكِّير، فلن يهتمَّ أحد بمتابعة قضية اختفائه.

سحبت غطاء البلاستيك الموجود على أرضية الموكيت، ولفته على جثة بول شارحةً لي بأنَّ علينا ألا نترك أثراً لبول على سجادتها، فالشرطة الهولندية عندها أجهزة إلكترونية دقيقة قادرة على أن تقتفي آثار الجينات من على سجادة الموكيت.

طلبت مني أن أساعدها لنقل الجثة إلى المغطس الموجود في حمامها، ترددت في أول الأمر، لإدراكي بأن هذه الخطوة ستجعلني

شريكها في الجريمة، ثم استعدت توازني، وفكرت أنه حتى لو أن الشرطة لم تتهمني بهذه الجريمة، فإنني غارق في تهمة تزوير وانتحال شخصية محمود، وإنه لابدَّ لي من أن أسير في هذا الطريق المقدر لي إلى نهايته.

ساعدتها بسحب الجثة إلى المغطس، وبعد أن انتهينا من هذا العمل، قالت لي: إنني زوجتك... ولنذهب إلى غرفة النوم لتنام معي، تصورت أنها قد فقدت عقلها كلياً، بعد أن قامت بتسميم بول، فكيف يمكن أن تخطر لها هذه الفكرة، وجثته مازالت أمامنا في المغطس.

تركتني وحدي في غرفة الجلوس، وذهبت إلى غرفة النوم، بعد قليل خرجت من الباب وهي عارية تماماً، ونادتني طالبة مني أن أذهب إلى غرفة النوم معها، وسألتني أنا زوجتك، فلماذا تشعر بالخجل مني؟! اكتشفت في هذه اللحظة بأن هذه المرأة مجرمة، وهي مريضة نفسياً وبحاجة إلى المعالجة، لكنني شعرت بالوقت نفسه بالإثارة، وأصبح من الصعب أن أسيطر على شهوتي.

شعرت بصراع عنيف بين رغبتي الجنسية بها والرهبة منها، بالنهاية فقدت السيطرة على نفسي، واندسست إلى جانبها بالفراش، لم أكن أشعر بالراحة، على الرغم من شدة الإثارة الناجمة عن منظر الموت المخيف، ومنظر جسم لمياء، وهي مستلقية عارية إلى جانبي، فقدت اللذة الجنسية، وأصبحت النشوة مرتبطة بالخوف من لمياء بدلاً من المتعة.

بعد أن انتهيت من تنفيذ هذا الواجب، ذكرتني لمياء بأنَّ عليَّ أن

أقود سيارتها، وأسير وراءها وهي تقود سيارة بول لتركنها بالقرب من منزله، حتى لا نلفت أنظار الشرطة إلى وجود السيارة أمام منزلها، وستعود معي بسيارتها بعد انتهائها من صف السيارة. أدركت مرة ثانية خطورة هذه المرأة، التي تحسب لكل خطوة حسابها، إنها لن تتأخر عن قتلي بعد أن تجد الطريقة المناسبة، للحصول على رصيدي في بنك المشرق.

بعدما عدنا إلى شقتها، دخلنا إلى الحمام لتقطيع الجثة إلى قسمين، لما بدأت لمياء بإدخال السكينة في جسده، أخذ الدم ينساب ببطء شديد، لم أعد أستطيع تحمُّل هذا المنظر، وتقيأت رغماً عني على أرضية الحمام، فما كان من لمياء إلا أن طلبت مني مغادرة الحمام على أساس أنها ستقوم بإنهاء العملية وحدها.

خرجت من الحمام، وذهبت إلى المطبخ، وباشرت بالشرب من زجاجة النبيذ، لأرفع من روحي المعنوية، إذ إنني أعتقد أن الكحول هو أسهل وسيلة للحصول على الشجاعة. بعد أكثر من نصف ساعة أحضرت لمياء حقيبتي سفر كبيرتين، وطلبت مني أن أساعدها، بوضع النصف السفلي للجثة مع قطع من البلاستيك وجميع ملابسه في حقيبة واحدة، بينما تكفلت بإتلاف جميع أوراقه الثبوتية، معتقدة بأنه سيكون من الصعب على الشرطة في حال اكتشاف الجثة أن تتعرف على صاحبها، ثم أحضرت ثلاث زجاجات من الكلوريكس، وبدأت في تنظيف الحمام من آثار الدماء، وختمت حديثها، بأنها لم تكن تتوقع بأن أكون جباناً لهذه الدرجة، ثم عدنا إلى الفراش، ونحن نحاول أن نقتل الوقت بممارسة الجنس منتظرين

بـزوغ الشـمس.

في حوالي الساعة السادسة، طلعت الشمس بأشعتها الباهتة، وما زال الظلام الخفيف يخيِّم على المكان، فقمت بنقل الحقيبتين إلى صندوق سيارة لمياء المركونة أمام منزلها. كان الهدوء يرخي بظلاله على المنطقة السكنية الراقية التي تعيش بها، والجو رطب بارد، مع نسمات صباحية قارصة، وغيوم داكنة تتجمع بالسماء، ما بعث الكآبة في نفسي. تمنيت في هذه اللحظة لو أنني لم أحضر إلى هولندا، ولم أتعرف على لمياء، التي أصبحت أحملها مسؤولية هذه المصيبة التي وقعت بها، لقد جعلتني شريكاً كاملاً لها في ارتكاب جريمتها.

انطلقت لمياء بسيارتها باتجاه الشمال، إلى قرية جبيثون التي تبعد نحو ساعة ونصف عن أمستردام، كان علينا أن نعبر كثيراً من الجسور على طول الطريق، لقطع القنوات المائية التي تربط بين البحيرات والأنهار، ولأول مرة في حياتي شاهدت منظر القنوات المائية وهي تتشعب بين البيوت والحقول الخضراء الممتدة حولها، كأنها لوحة فنية مرسومة لتخليد فصل الربيع في هذا الريف الساحر.

لقد كنت مشغولاً بتفكيري، ولم أجد لذة بالنظر من نافذة السيارة، للاستمتاع بأزهار التوليب الملونة بالأبيض والأحمر والأصفر، وهي تفترش السهول بألوانها الزاهية مشكلةً قوس قزح حقيقياً على هذه البقعة من الأرض.

بعد أن قادت لمياء السيارة على الطريق الرئيسي لأكثر من نصف ساعة، انحرفت جانباً إلى اليمين، وسلكت طريقاً فرعياً يمر بين الغابات، وشعرت من حركاتها بأنها تعرف المكان الذي نقصده، خففت

من سرعتها، واستمرت بالسير على هذا الطريق الضيق المزفت، حتى لاحظت فتحةً لطريق ترابي غير ممهد، فانحرفت فجأة نحوه، ثم غيرت ناقل الحركة، وزادت من سرعة السيارة، توقعت أنه من المستحيل أن تتخطى السيارة هذه الحفر الصغيرة المتناثرة على امتداد هذا الطريق، وبدأت أسمع أصواتاً خفيفة لارتطام أسفل هيكل السيارة بسطح الأرض، لكنها استمرت بالتقدم، وضاعفت من سرعة سيارتها، إلى أن ابتعدنا نحو خمسمئة متر في داخل الغابة، ولما وصلنا إلى فسحة صغيرة بين الأشجار، أوقفت السيارة بجانب سنديانة كبيرة، نزلنا منها، أخرجت من داخل السيارة رفشاً ذا مقبض صغير، كانت قد دسته فوق المقعد الخلفي لسيارتها، ثم طلبت مني أن أباشر بالحفر، توقعت بأنه من المستحيل أن أحفر لعمق أكثر من نصف متر لطمر هاتين الحقيبتين، لكني ما أن بدأت بالحفر على هذه الأرض الخضراء المرقطة بالأزهار الصفراء، حتى أحسست بأنها طرية جداً، لأنها مكونة من تحلل النباتات المتعفنة منذ زمن بعيد، فتحمست وأنا أشاهد الرفش يدخل بسهولة بهذه التربة البنية الغامقة، ويخترقها من دون صعوبة.

توقعت أنه يمكنني أن أحفر بسهولة لعمق يزيد على متر ونصف المتر، وبينما أنا منهمك في الحفر، شاهدت أن التربة على جوانب الحفرة بدأت تنهار كلما ازداد عمقها، فلم أجد بداً من إزالة التراب المنهار، فأخذت الحفرة تزداد عرضاً، واستمررت بالحفر من دون توقف، إذ إنني كنت خائفاً من أن يمر أحدهم بالغابة، ويشاهدني وأنا أقوم بالحفر، فأجد نفسي مضطراً إلى إسكاته، بضربه على رأسه بالرفش الذي أحفر فيه.

لا أدري من أين استمددت هذه القوة الرهيبة ومشاعر العدائية التي أخذت تتآكلني من الداخل مستمتعاً بالوقت نفسه بتدمير ذاتي نتيجة للتجربة التي مررت بها، فشعرت بالغضب، وبكراهية شديدة لم أعرفهما من قبل، لقد انفجرت الآن هذه الضغوطات المكبوتة في أعماقي محطمةً قيودي النفسية، ولم أعد جباناً كما وصفتني لمياء.

ما كدت أصل بالحفر إلى عمق المتر تقريباً، حتى شاهدت المياه بدأت تنبع من أسفل الحفرة، وأصبحت غير قادرٍ على الاستمرار بالحفر بشكل أعمق من مستوى سطح الماء الموجود بقعر الحفرة، نظراً لاستمرار تراكم الماء بأسفلها.

طلبت مني لمياء أن أتوقف عن الحفر على أساس أن عمق الحفرة أصبح كافياً لدفن الحقيبتين، فشعرت في هذه اللحظة بأن هذه العاهرة تتصورني بأنني أعمل خادماً عندها، وأن وظيفتي أن أتلقى التعليمات منها، وهي لا تتورع بالكذب عليَّ والاستخفاف بذكائي، معتقدةً أنَّ لكوني ممثلاً على المسرح من الدرجة الثانية، فمن المفروض أن تكون إمكانياتي العقلية محدودة.

طلبت مني لمياء أن أحمل الحقيبة الأولى من السيارة وأنزلها بالحفرة، ولقد وضعت يدها على الحقيبة متظاهرة بأنها تساعدني لدفعها إلى الحفرة، بعد أن انتهينا من إلقائها في الحفرة، استدارت وسبقتني إلى صندوق السيارة، لتساعدني في حمل الحقيبة الثانية، ولما أعطتني ظهرها، وابتعدت حوالي المترين عني، وبطريقة لا شعورية، أخذت الرفش وهويت به بكل قوتي على رأسها، لم أسمع إلا صراخها،... آخ شبك...شو جنيت، واستمررت أنهال بالرفش على

رأسها بشكل هستيري عازماً على إسكاتها بأسرع ما يمكن، لأنني لم أعد أستطيع أن أتحمل سماع صوتها.

في لحظة من اللحظات، شعرت بالشفقة عليها والتعاطف معها، وفكرت بالتوقف عن ضربها، لكنني عدت وذكّرت نفسي، بأنها امرأة عاهرة خانتني، ولم تتورع عن قتل بول بدمٍ بارد، محاولاً إسقاط جميع المشكلات التي أعانيها بسببها.

تخيلت أن العناية الإلهية طلبت مني أن أخلص المجتمع من هذه المرأة الشريرة، واستمررت أنهال بالرفش على رأسها بكل قوتي، حتى إنني بالنهاية، وجدت صعوبة في التوقف عن ضربها.

بعد أن انتهيت منها، فتشت في جيوبها، لأتأكد من عدم وجود أي أوراق تشير إلى هويتها، ثم جررتها، وألقيت بها إلى الحفرة بجانب الحقيبة الأولى، وعدت إلى السيارة، وجلبت الحقيبة الثانية، وألقيت بها أيضاً إلى الحفرة ذاتها، بدأت أهيل التراب بسرعة على الحفرة، حتى أكملت ردمها، وبقيت هناك كمية زائدة من التراب، فمهدتها حول الحفرة، لكيلا ألفت الأنظار إليها، متذكراً جملة لمياء، إذا لم تكن هناك جثة، فلن تستطيع الشرطة أن توجه تهمة القتل إلى أي جهة.

ركبت السيارة، وقدتها عائداً من الطريق نفسه الذي سلكناه، ونحن قادمان من بيتها، وأنا أتساءل طوال الطريق، كيف يمكن أن يتحول هذا الحب والإعجاب إلى كراهية مقيتة؟!

عندما وصلت إلى المبنى، ركنت السيارة في المكان المخصص لها، وتمشيت مبتعداً عن البيت لمسافة نحو شارعين، أوقفت سيارة تاكسي، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى فندقي.

شعرت بسعادة كبيرة وأنا أجد نفسي بعد هذا العناء آمناً في غرفتي، فدخلت الحمام، وملأت المغطس بالماء، وأخذت من البراد الموجود بالغرفة زجاجة صغيرة من الويسكي، وتمددت بالماء الساخن، وشرعت أشرب الويسكي البارد بتمهل، وأنا أتلذذ بطعمه الجارح، وأخطط لخطوتي التالية، حيث عليَّ أن أذهب بالمساء إلى المطار، لأتوجه إلى بيروت، ولو برحلة غير مباشرة.

بعد وصولي إلى بيروت، وبحكم طبيعة عملي ممثلاً ثانوياً على المسرح، فإنني على علاقة بالطبقة السفلى من المجتمع، فأنا أعرف كثيراً من القوَّادين الذين يستغلون الممثلات الناشئات وبائعي المخدرات الذين يزوّدون الوسط الفني بها ورؤساء شبكاتهم، سأجد الشخص المناسب، وسأدفع له مبلغ مئة أو مئتي ألف دولار، للتخلص من سليم ابن عمة لمياء في حادث سيارة مفتعل، لكيلا نلفت الانتباه إلى وفاته، ويجب أن تتمّ إجراءات تصفيته بسرعة، قبل أن يصل إليه خبر اختفاء لمياء.

المسحوق

كنت دائماً أستمتع من بلكونتي في الطابق الأول، بمراقبة زوجة جارنا أبو كمال، الذي يعيش في شقة بالقبو من البناء نفسه، وأتقصد مشاهدتها أثناء خروجها صباحاً إلى عملها، كما اعتدت أن أتلصّص عليها من وراء الشباك، عندما تقوم بنشر غسيلها في الفسحة الموجودة في بيتها، إنها تجذبني بمجرد النظر إليها، ولعل ذلك يعود إلى قصر قامتها ونعومتها، لا شك أن إعجابي بها على الرغم من معرفتي بأن شكلها عادي، يعود بالأساس إلى أيام المراهقة، عندما كنت أجد نفسي مغرماً بممثلات السينما النحيفات والرشيقات، إننا نحسّ بالجمال في داخلنا، ثم نتصوره بالطريقة التي تشبع رغباتنا الجنسية، ثم نقوم بإسقاطه على الأشخاص الذين نصادفهم في حياتنا، ما دفعني لا شعورياً إلى مقارنتها بزوجتي السمينة الثرثارة التي لا تتوقف عن الأكل والكلام.

حاولت عدة مرات أن أجرَّ زوجتي للحديث عن جارنا أبو كمال، وأن أتطرق من خلاله إلى زوجته لمياء، لكن زوجتي بغريزتها الأنثوية، كانت تشك بأعجابي بزوجة جارنا، ولذلك كانت تتهرب دائماً من هذا الموضوع، لقد ذكرت لي بأن زوجة جارنا أبو أيمن الذي يسكن فوقهم بالطابق الأرضي ترفض أن تزور لمياء، وكذلك كل الجيران، لأنها سيئة الطبع في تعاملها مع الآخرين، وخاصةً مع المحيطين بها، فهي تتشاجر مع زوجها باستمرار، وطالما سمعوا صوت صراخ لمياء عندما يضربها زوجها، وإن جارنا أبو أيمن شعر بالشفقة عليها، فنزل مرتين إلى بيت أبو كمال محاولاً أن يفكَّ

الإشكال، وأن يوفق بينهما، تابعت حديثها بأنها تلجأ إلى افتعال المشاكل مع زوجها، ولذلك يقوم بتربيتها، إن كراهية النساء لكل بنت تفوقهن جمالاً شيء موجود في جينات كل واحدة منهن.

شعرت بالأسى متذكراً ملامح الحزن العميق الذي كنت أشاهده مرسوماً على وجه لمياء، وتصورت الظروف الصعبة التي تعيشها، فهي تعمل مدرسة طوال النهار، لتساعد زوجها في مصروف البيت، إضافة إلى أن عليها أن تذهب في الصباح لتضع ابنها الصغير عند أمها، ثم تعود بعد الانتهاء من مدرستها لتجلبه معها إلى البيت، كما أن عليها أن تقوم بتنظيف وترتيب البيت وتحضير الطعام، إنه عملٍ مضنٍ، ولكن الظروف المادية الصعبة في هذه الأيام لا ترحم أحداً، الكل يعرف، وإن كان يحاول أن يخفي ذلك، أن المال هو الوسيلة الوحيدة لجعل الحياة الزوجية ناجحة، وأن الحب والكلام الفارغ ينتهيان عند أول تجربة مادية قاسية تمرّ بها العائلة، إن وجود المال يساعد على تحقيق رغبات وتطلعات الزوجة، فيجعلها بالمقابل تتغاضى عن كثير من تصرفات الزوج الخاطئة، ما يسهم في عملية استمرار الزواج، وعندما يصبح الزوج عاجزاً عن توفير مستلزمات أسرته، يفقد احترامه لذاته، ويخسر جميع أحلامه، ويصبح مسحوقاً وعدائياً بالوقت نفسه.

بعد أن انتهت زوجتي من كلامها عن مشاكل جارنا مع زوجته لمياء، وجدت نفسي لا شعورياً أحاول أن أحلل وأعلل طبيعة علاقتهما الزوجية، لا شك أن وضع زوجها المادي الصعب، والسكن

معه في شقة ضيقة لا تزيد على غرفة نوم واحدة وصالون صغير، وبمساحة قد لا تتجاوز الخمسين متراً مربعاً، قد وضعت كثيراً من الضغوط النفسية عليها، إن الواحد منا بحاجة إلى مساحة كبيرة ليعيش فيها وحده، وليشعر فيها بخصوصيته وحريته، وتمنيت في هذه اللحظة لو أن لمياء كانت زوجتي، لمعرفتي بأنني قادر على أن أؤمن لها مستوى أعلى بكثير من الحياة التي تعيشها.

أردت أن أبعد هذه الأوهام عن مخيلتي، لأنني أعرف بطبيعتي بأنني كلما ازداد تفكيري بالموضوع، ازدادت سيطرته على عقلي، حتى أجد نفسي بالنهاية وقد تلبستني الفكرة، وأصبحت عاجزاً عن مقاومة الإغراء بالزواج من لمياء.

مضت الأيام وأنا مشغول بين عملي في عيادتي لطب الأسنان، وبين متطلبات حياتي العائلية، لكنني لم أتوقف عن التفكير في لمياء، ولم أستطع مقاومة هذا الوسواس القهري الذي يطاردني باستمرار حول رغبتي القوية في الحصول عليها، لقد استدرجني تفكيري إلى أن أضع خطة للتعرف على لمياء، لأكتشف حقيقة نياتها حول مستقبلها، قبل أن أطرح عليها رغبتي في الزواج منها، يمرّ الرجل أحياناً في مرحلة تصبح فيها إرادته تحت رحمة هرموناته الجنسية، ويصبح عاجزاً عن التفكير بغير المرأة التي يبحث عنها لقضاء ما بقي من حياته معها.

في إحدى الأمسيات، وبينما أنا جالس مع زوجتي نشاهد التلفزيون، سمعت صرخات نسائيةً صادرة من قبو جارنا أبو كمال، أدركت حينئذٍ أنها قد تكون فرصتي الوحيدة لكي أجتمع

بلمياء، فأخبرت زوجتي وأنا متجه إلى الباب، بأن من واجبي أن أنزل إلى بيت أبو كمال لأصلح الأمور بينهما، حاولت زوجتي أن تقنعني بأن الموضوع لا يخصنا، وأنه من الأفضل ألا نتدخل في مشاكلهم الخاصة، لكنها قبل أن تنهي حديثها، كنت في طريقي على الدرج إلى بيت أبو كمال، لما وصلت إلى بيتهم، كان السكوت مخيماً على البيت، فترددت قبل أن أقرع الباب، ثم تحاملت على نفسي وضغطت زر الجرس، لإدراكي بأن هذه الفرصة قد لا تتكرر مرة ثانية.

فتح أبو كمال الباب، وقال: تفضّل جار.... ما كدت أدخل غرفة الجلوس حتى لمحت جارنا أبو أيمن يجلس على الكنبة المقابلة للباب، ولم تكن لمياء موجودة بالغرفة، لا شك أنه قد سمع صوت جارتنا، فاستغل صراخها، وسبقني إلى بيت أبو كمال، فما كان مني إلا أن جلست لفترة قصيرة، دردشت خلالها مع أبو كمال في بعض المواضيع العامة، ثم استأذنته وغادرت منزله.

منذ انتقالي إلى منزلنا قبل أربع سنوات، وأنا لا أشعر بالارتياح لشخصية جارنا أبو أيمن، مع أنني لا أعرفه جيداً، فهو لا يظهر لي الاحترام بشكل لائق عندما نتقابل مصادفة على الدرج، على الرغم من أنه يعرف بأنني طبيب أسنان ناجح ومختص بجراحة الوجه والفكين من فرنسا، لقد عالجت مرة ابنته المراهقة، وقمت بزراعة سنٍّ أماميٍّ لها، ولم أتقاضَ منه قرشاً واحداً، لأنه موظف حكومي، وأنا أعرف أن تكلفة هذه العملية الجراحية التجميلية، قد ترهق موازنته لعدة أشهر، وازدادت كراهيتي له، عندما شاهدته مرة يحمل قنينة غاز، وينزلها

إلى بيت جارنا أبو كمال، فتأكدت بأنه لا يحترم نفسه، وأنه شخصٌ انتهازي يحاول أن يتودد إلى لمياء بأي طريقة.

وصلت إلى نتيجة، بأنه عليَّ الإسراع بالتعرف إلى لمياء، قبل أن يفكر شخص آخر بالدخول إلى حياتها، إذ إنها تحت هذه الظروف النفسية القاسية التي تعيشها، قد خسرت شجاعتها واحترامها لذاتها، وأصبحت على استعداد لأن تتعلق بأيّ رجل تصادفه، وإن كانت تعرف سلفاً بأنه لا يستحقها.

انتظرت حتى صباح اليوم التالي، وراقبتها وهي تأخذ ابنها الصغير وتخرج من دار البناء، فهرعت إلى سيارتي، وما كادت تبتعد أكثر من ثلاثمئة متر عن المبنى وعن عيون جيراننا المتطفلين، حتى اقتربت منها، وأوقفت سيارتي وعرضت عليها أن أوصلها إلى المكان الذي تريده، ابتسمت ابتسامة صغيرة، ظهرت من خلفها أسنانها البيضاء المصفوفة بانتظام بديع، وتلونت وجنتاها باللون الزهري، لاحظت لأول مرة جمال عينيها السوداوين الواسعتين ونعومة تقاطيع وجهها الرقيق، وقالت لي بدلال، وهي تنظر في عيني مباشرة: لا شكراً.... لا أستطيع... مرة ثانية..... وأشارت بإصبعها إلى ابنها، فهمت من حركاتها وكلماتها القليلة، بأنها لا تستطيع أن تركب السيارة معي حالياً، نظراً لوجود ابنها معها، أو ربما لأنها لم تصدّق أنني أهتم بها لهذه الدرجة.

حين عدت إلى فراشي في تلك الليلة، لم أستطع النوم، فأرخيت جفوني واستسلمت لمتعة أحلام اليقظة، إن منظر وجهها وابتسامتها ماثلتان طوال الوقت في مخيلتي، وكلما حاولت أن أطرد

هذه الخواطر المشوشة من عقلي، ازددت تعلقاً بها، لم يكن أمامي للتخلص من هذا الأرق الذي ينتابني، إلا أن أقوم من سريري بمنتصف الليل، وأجلس وحدي في غرفة الصالة، وأكتب لها رسالة قصيرة أعبر فيها بصراحة عن مشاعري نحوها، وقد قررت أن أنتظرها غداً في الصباح عند باب المبنى، وعندما تهمُّ بمغادرته، سأدسُّ في يدها تلك الرسالة، من دون أن ألفت انتباه ابنها الصغير لرسالتي، بالنهاية وجدت نفسي أكتب هذه الكلمات:

عزيزتي لمياء:

لا أدري فيما إذا كان يحقّ لي أن أدعوك بعزيزتي، ولكنك لو كنت تعرفين مقدار اهتمامي بك لعذرتني على استخدام كلمة عزيزتي، أنا أعرف أنك غير سعيدة بحياتك الزوجية، ويهمني أن تعرفي أنني غير سعيد أيضاً، لا أعرف فيما إذا كنت تؤمنين بالقدر، وإنه يجب على كل واحد منا أن يواجه قدره بشجاعة، بودّي أن نتعرف على بعضنا بشكل جيد، قبل أن نفكر بالزواج والارتباط معاً إلى الأبد. يمكنك إجابتي لرسالتي على المسنجر.
المخلص لك دائماً

طويت هذه الرسالة عدة طويات، بحيث أصبحت صغيرة جداً، لكي يسهل عليَّ وضعها بخفة في يد لمياء، ولم أكتب اسمي في آخر الرسالة، لكيلا ألفت الانتباه إلى شخصي، فيما إذا وقعت هذه الرسالة في يد شخص غريب.

خفت من ألا تأخذ لمياء رسالتي بشكل جدي، متصورة بأنني أحاول أن أستغل خلافاتها مع زوجها، لكي أوقع بها، وأنني غير جاد في موضوع فكرة الزواج منها، وكل همي محصور بإغوائها وإقامة علاقة جنسية معها.

أمضيت عدة أيام وأنا أتفقد المسنجر على هاتفي الجوال، لعلّي أجد رسالة من لمياء تريح بالي، لأن الانتظار قد يكون أحياناً أصعب من مواجهة الجواب، بعد مرور يومين على استلامها رسالتي، بدأت أفقد الأمل تدريجياً، واعتقدت بأنها لم تأخذها بشكل جديّ، وربما تصورت بأن هدفي هو الحصول عليها.

أقنعت نفسي بالنهاية، بأنني أمر بأزمة منتصف الخمسين، مدركاً أن مرحلة الشباب قد انتهت، وأنا أقنع نفسي الآن، بأنه بإمكاني أن أعيش مرحلة المراهقة من جديد، وأن تصرفي الطائش مع لمياء، قد يكون سببه هو إثباتي لذاتي ولأصدقائي بأنني مازلت قادراً على جذب الشابات الجميلات، بحكم مظهري ومركزي الاجتماعي. حالة من القلق ترافقني لأنني غير راضٍ عما حققته في الماضي، يثيره الندم في أعماقي، لأنني لم أتزوج بامرأة جميلة، على الرغم من كل إمكانياتي، والآن أحاول التعويض مع لمياء عما فات.

مع بداية دخولي سنّ الخمسين، حدثت تغيّرات كثيرة في جسمي وفي نفسيتي، أخبرتني بأن مرحلة الشباب قد انتهت، وأني على أبواب بداية مرحلة جديدة من العمر، لكني بدأت أقنع نفسي بأنني لا أكبر، على الرغم من بعض التجاعيد التي كنت أشاهدها وأتجاهلها على وجهي بالمرآة، تصورت أن السبيل الوحيد لتأخير

دخولي في هذه المرحلة، هو بداية حياتي من جديد مع جارتنا لمياء التي قد تصغرني بأكثر من عشرين عاماً، إنها بجمالها وشبابها، قادرة على أن تساعدني لاستعادة شبابي، وأنه مادامت لدي القدرة المادية لتنفيذ جميع متطلباتها، فإن كل مشاكلي ستكون محلولة، وسأنجب ولدين منها لامتلاكها والسيطرة عليها.

كنت أعتقد على أقل تقدير، بأن على لمياء أن تردَّ على رسالتي بالمسنجر، ولو حتى ببضع كلمات، كل يوم يمضي، ولا أرى فيه أي خبر منها على شاشة هاتفي الجوال، أحسّ بأن أحلامي قد بدأت تتلاشى، وأن الموضوع قد أصبح خلفي، ربما لأنها سعيدة بحياتها الزوجية، أو ربما أنها لا تفكر بتدمير حياتها العائلية إكراماً لابنها الصغير، وربما أنني لم أنل إعجابها، ولم تثق بكلماتي، وأنها تصورت أنني أبحث عن الدخول في مغامرة عاطفية، على كل حال، لم يعد أمامي بدّ من أن أقمع هذه الرغبة الجنسية القوية التي سيطرت على تفكيري للحصول عليها، وأن أعود إلى حياتي القديمة وروتينها المعهود، لأركز من جديد على عيادتي وعلى حياتي العائلية، عليّ أن أنسى هذه النزوة التي كانت يمكن أن تدمرني، وقد تقودني إلى المجهول.

لكنني لم أستطع أن أتغاضى عن إهمال لمياء لرسالتي، ولعل شعوري بالكبرياء قد منعني من القبول بهذا الرفض، لقد قرأت مرة، بأن التكبّر هو أم الكبائر وسبب كل الشرور الموجود على الأرض، وهو الذي دفع إبليس لمعصية ربه، على الرغم من معرفته المطلقة بقوته وجبروته، ليخوض بالنهاية حرباً غير متكافئة، كان يعرف نتيجتها مسبقاً.

إن خوفي في هذه اللحظات، أصبح منصبّاً على أن لمياء ربما قد أساءت فهم رسالتي، وربما اعتقدت بأني شخص غير متوازن نفسياً، لأنني اقترحت عليها الزواج، من دون سابق معرفة أو لقاء، لمجرد انجذابي جنسياً إليها، غير عابئ بمعرفة حقيقة مشاعرها نحوي، لكنني مازلت متأكداً، بأنها الطريقة الوحيدة المتوافرة أمامي، لشد انتباهها إلى شخصي، لأنني بالرغم من اعتنائي الكبير بمظهري وأناقتي، فما زال شكلي العادي وتقدمي بالعمر يشكلان هاجسين يؤرقانني باستمرار، يجب إقناع لمياء، بأني جاهز لتخليصها من الظروف القاسية التي تعيشها، وإعطائها الأمل بأن هناك فرصة لتعيش حياتها من جديد برفاهية لم تجربها من قبل، إن إفراطي بالرغبة فيها، في هذه السن المتأخرة، أدخلني في عالم يموج برغبات الفرصة الأخيرة، وتحت رحمة غريزتي التي عجز عقلي عن السيطرة عليها، أصبح هاجسي منصباً فقط، على إشباعها.

للخروج من هذه الدوامة، كتبت رسالة ثانية قصيرة إلى لمياء، شجعني على ذلك، أنها لم تمانع في استلام رسالتي الأولى، عندما دسستها بيدها عند مدخل البناء، وقادني تفكيري إلى كتابة ما يلي:

عزيزتي لمياء:

لابدَّ لي من الاجتماع معك، لأشرح لك حقيقة مشاعري نحوك، وأعتقد أن عيادتي قد تكون أفضل مكان للقاء، وهي

تقع في الجسر الأبيض، حارة الصبان في الطابق الأرضي، وهناك لافتة كبيرة باللون الأسود، عليها اسمي عند مدخل البناء، يمكنك الحضور في الوقت الذي يناسبك، ما بين الساعة الرابعة والتاسعة مساءً، وسأضع اسمك عند الممرضة، لتدخلك إلى غرفة معاينة المرضى عند وصولك مباشرةً.

بالانتظـــار..

المخلص لك: الدكتور أيمن

لقد تجرأت وكتبت اسمي في هذه المرة على الرسالة، لمعرفتي بأنها لم تتطرق مع زوجها إلى رسالتي الأولى، لا شك أنها تفكر في تطوير علاقتنا، لكي تستغلها في المستقبل.

في صباح اليوم التالي، بينما لمياء تهمُّ بمغادرة البناء، اقتربت منها، ودسست في يدها رسالتي بالطريقة السابقة نفسها، لكنها فاجأتني بقولها بجرأة: صباح النور دكتور أيمن، ورمقتني بغنج بطرف عينيها الواسعتين، كانت نظرتها كافية، لأدرك مدى تجاوبها معي، وانتبهت إلى شخصيتها القوية الناضجة، تلبكت ولم أعد أعرف ما أقول لها، ثم استجمعت شجاعتي، قائلاً: صباح الخيرات لمياء، فرسمت بدلال، ابتسامة خفيفة على شفتيها، وتابعت سيرها مع ابنها الصغير.

عدت إلى منزلي، وجلست في البلكونة باسترخاء، وأشعلت سيجارتي، بدأت أسترجع في ذهني بحرية تامة، كل تجاربي العاطفية التي مررت بها حتى الآن، بالطريقة التي يسمونها بعلم

النفس الترابط الحر، لكي أخرج من الضغوط النفسية التي أرزح تحتها، اعترفت بأن لكل رجل منا نسبة من النظرة المادية للمرأة، قد تقل أو تزيد بين رجلٍ وآخر، وإذا اعتبرنا أن الحب فكرة، فإن العلاقة الجنسية هي تجسيد لهذه الفكرة على الواقع، بالنهاية وصلت إلى نتيجة، بأني أحب لمياء، وأن عليَّ الاستمرار في هذا الطريق الذي اخترته بأي ثمن.

بعد يومين وبينما أنا جالس مع زوجتي نتابع على شاشة التلفزيون مسلسلاً مصرياً، سمعت فجأة صوت صراخ نسائي قادماً من قبو جارنا أبو كمال، صعب عليّ أن أصدق، كيف يمكن لجارنا أن يقوم بضرب زوجته الناعمة الجميلة وإيذائها بهذا الشكل، ولعل زوجتي لاحظت آثار الانفعال على وجهي، فعلقت بقولها: خليه يضربها بتستاهل، عيونها زايغة لبرا، شاهدتها وهي تحاول أن تتودد إلى جارنا أبو أيمن، ناوية تخرب بيته.

أفرغت زوجتي بهذه العبارات كل مشاعر الغيرة الموجودة في قلبها، نتيجةً لمقارنتها لنفسها لا شعورياً مع لمياء، تضاربت مشاعري في هذه اللحظة بين الإحساس بالشفقة عليها والكراهية لها بالوقت نفسه، سارعت إلى غرفة النوم، واستبدلت ملابسي على عجل، وانطلقت إلى الباب، غير عابئ بكلمات زوجتي، وهي تطلب مني ألا أتدخل في مشاكل جارنا أبو كمال، نزلت سلم الدرج، وما كدت أقطع درجتين منه حتى لمحت من فوق الدرابزين الحديدي المثبت على طرف الدرجات جارنا أبو أيمن يخرج من بيته متجهاً إلى الأسفل، فخففت من سرعتي، ثم توقفت عند بسطة الدرج، بشكل

يسمح لي بمراقبته، فيما لو مددت رقبتي فوق الدرابزين، لمحت أبو أيمن يكبس جرس الباب، ثم سمعت صوتاً جافاً وقاسياً يقول: خير جار... شو بدك.. فأجابه أبو أيمن: سمعت صريخ جارتنا لمياء... فنزلت لأطمئن عليها، وهنا ارتفع الصوت من داخل المنزل، فعلاً كثير غلبة وقليل أدب، روح اطمئن على زوجتك وبنتك اللي مركبينلك قرون.. ثم صفع الباب بوجهه.

فما كان من أبو أيمن إلا أن استدار على نفسه، وأخذ يصعد الدرج مسرعاً إلى منزله، فركضت أنا بدوري وسبقته صاعداً على الدرج، لكيلا يكتشف بأنني كنت أتجسس عليه، وقفت أراقب باب منزله من بسطة الدرج التي فوق بيته، لكي أرى ردة فعله على هذه الإهانة، بعد عدة دقائق، رأيت أبو أيمن ينزل الدرج، وكأنه يحمل مسدساً أسود في يده، وصل باب أبو كمال، ثم كبس الجرس، وانفتح الباب ودخل المنزل، وانغلق الباب بشدة من خلفه، فانتفض جسمي من شدة صوت ارتطام الباب، ورجعت إلى مكاني في بسطة الدرج التي فوق بيت أبو كمال، لكي أتمكن من سماع ما يجري داخل المنزل، بعدها ارتفعت الأصوات في داخل الشقة، وازداد الضجيج، وكأن عراكاً يحدث بالداخل، وأصبحت عاجزاً عن فهم الكلمات، فجأة، سمعت صوت طلقة نارية تخرج من هذه الضوضاء، ثم سمعت صوت صراخ يصدر من لمياء، قطع صدى أنينها بعد لحظة صوت طلقة نارية ثانية، ساد بعدها صمت مخيف، فأيقنت حينها أنَّ أبو أيمن قد أطلق النار على أبو كمال وزوجته لمياء.

انسحبت من مكاني من الرعب وشدة الصدمة، وصعدت الدرج إلى بيتي لأطلب شرطة النجدة، بغتة انفتح الباب وخرج أبو كمال، وصعد الدرج باتجاه بيت أبو أيمن، فتجمدت في مكاني من الخوف على بسطة الدرج التي فوق بيت أبو أيمن، والتصقت بحائط بيت الدرج حتى لا يلمحني أبو كمال، ثم سمعت صوت انفتاح باب منزل أبو أيمن وانغلاقه، وبعد أقل من دقيقتين سمعت صوت طلقتين ناريتين، ساد بعدها سكون عميق، تبادر إلى ذهني فوراً في هذه اللحظة، بأن جارنا أبو كمال، قد أطلق النار على زوجة أبو أيمن وابنته، وخشيت من أن يكون قد عرف بمضمون الرسالة التي أرسلتها إلى زوجته لمياء، فارتقيت الدرجات راكضاً إلى بيتي، بعد أن دخلت منزلي أغلقت الباب بالقفل من الداخل، وطلبت من زوجتي الاتصال بشرطة النجدة، لكن زوجتي لم تكن بحاجة إلى تعليماتي، لأنها كانت قد طلبت شرطة النجدة، منذ سماعها صوت الطلقة الأولى.

بعد أكثر من ربع ساعة، وصلت سيارة الشرطة وفيها رقيب، ومعه شرطي يحمل بندقية كلاشينكوف، تجمهر الجيران عند مدخل البناء، وسارع كل واحد منهم بإعطاء النصائح للرقيب، كنت واقفاً بالبلكونة أنا وزوجتي وابني نراقب حشد الخراف، اتصلت زوجتي بالجوال مع إحدى جاراتها التي يقف زوجها مع الرعاع عند مدخل البناء، وسألتها عما يحدث في الأسفل؟ فاتصلت صديقتها بدورها بزوجها، لتفهم منه ماذا يجري، ثم أعادت الاتصال بعد قليل بزوجتي لتخبرها، بأنهم خلعوا باب منزل أبو كمال، ولما

دخلوا البيت وجدوا جثة أبو أيمن والمغدورة لمياء، كما وجدوا ابن أبو كمال الصغير يبكي وحده في غرفة النوم، وأن أبو كمال الآن مختبئ في بيت أبو أيمن، ولا أحد يعرف ماذا يفعل هناك.

بالفعل.. بعد فترة قصيرة، شاهدت الرقيب يحمل ولداً صغيراً ويسلمه لأحد الرجال الواقفين عند المدخل، عندئذٍ استعدت شجاعتي، وفتحت باب المنزل، ونزلت إلى بسطة الدرج التي فوق باب أبو أيمن، لأتابع ما يجري من تطورات.

تخيلت في هذه اللحظة وجه أبو كمال الطيب وشعره الأسود ونظراته الحزينة، وهو جالس وحده يفكر بسرعة بالأحداث التي مرت أمامه، كفيلم سينمائي يتفرج عليه، من دون أن يكون له خيار في إخراجه، لم يكن من السهل عليه الإقدام على قتل أربعة أشخاص في وقت واحد، لا شك أنه كان يخضع تحت ضغوط خارجية رهيبة، أدت إلى جعله في حالة من الاضطراب النفسي، كانت نتيجتها فقدان السيطرة على أعصابه، إن إحساسه الدائم بالظلم، دفعه للانتقام من أبو أيمن، ليحصل على الراحة بالتخلص من الشخص الذي توهم بأنه تسبب له الإحساس بالانسحاق، ووجد منفذاً للهروب من جميع مشاعره السلبية، عن طريق إسقاطها كلها على رأس أبو أيمن، وتحميله مسؤولية جميع المصائب التي مرت عليه.

ربما هو الآن جالس ينتابه الندم على تلك اللحظة التي تعرف فيها على زوجته لمياء، يندب حظه العاثر الذي قاده للزواج من هذه المرأة الجميلة، التي لم يتمكن من تحقيق تطلعاتها، إن سبب

فشل زواجهما يعود إلى جمالها، فثقتها بنفسها تدفعها إلى الغرور والتمرد على تنفيذ أوامره، ما كان يجبره على إخضاعها بالقوة، وعلى ضربها أحياناً للسيطرة عليها، إن تأثيرها فيه، يشبه تأثير المخدر، فهو لا يستطيع الابتعاد عنها، ما أعطاها القوة لتتحكم به، مقابل إشباع رغباته الجنسية، وهذا دفعه بدوره إلى الشك في سلوكها، حتى إن بعض تصرفاتها الطبيعية، وهي تقف على الباب تتكلم مع السمان، وتناقشه في أسعار الأغراض، تدفعه إلى الغيرة عليها، وهو يشاهد الرجل يختلس النظر إليها، وكأنه يحاول أن يخترقها بعينيه النافذتين، موفراً لنفسه لذة آنية بالاستمتاع بمنظرها، لمعرفته بأنها بعيدة المنال، ومع الوقت تحولت غيرته إلى مرض ينخره من الداخل، فانتابته الكآبة، وفقد ثقته بنفسه، إنه لا يستطيع أن يطلق لمياء مهما بلغت رعونة تصرفاتها، لأن جمالها قادر على أن يؤمن لها العديد من الفرص، لتحصل على زوج أفضل منه.

قطع حبل تفكيري صوت الرقيب وهو يصرخ، طالباً من أبو كمال، الخروج من المنزل وتسليم نفسه للشرطة، وليخفف من حدة الموقف قال: إن زوجتك وأبو أيمن جريحان، وإن سيارة الإسعاف في طريقها لأخذهما إلى المستشفى.

كان الرقيب يتذاكى، محاولاً أن يخدع أبو كمال ليسلم نفسه، لكننا لم نسمع أي صوت أو جلبة من داخل بيت أبو أيمن، هنا طلب الرقيب من الجيران المتجمهرين أمام الباب مساعدته لخلع الباب، متوقعاً أن أبو كمال قد انتحر، نتيجة لرؤيته منظر الجثث

التي قتلها متناثرة على الأرض، وهو على يقين بأن أبو كمال كان تحت تأثير المخدرات، لما فقد السيطرة على أعصابه وأقدم على هذه الجريمة، لكن الجميع أصيبوا بالدهشة عندما دخلوا البيت، ولم يجدوا جثة أبو كمال بجانب جثتي عائلة أبو أيمن، لفت انتباه الرقيب أن شباك المطبخ الذي يطل عل سطح الكراج، ويرتفع عنه بحوالي المترين، كان مفتوحاً على مصراعيه، فعرف الرقيب، بأن أبو كمال قد قفز على سطح الكراج، ثم نزل منه إلى حديقة الطابق الأرضي لبيت الجيران، وبعدها انسل منها واختفى، من دون أن يلحظه أحد.

بدأ صراخ الناس يعلو، وكل واحد منهم يتشاطر، ويعطي نصيحته للرقيب، فاقترح أحد الجيران أن يذهب الرقيب إلى بيت أهل أبو كمال، حيث إنه من المتوقع أن يختبئ عندهم، بينما أشار الثاني إلى أن على الرقيب أن يتصل بسرعة بشرطة الحدود، ليلقوا القبض على أبو كمال عند مخفر الحدود اللبنانية قبل أن يصل إلى بيروت.

خرق هذا العيّ والصخب صدى صوت طلقة نارية قادمة من الشارع الموازي لحارتنا، ثم تبعه صوت طلقة ثانية صادرة من المكان نفسه، فاندفع الناس باتجاه صوت الطلقتين، ويبدو أن أبو كمال كان قد ترك المبنى واتجه إلى دكان السمان الذي كان يشتري منه أغراضه، عندما دخل الدكان، أخرج مسدسه وأطلق طلقة نارية على صاحب الدكان، والتفت فوجد أجيره على يساره، فأطلق عليه النار فوراً، فأرداهما قتيلين، إنه منذ زمن بعيد، وهو

يشعر بكراهية مقيتة لهذا الرجل، الذي يغشّه دائماً في أسعار الفواكه والخضراوات.

المشكلة في هذه الأيام، أن الناس قد تعودت على الغش، وساعدها على ذلك، بأن أحداً لم يقف في وجهها ليمنعها من التلاعب بقوت العباد، ثم أخفى المسدس في جيبه، واتجه قاصداً دكان المكوجي، حيث كان صاحبها يقف أمام دكانه، محاولاً أن يفهم سبب إطلاق النار، فاقترب منه، وأخرج مسدسه وصوّبه مباشرة على جبينه من مسافة تقل عن نصف متر، وأطلق النار، فرأى الدم ينفر من رأسه، حتى إنه أحسَّ برذاذ الدم وهي تتناثر على وجهه، وسمع صوت أنفاسه وهو يختنق، فشعر بلذة غريبة لم يعهدها من قبل، لقد خدعه هذا الحقير، وتلاعب به لفترة تزيد على ثلاث سنوات، وعليه الآن أن يدفع ثمن أخطائه.

تفقد مخزن مسدس البريتا، فوجد أنه مازالت فيه طلقتان، إضافة إلى الطلقة الثالثة الموجودة في بيت النار، تذكَّر أن عليه أن يصفي حسابه مع مدير المدرسة التي يعمل فيها، لقد خصم عليه في الأسبوع الماضي عشرة بالمئة من راتبه الشهري لمدة شهرين، بحجة أنه يتأخر يومياً عن الوصول إلى المدرسة، لم يستطع هذا الغبي أن يستوعب مشكلة المواصلات التي يعيشها الشخص العادي في هذا البلد، إنه يتصرف وكأن هذه المدرسة الحكومية التي يعمل فيها ملك أبيه، وأنه الآمر الناهي فيها، إنه لا يعرف حدوده، وعليه الآن أن يرسم له خط حدوده.

أثناء ذلك مرت أمامه في الطريق سيارة أجرة، فلوح بمسدسه

للسائق لكي يتوقف، فخاف السائق من منظر المسدس، وزاد من سرعته مبتعداً عن أبو كمال، فما كان منه إلا أن أطلق طلقتين باتجاهه، فلم تصيباه، ونجا بحياته.

أخذ الجيران يخرجون من بيوتهم على صوت الطلقات النارية، ويتجمهرون حوله تحت تأثير غريزة القطيع التي تسيطر على الأفراد بفعل سطوة عامل الخوف، صرخ أحدهم: لا تخافوا.... أمسكوه قبل أن يهرب، وبدأت الحلقة تضيق عليه، تمنى في هذه اللحظة لو كان معه مخزنٌ ثانٍ من الطلقات، ليقوم بتأديب هذه الجرذان التي لا تستحق الحياة، والتي تستمد شجاعتها مثل القطيع، من بعضها بعضاً.

شاهد من بعيد أهل حارته قادمين مع الرقيب، فتذكَّر في تلك اللحظة منظراً لفيلم كان قد شاهده عندما كان صغيراً، يقوم فيه الجنرال الألماني بفتح فمه وإدخال سبطانة مسدسه إلى داخله، ويضغط على الزناد، مفضلاً الانتحار على الاستسلام، ولطالما استهوته هذه الفكرة، وجسدت له قمة البطولة، وبحركة لا شعورية فتح فمه وأطلق الطلقة الأخيرة لديه، مغادراً هذا العالم الذي لم يكن يوماً ينتمي إليه.